

المعرفة

الجزءان ٣و٤

يوليو وأغسطس ١٩٣٣

من

موضوعات هذين الجزءين

٤/٢
٢

العدد ٢ و ٤ من المعرفة

يليه ماغطس ١٩٢٢

السنة الاولى

فى التربية والتعليم

لكبير المربين الأستاذ الجليل

أحمد فهمى العمروسى بك

ذلك هو عنوان الكتاب القيم الذى طبعته «المعرفة» وقدمته هدية إلى حضرات مشتركيها الذين سددوا قيمة اشتراك السنة الثانية ، وهو الكتاب الوحيد الذى يعتبر دائرة معارف عامة للتربية والتعليم ، لما احتواه من أحدث الآراء فيهما .

وقد أجمعت شتى الجامعات والمعاهد والهيئات العلمية الكبرى على تقديره ، فاشتركت فى عدد من نسخه ليكون مرجعاً للمربين والمعلمين .

كما أجمع رجال النهضة وقادة الفكر والتعليم فى الشرق ، على أنه الكتاب الذى يعتبر بحق درة المؤلفات العربية فى التربية والتعليم للقرن العشرين .

ولا تفتأ الصحف - بين الفينة والفينة - تكتب عنه مشيدة به مشيرة إلى الفوائد التى يجنيها من قراءته العالم والباحث والمفكر والأديب .

وهو يقع فى ٣٢٠ صفحة من الحجم الكبير والورق المصقول ، عدا ٢٢ صورة لرجالات التربية والتعليم ، فى الشرق والغرب ، ومشاهد كثير من الآثار الاسلامية .

* * *

أرسلنا هذا الكتاب إلى حضرات المشتركين الذين سددوا قيمة اشتراك السنة الثانية ، وما نشك مطلقاً فى أن حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة اشتراك تلك السنة ، سيحرصون على اقتناء هذه الهدية النفيسة ، التى تعتبر دائرة معارف عامة فى أهم بحوث التربية والتعليم ، وسيحفزهم حرصهم إلى تسديد القيمة . لتتاح لهم فرصة الحصول على نسخة منه قبل نفاد نسخه المحدودة العدد .

أما حضرات الذين يودون الحصول عليه من غير المشتركين ، فقد جعلنا ثمنه لهم ٤٠ قرشاً مصرياً ، يضاف إليها ٥ قروش أجرة بريد .

ونتتهز هذه الفرصة لنجيب حضرات الذين أرادوا أن يشتركوا فى السنة الثالثة على أن يأخذوا هذه الهدية ، بأن الإدارة لا تقبل ذلك إلا بطريق البدل ، أعنى أنه لا يكون للمشترك الحق فى طلب هدايا السنة الثالثة .

يوليو وأغسطس ١٩٣٣
ربيع الأول والثانى ١٣٥٢



الجزءان : ٣ و ٤
السنة الثالثة

مجلة — شهرية — جامعة
[مقررة فى وزارة المعارف العمومية]
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول
عبد العزيز الإسلامبولى

المجلد الخامس
شعارها : اعرف نفسك بنفسك

الى حضرات القراء

كنا أصدرنا عدد يونيو متأخراً ثلاثة أسابيع ، لاشتغالنا فى ذلك الوقت بطبع هدية السنة الثانية ؛ فترتب على هذا تأخير عدد يوليو ، مما دعا كثيرين من حضرات المشتركين فى الخارج عامة والبلاد النائية بصفة خاصة ، إلى الشكوى من تأخير وصول المجلة إليهم ، فاقترحوا علينا توفيراً للوقت ، أن نصدر جزأى يوليو وأغسطس معاً فى عدد واحـد ، وقد أخذنا بهذه الفكرة على أن نزيد صفحات كل عدد ملزمتين ، ليتسنى لنا إخراج الأعداد المقبلة إن شاء الله فى ميعادها المعتاد ، وهو اليوم الأول من كل شهر إفرنجى .

ولهذا يلاحظ حضرات القراء أنا أضفنا إلى هذا العدد ملزمتين ، راجين أن يصدر عدد سبتمبر فى اليوم الأول منه إن شاء الله .

وبهذه المناسبة ، نذكر لحضراتهم ، أنا عدلنا عن العطلة الصيفية فى هـذا العام ، مستمرين على إصدار المجلة فى شهرى العطلة ، كيفية شهور العمل .

الى حضرات المشتركين

نرجو حضرات المشتركين الذين لم يسددوا ماعليهم لإدارة المجلة ، أن يتفضلوا بتسديد القيمة المطلوبة ، ولحضراتهم الشكر ؟

الإدارة

خواطر المحرر

ثقافتنا العربية : أيان تتجه وتسير ؟

مانظن كاتباً من الكتاب - بالغاً مابلغ منطقه وحواره - مستطيعاً إنكار ذلك الروح الفكرى الوثاب ، وتلك النهضة العلمية القائمة ، وهاتيك الخطوات الجريئة التى تقطعها الثقافة العربية فى طريقها إلى الغرب المتدفق السيل .

فأنت حيث تسير وأنى تتجه، واجد حركات جديدة ،وأفكاراً حديثة، لبس إلى دفعها أو ردها من سبيل ؛ ذلك أنها شائعة فى نفوس الشباب ، منبثة فى أذهان الجمهور ، الذى يتعمد بعض من الكتاب تضليله واستغلاله .

ذلك هو الحق ،نذكره وإن كان مراً ، فهل لنا أن نأمل الخير من تلك الخطوات التى تخطو إليها ثقافتنا العربية ، أم الأمر بالعكس .

نحن لا ننكر ما لثقافة الغرب من نفع وخير ،وجمال وقدر، بل ليس من المعقول أن ننكر أنا نتأثر بما يدور حولنا ، ويقع أمامنا ، ويعج به محيطنا ؛ بل محيط أوروبا من سياسة وعلم ومعرفة ، واختراع ، وآداب، وتقاليد ، وحضارة وصناعة، وثقافة وصحافة وتجارة . . . إلى غير ذلك مما أنتجته عقول الغربيين وولدته أيديهم الصناع .

بل لسنا ننكر أن مصر - وهى بحكم موقعها الجغرافى،حلقة الاتصال بين الشرق والغرب - يستلزم أن يكون تأثرها بالحضارة الأوروبية أكثر من تأثر شقيقاتها العربيات ؛ ولأنها من عهد محمد على الكبير،منشئها حقاً، آخذة فى سبيل الدنو إلى الغرب قدماً ،والانسلاخ عن الشرق شيئاً فشيئاً . وهاهى ذى ثقافتها تزداد من الثقافة الغربية دنواً واقتراباً ، كما يزداد اقتحام مخترعات الغرب بلاد الشرق اقتحاماً ، سواء أكان ذلك أم هذا ، صادراً عن رضا وطواعية ، أم عن ازورار وكراهية . مادام عصرنا - وهو عصر المادة - يأبى الرضوخ لغير حكم السيف والمدفع .

لسنا ننكر ذلك كله ، بل لسنا نستطيع تجاهله أو التعامى عنه ؛ ولكننا ننكر على الثقافة الغربية كلها أن تكون خيراً خالصاً وهذا نطلب إلى كتابنا وقادة الرأى منهم، أن يتدبروا الأمر ويدرسوا ما يأتى به الغرب فى ضوء التحقيق العلمى النزيه ، ويتعرفوا السبل والمسالك الآمنة التى سلكها الغرب فيما اختط من سبل ومسالك ، وأن يتقوا الله فيما ينشرونه على الشباب من آراء وأفكار لما تختمر فى أذهان مذيعيها بعد ، أو لم يقم على صحتها دليل بعد ؛ فيروحون هدامين مخربين ، منكرين ميراثنا العربى ، لا يرون فيه خيراً ولا جمالا ؛ إلى هؤلاء نطلب

مخلصين أن يتعرفوا قيمة تراثنا العربى، ويتحسسوا مواطنه فى مخطوطاته ومطبوعاته، وفى آثاره ومخلفاته، من إسلامى وعربى، وقبطى وفرعونى؛ وفى أديانه وفلسفاته، وروحانياته وماديانه، ثم فليصدروا بعد ذلك حكمهم منصفين.

ووقتئذ يحق لـكل منهم أن يدعو إلى التجديد دون قيد ولا شرط، اللهم إلا قيـد من الدين، وشرط من القومية الصحيحة.

صحيح أن كثيراً من عاداتنا وتقاليدنا، وأدبياتنا واجتماعياتنا، فى حاجة إلى الإصلاح والتغيير، بل الهدم والتدمير، وصحيح أن الفكر العربى انحط فى كثير من عصوره، فأدركته لمة من وهن، وحفنة من ضعف، ورشاش من ركود، وسنة من نوم؛ ولـكن هذا كله - على فرض صحته - عارض من العوارض الزائلة التى تنتاب الأمم فى كثير من أدوار حياتها، ثم تزول عند يقظة أبنائها، فهل آن لنا أن ندرك هذه الحقيقة خالصة، فنعمل على إيقاظ الأمة، وإرشـادها إلى كيانها القائم فى تراثها القديم، وكشف الجوانب المضيئة اللامعة فيه، الفياضة بالخير والنور، لنبنى عليه حاضرنا ومستقبلنا فنزداد، قوة ونشاطا وحياة ورجاء فى المستقبل، بدل تحسس الجوانب المظلمة التى لا يخلو منها تاريخ أى أمة من الأمم؟

ليعلم هؤلاء - إن كانوا لا يعلمون - أنه ما من أمة تستطيع احترام حاضرها، وتحقيق مثلها الأعلى، ما لم تكن محترمة ماضيها، واقفة على ما لتاريخها القديم من روعة وجلال؛ ذلك أن للماضى تأثيراً بالغ الحد فى رسم المثل العليا التى تنشدها الأمم لمستقبلها، فاذا ما افتخرنا بماضينا، ومضينا فى الأخذ بتهذيب المعوج منه، وتشذيب النائىء فيه، استطعنا أن نغرس فى الشباب الحاضر بذور الرجولة الحقة، والوطنية الصـادقة، فيشعر كل منهم أن له ولأمته شخصية مستقلة، وذاتية حية، وكياناً قائماً؛ ومن ثم يدفعه ذلك الشعور النبيل، إلى الأخذ بأسباب الحياة الصحيحة، وتحقيق الغايات النبيلة، فى شـعور فياض بالقوة والإخـلاص، وإحساس موفور بالـكرامة والعزة المنيعة.

وليعلموا بعد ذلك أنا عرب - سواء أرضينا أم لم نرض - فما معنى التنكر لآبائنا وأجدادنا، وإنكار أدبنا ولغتنا، والزراية بتاريخنا وثقافتنا، وقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا؟

ألا فليعلم هؤلاء أيضاً، أنا ميالون بطبيعتنا إلى التجديد، ذلك التجديد الذى يشمل كل فروع الحيـاة، على أن تكون له من القديم حجة، ومن ماضينا المجيد دعامة؛ التجديد الذى يقوم على سلاح من الحق، وينهض بقوة الإيمان واليقين، التجديد الذى يرتكز على المنطق الصحيح، ويهزأ بالبهرج الزائف.

نحن نؤمن بالتجديد لأنه دليل الحياة ، ونؤمن بالتطور لأنه الباب الذى يفسح للآراء الجديدة طريقاً ، ويمهد للعلم والمعرفة سبيل التقدم والنجاح .

نؤمن بذلك كله ، وندعو إليه ، وإلى الأخذ بأسباب الحياة فيه . وبكل مافى الحياة من أساليب وفنون ، لكننا نخشى التهور ، والتورط فى مزالقه ؛ فلا أقل من الحيطة الشديدة ، والحذر الدقيق ، والتأكد من سلامة مايدس على ثقافتنا من آراء وأفكار ، ليحق لنا النجح ، ونستثم فروع النهضة ، سواء أكانت علمية أم اجتماعية أم سياسية ، أم غير ذلك مما يمهد لنا خطوات الوصول إلى المثل الأعلى الحى .

أما التقليد الأعمى ، والانسياق وراء الغير ، دون تفكير ، أو إنعام نظر ، فلا نعده تجديداً بالمرة ، وإنما نعده آية الضعف والاستكانة ، ودليل الاستخذاء والجمود ، قال العلامة ابن خلدون يصف مثل هذه الحال :

« إن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه ، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى ، إنما هو لكمال الغالب ، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً ، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء . . . . » ، « فإذا ذهب الأمل بالتكاسل ، وذهب مايدعو إليه من الأحوال ، وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم ، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم ، بما خضد الغلب من شوكتهم ، فأصبحوا مغلبين لكل متغلب . طعمة لكل آكل » .

هذا كلام ابن خلدون علامة الاجتماع ، وشيخ أساتذته إطلاقاً ، فلنتدبره . ولنحذر كثيراً ، ولنحتط أكثر ، والحذر والحيطة فى مكنتنا نحن ، فماذا يمنعنا منهما ؟ اللهم لاشىء :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

المعرفة فى سنغافوره

تخاطب « مجلة النهضة الحضرمية » فيما يختص بالمعرفة فى سنغافورة .

المعرفة فى جاوا

نرجو حضرات مشتركينا فى جاوا أن يرسلوا قيم الاشتراكات إلينا مباشرة ، حيث إن الشيخ عمر معروف عقبه لم يسدد ماعليهم عن السنة الثانية إلى الآن .

الفرد لورد تنسن

ولد « الفرد تنسن » الشاعر الانجليزى قبل ميلاد « دكنز » بثلاث سنوات، وكان أبوه قسيساً ورئيساً لمدرسة عالية فى بلدة (سمرسبى) فى مقاطعة (لنكولن شير) .

ولم يكن فى أيام تنسن مكان أبهج من مدرسة (سمرسبى) هذه فى كل المدينة ، لأنها احتوت أحد عشر طفلا نابهاً ذكياً . ومن بينهم ثلاثة أطفال إخوة ، وكان ثلاثتهم طوال الجسوم حسان الوجوه ، وهم « فردرك ، وشارلز ، وألفرد » . وكان يمكنهم كلهم أن يكتبوا قصة جيدة وينظموا شعراً حسناً ، وقد تفوق ألفرد على أخويه مع أنه كان أصغرهم سناً .

وقد التحق ألفرد تنسن بمدرسة (لوث) اللغوية ، ومضى فيها أربع سنوات لم يشعر أثناءها بسعادة ما . ولكنه عوض ذلك أثناء عطلته المدرسية ، فقد كان يشعر بسعادة وغبطة عظيمتين أثناءها، حيث كان يصرفها متجولاً فى الغابات والأحراش ، ومشاهدة الحياة البرية حوله، باهتمام ويقظة ، وظل تنسن يتعمق طول حياته فى ملاحظة الطبيعة، وبذلك تعرف بجميع أنواع الأشجار والأزهار التى وجدت بالجهة التى يعيش فيها ، ثم درس أجزاءها ، من حيث أنواع الورق ، والكم ، والزهرة . ودرس الحشرات مثل الفراش ، وكذلك الطيور والنجوم وأنواع الأحجار . ولذلك نلاحظ فى أشعاره آلاف الإشارات للأشياء التى لاحظها ودرسها بدقة وعناية أثناء جولاته العديدة منفرداً .

ولما بلغ الثامنة عشر من عمره ، نشر هو وأخوه شارلز كتاباً من أشعارهما ، وفى السنة التالية التحق ألفرد تنسن بمدرسة ترتى بكمبردج ، وهناك لم يهتم كثيراً بالدراسات المختلفة ، وإنما وجه جل اهتمامه وأكثر وقته للشعر والنقاش مع جماعة منتخبة من الأصدقاء ، من بينهم هنرى هلام الذى كانت له منزلة خاصة عند تنسن ربما فاقت منزلة الأخ .

وفى أثناء وجوده بالجامعة نال مدالية ذهبية على منظومته التى عنوانها تمبكتو Timbuctoo ، ومجموعة أخرى من الأزجال المضحكة المستخفة بثكرى ThacKarey الذى كان زميلاً له .

وفى السنة التالية نشر تنسن مجموعة ثانية من أشعاره ، وعاد بعد ذلك بقليل إلى بلده ، حيث ماتت والدته ، وقد أحزنه موتها كثيراً ، فسافر إلى الخارج مع صديقه هالام .

بعد ذلك بثلاثة أعوام أخرج للعالم أول ديوان هام من أشعاره ، ومع ذلك فقد وجدت به أخطاء كثيرة ، وقد صدم تنسن بالنقد القاسى الذى صادفه ديوانه ، ولكنه كان شجاعاً ، فاستمر يكتب ، وظهر تقدمه وحذقه فى فنه كل يوم أكثر من سابقه .

وفى عام ١٨٣٣ مات صديقه هالام فجأة ، وكان موته صدمة عنيفة لتنسن ، نتج عنها إحدى مراثيه النبيلة القوية فى اللغة ، وهى التى عنوانها « In memoriam » .

وقد اعتبر تنسن فى مقدمة شعراء عصره حتى قبل ظهور عمله هذا ، فلما مات الشاعر العظيم ورديثورث Wordsworth شاعر الملوك ، انتخب تنسن بدلا عنه، وكان واجبه إذن أن يدون أشهر الحوادث التاريخية للأسرة المالكة والأمة نظما . فكان أول ما كتبه فى هذا النوع ، مرثية يرثى فيها دوق أوف ولنجتن ، وتبع ذلك منظومة أخرى هامة .

ثم ختم تنسن حياته الفردية بالزواج ، واشترى منزلا فى جزيرة وايت ، وهناك استقر به المقام واطمأن إلى الحياة الريفية ، وكان يصرف بعض وقت فراغه فى إصلاح شئون حديقته والاعتناء بأزهارها ، كما شارك أولاده اللعب ، وقد كان جد سعيد بذلك .

وقد درس تنسن (مالورى Malory) ، وكتب مواضيع شتى اختارها من كتابه. وحول كثيراً من القصص القديم الى أشعار جميلة ؛ وقد سر ذلك العمل عشرات الألوف من قرائه . ومن أشهر هذه القصص : سير جلهاد ، وجرث ، وليذث . وبعد ذلك غير تنسن مسكنه، فابتنى له منزلا آخر فى (ألدهرست) فى مقاطعة (سرى Surry) على سفح تل مرتفع ، حيث يشرف المنزل على مناظر جميلة واسعة .

ولما بلغ السادسة والخمسين من عمره ، كتب روايته التمثيلية الأولى « الملكه مارى Queen Mary » التى أخرجها صديقه السر هنرى إرفنج فى لندن . وتبعها روايتان أخريان هما هارولد وبكث Harold; BecKet ،ولكن حذقه لم يظهر فى كلتيهما .

وفى عام ١٨٨٤ أرادت الملكة أن تنصبه أميراً ، وبعد تردد قبل ذلك الشرف العظيم ، ولقب بارون تنسن . وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ مات ابنه الأكبر، ومع أن ذلك أحزنه كثيراً ، وأثر عليه أيما تأثير ، فقد وجد سلوى فى عمله ومشاركة الغير فى أحزانهم وويلاتهم .

وقد كان تنسن رجلا ديناً مؤمناً فى كل أطوار حياته . وشغف دائما بأن يسمع أجزاء من الكتاب المقدس تقرأ له . ولم يتجل معتقده فى أى قطعة من كتاباته أكثر مما تجلى فى منظومته التى كتبها فى السنة الحادية والثمانين من عمره ، وتسمى تلك المنظومة « Crossing Re Bar »

ومات تنسن فى اليوم السادس من اكتوبر سنه ١٨٩٢ وعمره ثلاثة وثمانون سنة وشهران ، ودفن بين العظماء فى وستمنستر .

ومن قراءة منظوماته الطويلة والقصيرة ، يعلم أنه كان أستاذاً للغناء الانجليزى ، وأنه كان يعنى كل العناية بأن يبرز عمله تاما متقنا بقدر الامكان . وكان من أهم ما امتاز به استعمال الكلمات الرائعة الدالة على ما أراد من معنى ، كما أنه كان يسلس قياد الألفاظ لأسلوبه النظمى الساحر بحذق ، لا يضارعه فيه غير شكسبير . ومما يذكر له بالفخر العظيم أن قلمه كان سامياً ، فلم يخط شيئاً دنيئاً أو منحطا قط .

الاصل الحيوى والاصل المادى

بقلم الأستاذ محمد فريد وجدى

أجهد الماديون أنفسهم طوال القرنين: الثامن والتاسع عشر ، ليثبتوا للعالم أن الكون كله يقوم بالمادة وحدها متحركة بقوى ذاتية فيها . وحاولوا أن يطردوا من العلم كل قول بضرورة وجود أصل حيوى مع المادة يؤثر فيها ويحولها إلى خلايا حية، يتخذها عناصر لبناء الكائنات الحية من نباتية وحيوانية ، ويتولى قيادتها فيدفعها إلى أدوار من التطور تصل من طريقها إلى كمالها المقدر لها .

وهذا الرأى من الحيويين لم يقتبس من دين من الأديان، ولا يمت بصلة إلى عقيدة من العقائد، ولكنهم اضطروا إلى افتراضه اضطراراً علمياً ، ليتوصلوا به إلى تعليل قيام الكائنات الحية على الحالة التى هى عليها .

ولكن الماديين رأوا أن هذا الافتراض لاضرورة له ، لامن ناحية أنهم لايعترفون بوجود الحياة فى الكائنات الحية ، ولكن من ناحية أن هذه الحياة ليست بأصل قائم بازاء المادة، ولكنها تطور من المادة نفسها ولا وجود له إلا بها .

وقد أتينا فى مقالات متعددة بهذه المجلة على آراء كبار علماء البيولوجيا المعاصرين فى الحياة ، وسجلنا عليهم شهاداتهم فى أن الحياة هى التى تبنى الكائنات الحية وتشكلها، لا أن المادة هى التى توجدها وتتولى أمرها ، فوهنت بهذه الآراء المبنية على المشاهدات أصول الماديين ووهت حججهم ، وتوالت المستكشفات فاختلت صفوفهم ودالت دولتهم . ونريد هنا اليوم أن نأتى على بعض ما كانوا يتذرعون به من الشبهات، وعلى بعض ماقوبلوا به من المكافحات، لأن فى ذلك علماً بمحاولات الماديين وبما يجب أن يقابلوا به من الأدلة المبطلة لدعواهم .

كان الماديون يزعمون أن الحياة نشأت من المادة نشوءً بتأثير الفواعل الطبيعية ، فلما أعلن الأستاذ (هيكيل) الألمانى أنه اكتشف أصل الأحياء فى لطخ مخاطية تتكون فى بعض الرطوبات قبل أن تتألف إلى خلايا سماها (المونير) ، طرب الماديون من هذا الاستكشاف واعتقدوا أن مذهبهم قد تأيد بالمشاهدة العلمية ، وأعلنوا فى زهو كبير أن مذهب الحيويين قد أصيب بضربة قاضية لا تقوم له بعدها قائمة، داهبين إلى أن هذه اللطخ المخاطية هى أصل الخلايا الأولية.

ونحن لا نرى لتبجحهم موجباً حتى لو ثبت أن التولد الذاتى صحيح لامرية فيه ، لأن

القائل بوجود القوة الحيوية يستطيع أن يحاجهم بأن الذى أحدث هذه اللطخ هى القوة الحيوية المنبثة فى الكون مع المادة ، ثم تولتها وصنعت منها الخلايا الأولية التى تتألف منها الكائنات الحية ؛ فالتولد الذاتى إذا ثبت على هذا الوجه لايقوى على إزالة الرأى القائل بوجود القوة الحيوية. فإن (مونير) هيكيل ليست بأكثر تركباً من الجسد الإنسانى، فإذا كان الماديون أنفسهم يقولون بوجود الحياة فيه ، فمن السهل أن يتصور حلولها فى المونير ، وهى من البساطة بحيث تشتبه بالمواد الجامدة ؛ فنظرية هيكيل تؤيد قول الحيويين ولا تدحضه .

وإذا أضفت إليه ماسبق لنا نشره فى هذه المجلة من رأى الأستاذ (هكسلى) من أن هذه المونير التى دعاها (الأميب) تأتى من الأعمال ـ مع حرمانها من جميع الأعضاء ـ بما لايصدر إلا عن الكائنات العاقلة ، حتى أنها لتبتنى لنفسها قواقع تحل فيها ذات أشكال هندسية بديعة، إذا أضفت إليه هذا رأيت أن افتراض وجود القوة الحيوية أصبح أمراً لابد منه . وقد رأيت أن (هكسلى) نفسه قد ذهب إلى أن القوة الحيوية هى التى تحدث هذا الأميب ، وتحمله على الإتيان بالأعمال العقلية وهو محروم الأعضاء كل الحرمان .

ولكن الماديين يقولون: لاداعية لافتراض وجود الأصل الحيوى فإن خواص المادة والقوى المودعة فى ذراتها تكفى لإقامة حياة كل كائن حى، وتدبير تركيبه وإبلاغه إلى أقصى مايستأهله من مراتب الوجود حتى الإنسان نفسه .

فقال العلامة (شفلر) الألمانى :

« كل من هذه القوى (قوى الجواهر الفردة) تحدث فى غيرها تأثيراً يحصل الجسم بواسطته فى كل جزء من أجزائه على وحدة من رتبة أرقى ، فتجتمع التأثيرات الخاصة لكل هذه القوى الفردية ، وتحدث نتيجة عامة وتكون مقاومة تدمج جميع الأجزاء فى مجموع واحد يرتسم عليه الشكل الأساسى لكل خاصة شخصية » .

نقول : هل يخيل للأستاذ (شفلر) أنه بإيراده هذه العبارات قد فسر كل غامض من حياة الكائنات الحية ، وهو يعلم أن كلا من كلماتها حكم ليس له عليه دليل ؟ إن تعليل قيام الأجسام الحية بمثل هذه الخيالات يحتاج لقسط كبير من سهولة التصديق حتى يوافقه عليه أضعف العقول البشرية .

لو قال قائل : كيف يحصل الجسم الحى على وحدة عامة من تأثيرات مختلفة مادام لم يوجد أصل منظم للمجموع ؟ ومن يبنى هذا التركيب الجسمى الحى ؟ وكيف تعمل خصائص المواد على نظام واحد لإحداث نتيجة عامة لم تفكر فيها ولم تدركها ؟ وأى عقل يسوغ لنا أن نعتقد أن العماية المطلقة تحدث كل هذه المبدعات الحية المتنوعة التراكيب إلى مالا نهاية ؟

أحسن ما قيل حيال هذه الفروض ماقاله الأستاذ (تيسو) الطبيعى الفرنسى، قال: « أيجوز أن نقبل جميع هذه الاتفاقات (الصدف) فى سبيل رفض الأصل الحيوى المتمتع بقوة منظمة خاصة؟ »

يضحك الطبيعى الألمانى (ملدر) من قول الروحيين بوجود قوة حيوية، ويضرب لذلك مثلاً فيقول: « لو تخيلنا معركة ناشبة بين ألوف من المتحاربين، فليس المحرك لهم قوة واحدة هى التى تطلق المدافع وتحرك الصوارم الخ . . . تسمى بقوة المعركة، ولكنها مجموع قوى لا تحصى تعمل كل منها فى دائرتها لإحداث ما يسمى بالمعركة » .

نقول: يستنتج من كلام (ملدر) أن القوة الحيوية ليست أصلا ولكن نتيجة، ولكن غاب عنه أن هذه الأعمال العسكرية الفردية كانت تذهب سدى وتوجب خسران الموقعة لو لم تكن صادرة عن نظام عسكرى عام تنزل من عقل القائد إلى كل ضابط وسرى من كل ضابط إلى كل جندى؛ فالنظام الذى شوهد فى الجيش المتحارب لم يجىء مصادفة أو اتفاقاً، ولكنه جاء عن تدبير سابق وخطة مقررة، وإذا كان هذا صحيحاً بين أفراد المتحاربين وهم عقلاء، فكيف لا يكون صحيحاً بين أفراد المتحاربين وهم عقلاء؟ وكيف لا يكون صحيحاً بين ذرات الجسد الحى المحرومة من كل عقل؟ أليست حاجة الجسم الحى ــ وهو مركب من ذرات لا تعقل ــ إلى أصل حيوى منظم، أكبر من حاجة المتحاربين العقلاء إلى قائد مدبر؟

مما يزيد فى قيمة المذهب الروحى أن كبار الفزيولوجيين والمشرحين والطبيعيين من أنصاره مثل: بوفون وكوفييه وداروين وروسل ولاس وجون لبوك وهكسلى وهربرت سبنسر وأوليفر لودج الخ، وما كانوا كذلك إلا لأنهم لم يستطيعوا تعليل ظواهر الحياة بقوانين المادة المجردة، فاضطروا لفرض وجود قوة حيوية مستقلة تتنزل على المركبات الآلية، وتشرق فيها على قدر استعدادها ودرجة تركيبها.

قال العلامة الطبيعى (بوفون) الفرنسى فى كتابه (التاريخ الطبيعى):

« إن القوالب الحقيقية لتركيبنا الجثمانى ليست هى هذه العضلات ولا هذه الشرايين، ولا هذه الأوردة، ولكنها قوى داخلية لا تتبع قوانين الميكانيكا الساذجة التى تخيلناها وأردنا أن نحيل كل شىء إليها » .

وقال الدكتور (سريز) فى كتابه (علم الملاحدة):

« الظواهر الحيوية كثيرة التركب، والقوى الطبيعية مع اشتراكها معها اشتراكا لا مشاحة فيه ــ وإن كان يصعب قياسه ــ هى خاضعة لقوة عليا ترأسها وتستخدمها لأغراضها »

ويحسن بنا أن نتوج هذا المقال بكلمة ثمينة كتبها العلامة الفرنسى (لوجيل) فى كتابه (العلم والفلسفة) قال:

« العلم يستسلم أحياناً لشكوك وإنكارات تزعجنا، ولكن للعلم مساتير لا يسبر لها غور، فهو يكتفى بالألفاظ كلما لم يجد سبيلاً للنفوذ إلى سرائر الظواهر المحسوسة .

« تكثر الكيمياء من ذكر الألفة ؟ أليست هذه الألفة قوة فرضية وآنية غير مدركة بالحواس كالحياة والروح ؟ الكيمياء ترجع إلى الفيزيولوجيا فكرة الحياة ، وتأبى عليها أن تشتغل بها ؛ ولكن الفكرة التى تحوم حولها الكيمياء هل فيها ظل من الحقيقة ؟ هذه الفكرة هى غالباً لا تدرك ليس فقط فى أصلها ولكن فى نتائجها أيضاً .

« هل يمكن للانسان أن يتأمل لحظة مثلا فى القوانين المسماة بقوانين برتلو بدون أن يدرك بأنه حيال سر لا يسبر غوره ؟

« وإذا اعتبرنا ظاهرة بسيطة من ظواهر الاتحاد الكيميائى ورأينا هذا الميل الذى يدفع بعض الذرات إلى بعض فتتباحث ثم تتضام بعد تخلصها من المركبات التى كانت تحويها ؛ أليس فى هذا ما يحير العقل ؟

« كلما أمعن الانسان فى درس العلوم من وجهتها المعنوية زاد اعتقاداً بأن ليس فى العلم ما يمنع من اتفاقه مع أبعد الفلسفات العقلية مرمى .

« العلوم تحلل العلاقات وتأخذ القياسات وتكتشف النواميس التى تنظم عالم الظواهر، ولكن لا يوجد ظاهرة واحدة ، مهما كانت تافهة ، لا تضعها العلوم حيال أمرين ليس للأسلوب التجريبى عليهما من سبيل . أولهما : أصل المادة التى تغيرت بواسطة تلك الظاهرة الطبيعية ، وثانيهما القوة التى استدعت هذه التغيرات فيها .

« نحن لا نعلم ولا نرى إلا الظواهر والقشور ، أما الحقيقة والعلة فتأبيان أن تنكشفا لنا ، وإنه ليحق لفلسفة عالية أن تعتبر كل القوى الخاصة التى أفاعيلها قد تحللت بالعلوم المختلفة صادرة عن قوة أولية أبدية واجبة الوجود مصدر كل حركة ومركز كل عمل ، إذا وجهنا أنفسنا هذه الوجهة تظهر لنا الحوادث الطبيعية والكائنات ذاتها صوراً متغيرة لفكرة إلهية » انتهى م؟

محمد فريد وجدى

المعرفة فى سوريا وفلسطين ولبنان

المعرفة فى يافا

مهديو بنى العباس

بقلم الأستاذ مصطفى جواد (بغداد)

المهدية من المؤثرات الشديدة فى تاريخ الاسلام، وهى اجتهاد فى سياسة الاسلام كالاجتهاد فى فقهه ، ولقد تنازع المهدية بنو أمية باسم السفيانى ، والخوارج باسم الشارى، وبنو هاشم باسم المهدى ، فكان منهم الغالى والمقصر وسالك الجدد .

ولظهور هذا المذهب فى الاسلام عدة علل أهمها :

(ا) قول الرسول – ص – : لا نبى بعدى (ب) ودعم السلطة الدنياوية بالدين (ح) وأحاديث نبوية عامة أريد بها كفاح الاستبداد وقطع الإفساد (ء) الخروج من ربقة الدين بحكم الدين ، فعل من يتداوى من الشىء بمثله سعياً إلى الإمارة والثراء ، وإذ علمت أن هؤلاء الثائرين على الدولة الاسلامية كانوا بين صالح وطالح ، أيقنت أن الطالحين يضعون أخباراً أو يستوضعونها لتحلة ما شرعوا فيه ولاتقاء طعن الدين بمجن منه ، فكثرت الأحاديث المكذوبة على الرسول – ص – والإمام على – ع – والصحابة الكرام ، وألفت فى ذلك كتب كثيرة فى عهود مختلفة ، وإذا ما أنعمت النظر فى أحدها وجدت أحاديثه كالريح النكباء يلطم بعضها بعضاً ، فلا تخلو منه بطائل ولا تقف منه على حجة . وكان من شأن وضاع هذه الأحاديث أن يلحقوا بها أخبار علامات طبيعية واجتماعية وسياسية منتزعة من أحوال عهدهم ، ليوقن العوام بصدق هذا المهدى الذى هو نتيجة لتلك المقدمات . فى حديث من هذه الأحاديث – وقد صدره مؤلف الكتاب – أن الرسول – ص – لما عرج به إلى ربه تعالى، أتاه نداؤه بالخصائص العظم والمراتب العلى ، ويقول فيه الله للصادق الأمين « وأعطيتك أن أخرج من صلبه أحد عشر مهدياً كلهم من ذريتك من البكر البتول ، وآخر رجل منهم يصلى خلفه عيسى بن مريم يملأ الأرض عدلاً كما ملئت منهم ظلماً وجوراً ، أنجى به من الهلكة، وأهدى به من الضلالة، وأبرىء به من العمى ، وأشفى به المريض ، فقلت إلهى وسيدى ! متى يكون ذلك ؟ فأوحى إلى – جل وعز – يكون ذلك إذا رفع العلم وظهر الجهل وكثر الفساد وقل العمل وكثر القتل وقل الفقهاء الهادون وكثر فقهاء الضلالة والخونة وكثر الشعراء واتخذوا قبل قبورهم مساجد وحليت المصاحف وزخرفت المساجد وكثر الجور والفساد وظهر المنكر وأمرت أمتك به ونهوا عن

المعروف واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وصارت الأمراء كفرة وأولياؤهم فجرة وأعوانهم ظلمة وذوو الرأى منهم فسقة ، فعند ذلك ثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وخراب البصرة على يد رجل من ذريتك يتبعه الزنوج وخروج رجل من ولد الحسين بن على وخروج الدجال يخرج بالمشرق من سجستان وظهور السفيانى»[1]

فهذه أمارات عامة وأحوال متعارفة فى كل دولة استمكن الضعف منها ، وقبحت الأخلاق فيها وكثرت الحروب فيها كالدولة العباسية فى أواسط القرن الثالث للهجرة ؛ فهذا الحديث ــ فى رأينا ــ من موضوعات صاحب الزنج الذى ثار بالبصرة فى خلافة المهتدى سنة ٢٥٥ هـ ، وكان يزعم أنه على بن محمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وأكثر الناس يقول إنه دعى آل أبى طالب ، وكان يرى رأى الخوارج الأزارقة؛ لأن أفعاله فى قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفانى وغيره ممن لا يستحق القتل تشهد بذلك ، قال المسعودى: «فكانت مدة أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر ـ يقتل الصغير والكبير والذكر والأنثى ويحرق ويخرب ، وقد كان أتى بالبصرة فى وقعة واحدة على قتل « ثلثمائة » ألف من الناس، وقد كان المهلبى من علية أصحاب على بن محمد بعد هذه الوقعة بالبصرة ، فنصب منبراً بالموضع المعروف بمقبرة بنى يشكر . . يخطب على ذلك المنبر لعلى بن محمد ويترحم بعد ذلك على أبى بكر وعمر ولا يذكر عثمان ولا علياً فى خطبته»[2] .

وقال السيوطى: «وكان له منبر فى مدينته يصعد عليه ويسب علياً وعثمان ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة»[3] ، وقال المسعودى: « وبلغ من أمر عسكره أنه كان ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس ، فتباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة، وينادى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان الفلانى زنجى منهم العشر والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ويخدمن النساء والزنجيات كما تخدم الوصائف ، ولقد استغاثت إلى على بن محمد امرأة من ولد الحسن بن على بن أبى طالب كانت لبعض الزنج ، وسألته أن ينقلها منه إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه فقال: هو مولاك وأولى بك من غيره »[4] ، وجاء فى نهج البلاغة بعنوان « ومن كلام له عليه السلام فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة ما أصله «يا أحنف كأنى به وقد سار بالجيش الذى لا يكون له غبار ولا قعقعة لجم ولا حمحمة خيل ، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام ، ويل لسككم العامرة والدور المزخرفة التى لها أجنحة كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة ، أولئك الذين لا يندب

---

(١) ص ٣ و ٤ من بشارة الاسلام (٢) مروج الذهب « ٢ : ٤٣٩ و ٤٤٦ » (٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٣ من طبعة الهند (٤) مروج الذهب : ص ٤٤٧

قتيلهم ولا يفقد غائبهم . . . » ، قال الشريف الرضى أبو الحسن : « يومىء بذلك إلى صاحب الزنج » [١] ، وسنبين هذا الخبر كسبيل ذلك ، وقد خفى أمره على الشريف الرضى رحمه الله .

أما الخسف الذى أشار إليه فى الحديث الأول واضعه فقد حدث ، قال السيوطى : « وفى سنة اثنتين وأربعين (ومائتين) زلزلت الأرض زلزلة عظيمة بتونس وأعمالها والرى وخراسان ونيسابور وطبرستان وأصبهان ، وتقطعت الجبال وتشققت الأرض بقدر ما يدخل الرجل فى الشق ، ثم قال : وفى سـنة خمس وأربعين (ومائتين) عمت الزلازل الدنيا وخربت المدن والقلاع والقناطر وسقط من أنطاكية جبل فى البحر » [٢] .

أما خسف جزيرة العرب فقد قيل فيه : إن جبلاً باليمن تحول من موضعه سنة ٢٤٢ هـ واستقر فى موضع آخر ، فكيف كان استقراره بلا خسف ولا غور فى الموضع الجديد ؟

وأما الدجال الذى رمز إلى خروجه ببلاد سجستان فهو « يعقوب بن الليث الصفار » ، ولعل أسهل أمارة ذكرها مختلق ذلك الحديث خروج رجل من ولد الحسين بن على ـ ع ـ ، فلو كان قد قال « خروج رجال من ولد الحسين » لكان موفقاً فى كذبه ، فقد ثار كثير من ولده فى هذا العهد ، وتجد أخبارهم فى كتب التاريخ ، ولا سيما « مقاتل الطالبيين » لأبى الفرج الأصفهانى ، وأشهرهم وأصلحهم « يحيى » الذى رثاه ابن الرومى بقصيدة أنافت على مائة بيت وعشرة ، فانظر كيف كانوا يلفقون بين الحوادث السياسية والطبيعية والاجتماعية عند توليدهم الأحاديث ، وما أطلنا الكلام إلا لنضرب مثلاً ونشرع أسلوباً للتحقيق وننبه من لم يقف على تلبيس المفسرين فى أرض الله وهم يدعون أنهم مصلحون .

فالعباسيون كانوا مشاركين للعلويين فى المهدى ، وكان الحزبان كلاهما يحاربان الأمويين حرباً دينية أداتها ولأمتها « أن المهدى من بنى هاشم » ، ففى حديث من أحاديثهم أنه جاء رجل إلى الامام على ـ ع ـ فقال له : يأمير المؤمنين نبئنا بمهديكم هذا ، فقال « إذا درج الدارجون وقل المؤمنون وذهب المجليون (كذا) فهناك » ، فقال يأمير المؤمنين ممن الرجل ؟ فقال : من بنى هاشم من ذروة طود العرب وبحر مغيضها إذا وردت ومجفو أهلها إذا أتت .

ولما أشرف العباسيون على النصر وقاربوا الفلج ابتدعوا أحاديث تشير إليهم وتذكر شاراتهم وتعدد أعوانهم ، استعداداً للاستئثار على العلويين وتذرعاً إلى حرمانهم الملك العقيم .

فمن ذلك ما جاء فى كتاب البيان عن ثوبان قال : قال رسول الله ـ ص ـ يقتل عند كنزكم (كذا) ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا تصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلا لم يقتله قوم ، ثم ذكر شيئاً لا أحفظه . قال رسول الله ـ ص ـ فاذا رأيتموه

---

(١) شرح ابن أبى الحديد « ٢ : ٤١٠ » (٢) تاريخ الخلفاء : الجزء الخامس ص ٣٥٤

(أو رأيتم أميره) فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدى »، وأخرج هذا الحديث ابن ماجه القزوينى فى سننه (١)

أفليس هذا الحديث قد وضع لوصف رايات بنى العباس السود التى دلفت من بلاد إيران مغربة إلى العراق فالشام ؟ بلى ورب العزة . ولقد هال سوادها مروان بن محمد يوم الزاب الأعلى ، ويزيدك إيماناً بما قلنا ماورد فى رسالة العدل المختصر فى علامات المهدى المنتظر لشهاب الدين بن حجر ، فالعلامة التاسعة قال عنها: « تخرج رايات سود يقاتل السفيانى فيهم شاب من بنى هاشم فى كفه اليسرى خال وعلى مقدمته شعيب بن صالح التميمى »، والعاشرة « تخرج قبله خيل السفيانى بالكوفة ويخرج أهل خراسان فى طلب المهدى فيلتقى هو والهاشمى برايات سود على مقدمته شعيب بن صالح فيلتقى هو والسفيانى فى باب اصطرخ (٢) فتكون بينهما ملحمة عظيمة فتظهر الرايات السود وتهرب خيل السفيانى، فعند ذلك يتمنى الناس المهدى ويطلبونه » (٣)

وأكثر أحاديث الرايات السود على هذا الطراز ، أما السفيانى إذ ذاك فهو مروان الحمار، وقد يطلقونه عند الحاجة الملحة على قائد من قواده وعلى كل خارجى يحب بنى أمية ، أما شعيب بن صالح التميمى فنراه مصحفاً عن «شعيب بن صفوان الثقفى» وهو من صحابة المنصور.

قال الخطيب : «أخبرنى محمد بن على الأصبهانى . . . قال : سألت أحمد بن حنبل عن شعيب ابن صفوان فقال : كان ها هنا مع الصحابة ــ يعنى صحابة أبى جعفر ــ » (٤)، ولقد ورد فى خرافات اليمن خبر شعيب بن صالح ، لكننى استبعدت أن يريد العباسيون الأبعد ويتركوا صاحبهم الأقرب . ففى وصية الملك « عمران بن عامر » ما صورته « ويغلب أهل الأوثان فى آخر الزمان أهل الأديان فيخرجونهم من البيت الحرام ويخربونه ، فيرسل الله عليهم رجلاً من حمير يقال له « شعيب بن صالح » فيهلكهم ثم يخرجهم منه فلا يكون بالدنيا إيمان إلا بأرض اليمن » (٥). وأياً كان رأيى فليس ببعيد أنهم أرادوا به القحطانى ؛ فقد ذكروا حديثاً عن رسول الله ــ ص ــ قال : « سيكون بعدى خلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك جبابرة ثم يخرج المهدى من أهل بيتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ثم يؤمر القحطانى، فو الذى بعثنى بالحق ما هو دونه » ، رواه أبو نعيم أيضاً فى فوائده والطبرانى فى معجمه الأكبر (٦) ، فهذا يثبت لنا أن الطامحين إلى الإمارة استبقوا الوضع والاختلاق حتى أن القحاطنة فى اليمن وضعوا لأنفسهم أحاديث تبيحهم التملك والرياسة ، ولكنهم جعلوا حظهم فى ذلك بعد حظ المهدى لئلا يطعن الناس فى أحاديثهم فيكذبوهم ويهجروهم ؟ مصطفى جواد

(١) بشارة الإسلام ص ٣٦ ــ ٧ (٢) كذا ولعل الأصل : اصطخر (٣) بشارة الاسلام ص ٢٤٠ - ١ (٤) تاريخ بغداد للخطيب « ٩ : ٣٣٨ » (٥) الاكليل للهمدانى « ٨ : ٣٦٥ » (٦) بشارة الاسلام ٣٨٥

(للبحث بقية)

صفات محمد
وعلاقتها بطبيعة دعوته

بقلم الأستاذ عبد العزيز البشرى

اعلم رشدنا الله ورشدك ، وأيدنا بالحق وأيدك ، أن أصول الفضائل ، وجرائيم الرذائل ، معروفة متواضعة من الزمان الأقدم . فالصدق ، والشجاعة ، والنجدة ، والعدل ، والكرم ، والوفاء ، مسلم - عند كل قوم وفى كل زمان - بأنها من غرائز الخير ؛ كما أن الكذب ، والجبن ، والفسولة ، والظلم ، والبخل ، والغدر ، مسلم - عند كل قوم وفى كل زمان - بأنها من ضرائب الشر ؛ فإذا اختلفت أقوام على بعض الخلال أو الهنات ، فإن شيئاً من ذلك لايصيب أصول الأخلاق ، وإنما يتعلق بفروعها ؛ ولعل أبلغ ذلك يرجع إلى اختلاف التقدير فى رد الفرع إلى أصله ، وضم الشكل إلى شكله.

وإذ كان هذا هكذا ، كانت خلال الخير محبوبة مستجادة ، وكانت خلال الشر مرذولة مبغضة فى كل زمان وفى كل مكان ، وكان الناس أحرياء بأن ينتحلوا كرائم الأخلاق ، ويتنافسوا جاهدين فى ذلك ، ضرورة أن الإنسان لا يكره الخير لنفسه ، بل إنه ليود أن يؤثرها بكل كريم وكل جميل .

هذا كله بديه لاشك فيه ؛ على أنك كثيراً ما يتداخلك العجب ، وترجحك الحيرة ، إذ ترى رجلاً حاد الفطنة نافذ الرأى واسع العلم يتجافى عن كثير مما يعلم أنه من أفضل الفضائل ، ويتقلب فى كثير مما يجزم بأنه من أرذل الرذائل ، لاينكسر ذلك على شأن المؤمن فى أحكام الدين ، ولا المربىء فى قواعد المروءة . بل إن الأمر ليتجاوز ذلك إلى الأسباب العامة والمنافع الخاصة ، فكأى من رجل يؤمن أشد الإيمان بأن ماجاء به الدين هو الحق ، ويجزم كل الجزم بأن الصلاة واجبة على المؤمن ، ومع هذا تراه لايقوم للصلاة قط . ويقطع فيما بينه وبين ربه والناس أن الخمر حرام ، وأنها أم الخبائث ؛ ومع هذا لاينفك يعاقرها ماتهيأ له ذلك .

وكأى من رجل يحذق قواعد الأخلاق ؛ ويعلم أن الكذب مما يسقط المروءة ويضع من المنزلة فى الناس ؛ ومع هذا تراه لايفتأ يكذب ؛ ولقد يعلم أن الناس يعرفون أنه يكذب .

وكأى من رجل أوتى البصيرة فى فن الاقتصاد ، وتدبير الأموال ووجوه تثميرها ، ومع هذا تراه مسرفاً متلافاً لايبقى على قل ولا كثر ، ولقد يعالج فى تثمير المال ضرباً لايأذن به

ماحذق من علم ولا ماأصاب بطول التجاريب !

اللهم إن هذا كله لقد يقع ؛ بل إنه لواقع بقدر كبير . إذن لقد خرج لنا من هذا أن ليس هناك تلازم ـ فى العادة ـ بين الفعل والاعتقاد ، أو على التعبير الشائع ، بين العلم والعمل . قال جل من قائل : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم » . وقال تعالى : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » .

ولقد عرفت أن الإنسان بطبعه أثر يود لو استقل بكل مافى الدنيا والآخرة من ألوان الخير والإحسان ، إذن فما ينحرف به عن سبلها ، ويعدل به عن طلبها من وجوهها ، إلا مايعتريه من ضعف الإرادة ، ويدخل عليه من انخذال العزم ، فيستسلم لنزعات الهوى ، ويخنع لدواعى الشهوة ، فيعرض عما يعرف أنه الحق المجدى عليه فى أسباب دنياه ودينه ، ويقبل على ما لا شك عنده فى أنه باطل من الباطل المتلف لماله ، والهادم لبنيته ، والذاهب بأمر دينه ودنياه جميعاً .

وكأى من رجل أصاب من الفضائل صدراً ، وأخطأ صدراً ، وأقام من أحكام المروءة على بعض ، وأعرض عن بعض ، فهذا تراه يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويؤدى حق الصوم فى رمضان ، ومع هذا تجده لايتأثم من شرب الخمر أو من مقارفة غيرها من المناكر . وهذا لقد تراه شجاعاً لايهاب صولة السيوف ، ولا يرهب مواقع الحتوف ، ومع هذا تراه حريصاً على جمع المال واكتنازه والضن منه بالدانق والسحتوت حتى على مايحفظ أطراف المروءة ويعصم من سوء القالة .

ولقد ترى هذا جواداً متلافاً يفتدى بجليل الأموال ما جل ودق من أسباب مروءته ، ويطلب بها حسن الأحدوثة فى الناس ؛ ومع هذا تراه حقوداً شديد الطلب لمعايب الناس والتدسس إلى مكارههم ، وبسط اللسان بمنكر القول فيهم ؛ وهكذا . وأولئك ممن يجرى عليهم قول الله تعالى : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » .

ويخرج لنا من هذا أيضاً أن ليس هناك تلازم بين مجموعة الفضائل ، ولا بين مجموعة الرذائل ؛ والوجه فى ذلك أن الإرادة البشرية قد تقوى فى بعض نواحيها وتضعف فى بعض ، فمن حيث تكون القوة تستوى الفضيلة ، ومن حيث يكون الضعف تستمكن سطوة الرذيلة .

هنالك أيضاً مسألة ثالثة ، هى الدعوة ، فإن كثيراً من الناس يتجردون فى الدعوة إلى لون من ألوان الخير أو مايزعمونه كذلك ، ومن الدعاة من تصدر دعوته عن إيمان وعقيدة ، وبعبارة أخرى ، إنه يطلب إلى غيره فعل مايعلم أن فيه الخير والنفع ، وينهاه عما يعلم أن فيه الشر والضر ، ومنهم من يدعو إلى ما لا يعتقده ولا يؤمن به ، وأولئك الدجالون الذين لايخلو

وجه الأرض منهم فى كل زمان . على أن بسط الحديث فى هؤلاء ليس مما تدعو إليه حاجة هذا الكلام . ومهما يكن من شىء ، فالمفروض أن من يدعو غيره إلى مايؤمن بأنه خير من الخير، وينهاه عما يجزم بأنه شر من الشر — المفروض أن من يقوم لمثل هذا يأخذ نفسه به أولاً ، لأن الإنسان - كما أسلفت عليك - أثر بالطبع ، لايحب أن يتجاوزه الخير والنفع إلى غيره، ولا يحب أن يستأثر بالشر والأذى دون غيره، ولأن من يدعو سواه إلى شىء فإنه يكون - فى العادة - وثق بأسبابه علماً وأسنح به إيماناً ، ومع ذلك فإننا نرى كثيراً من الدعاة إلى الخير الصحيح من يخالفونه إلى الشر الصريح ، مع أنه لاشك فى إيمانهم بحق مايدعون إليه ! وأولئك الذين وجه الله تعالى خطابه عليهم «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون» .

والواقع الذى لايطوف به الريب أن هؤلاء لايكرهون لأنفسهم الخير والنفع ، ولا يحبون لها الشر والضر ؛ ولكنه ضعف الإرادة يسطو به الهوى ، وانخذال العزم تعصف به الشهوات على ماتقدم به الكلام .

وعلى كل حال فقد بان لك أن هذه الخلال الثلاث : (الإيمان ، والعمل ، والدعوة) لاتلازُم بين شىء منها وبين شىء ؛ على أن هذا لاينافى أن امرءً يعمل بما يعلم ، وأن امرءً يدعو إلى مايؤمن ، ويكون فى أخذه نفسه بالفضيلة القدوة الصالحة فيما يدعو إليه من فنون الخير . وهؤلاء الأقلون عدداً الأكثرون مدداً .

عصمة الأنبياء

ومهما يكن من شىء فإنه من أندر النادر أن يخرج فى الناس من تحلى بجميع الفضائل ، وتجرد عن جميع الرذائل ؛ فإن هذا إذا استثنيت الأنبياء وخاصة أصحابهم وحوارييهم مما يكاد يتصل بالمستحيل . وإن التاريخ البعيد والقريب ليحصى على الكثيرين من عيون الفلاسفة وأئمة المصلحين من بناة الفضيلة وشارعى قواعد الأخلاق ، من تقلبوا فى أوضع الشهوات ، وانغمسوا فى أقذر الرذائل ! ذلك بأن الإنسان مهما أوتى من سعة العلم ، وصحة الرأى ، وحسن التدبير ، وصدق العزم ، فإنه ضعيف ، لقد يميل به الهوى ، ولقد تغلبه الشهوة . قال تعالى « وخلق الإنسان ضعيفاً »

أما الأنبياء ففضلاً عما آتاهم الله من شدة العقل ، ونفوذ الفطنة ، وسعة العلم ، وقوة الطبع ، ومضاء العزم ، فقد أمدهم بالتوفيق ، وحاطهم بالعصمة ، وكف عادية الشهوات عنهم ، فما تجد السبيل إلى أنفسهم . وهيهات لشىء من خلق الله أن يسطو بما قضى الله .

ولله تعالى فى هذا حكمته الواضحة ، فإن الرسول هو أداته - جل وعلا - فى تبليغ دعوته ،

وأداء رسالته . ولا يتسق للحكمة ألا يكون رسول الله أول قائم بما يأمر النـاس به ، وأول مجتنب لما يزجرهم عنه « وما أريد أن أخالفـكم إلى ما أنهاكم عنه » . ولقد قال الحكماء : إن فاقد الشيء لايعطيه . إلى أن الأليق برسول الله أن يكون فى الناس المثـل الأعلى فى الأخذ بمحمود الخلال ، والتجافى عن مرذول الخصال . والرسل إنما يبعثون أولاً للدعوة إلى الإيمان بالله ولتقويم الأخلاق . قال صلى الله عليه وسلم « بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . هذا فضلاً عن أنه لو تردى النبى ـ حاشا لله ـ فى أى الرذائل، لكان فى ذلك أنفذ الطعن فى صحة دعوته، وصدق رسالته ، وهيهات على ذلك أن يؤمن برسالته أحد ، أو يظاهره على أمره إلا منافق لايشايعه ـ فى ظاهر الأمر ـ إلا إيثاراً للعاجلة ، لو قدر أن الدولة دائلة له ، وأن منافع الدنيا صائرة إليه . وما كان قط لمشايعة هؤلاء فى أمر الدعوة العظيمة جليـل خطر ، ولا بعيد أثر .

ولقد تعلم ما أصاب الأنبياء من عنت قومهم ، وشدة حملهم عليهم ، وتلوينهم العذاب لهم، إلى حد القتل والتحريق وما دون ذلك من فنون الأذى . ومع هذا فقد صبروا وصـابروا، مايمسكون عن رسالتهم ، ولا ينفـكون عن تبليغ دعوتهم ، ولا ينزلون على حكم كلمة واحدة تستنقذهم من كل ذلك البلاء . فى حين أن أحداً منهم لايبغى بقيامه مالاً ولا جاهاً ولا سلطاناً ،حتى يقال إنهم إنما يجازفون بذلك كله فى سبيله . ولقد يجىء أحدهم المال والجاه والسلطان فيأبى إلا شظف العيش وإلا حياة المساكين . وفى حال داود وسليمان عليهما السلام أكرم الأمثال ، وناهيك بدعوة محمد صلى الله عليه وسـلم : « اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » . وستعلم مما سيرد عليك من بعض شأنه فى هذا الباب، أنه لو شاء لعاش فى أخفض عيش وأرغده ، وتقلب فى أهنأ حال وأسعده .

لقد تعلم هذا ، وتعلم أن أيسر آلات الأذى ، وأدناها منالا ، وأشيعها أثراً ، وأقلها كلفة إنما هى الطعن والتجريح والدمغ بفنون التهم ، وخاصة فيمن يقومون بدعوة دينية . ومع هذا كله لاترى الـكفار من أعداء أصحاب الرسالات يعتمدون تنقص أنبيائهم والمبعوثين فيهم من ناحية أخلاقهم، بنسبة الرذائل إليهم وادعاء تعطلهم من الفضائل ؛ على أن دعوة الرسل إنما تقوم على تسفيه أحلامهم وتقبيح سيرهم ، ومباداتهم برذائلهم ، إلى ذم معتقداتهم والزراية على آلهتهم . كل أولئك والـكفرة من عداتهم لا يلقونهم فى هذا الباب إلا بتهمة واحدة ، هى تهمة الـكذب فيما بعثوا به ، ونحو هذا من إضافة السحر وما يشـبه السحر إليهم، وذلك مما يتسق لحكم المنطق العام ، فإنهم لو آذنوا باستراحتهم إلى تصديقهم، وتزههم عن رذيلة الـكذب فى دعوى الرسالة للزمتهم الحجة ، ولم يبق لهم مناص من التسليم إليهم

والإذعان لهم. أما تحرجهم من الطعن في سائر خلالهم، فلأن نشأتهم ـ عليهم السلام ـ في الكمالات، وانطباعهم مدى محياهم على أعالي الخلال، وطول تنزههم عن أداني الرذائل فضلاً عن قواصيها وأنهم لم يؤخذ على أحد منهم مدى العمر زلة، ولم تحص عليه في هذا الباب جولة، واشتهارهم، بهذا عند كل من لابسهم، وشيوعه فيمن لم يتصلوا بهم؛ كل ذلك مما يجزم عداتهم بأنه لا يمكن أن يبعث فيهم معه قيل، ولا يجعل لقالة السوء إليهم أي سبيل.

أما حواريو الأنبياء وخاصة أصحابهم، فإن مما لاشك فيه أنه لا يمكن أن يبلغ منهم هذا الموضع، وينزل عندهم هذه المنزلة إلا من حباه الله بقوة الإيمان، وشدة النفس، وكمال العقل، وقوة العزم، وإيثار الآخرة على كل منافع الدنيا، حتى لترى هؤلاء يخرجون، في سبيل تأييدهم ونصرتهم، عن كرائم أموالهم، ويصارحون بالعداوة أبناءهم وأدنى أهليهم منهم، ولقد يقدمون إلى سفك دمائهم طيبة بذلك أنفسهم. إلى أن لزامهم للرسل الكرام، وطول اتصالهم بهم حقيق بأن يجدد الإيمان في قلوبهم، ويذكي خشية الله في نفوسهم. وهذا فضلا عن يقينهم بوثيق الصلة بين الرسول وربه الذي لا يخفى عليه ماتطوى الصدور وما تجن القلوب، «مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم»؛ «ربكم أعلم بما في نفوسكم»، «إنه عليم بذات الصدور». وذلك ما يدعوه أصحاب الكلام: العصمة الجائزة، كعصمة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. أما عصمة الأنبياء عليهم السلام فالعصمة الواجبة.

وبعد، فإنك لو تتبعت سير الأنبياء عليهم السلام، وتقصيت أخبارهم وما أثر من أسبابهم في كل أمورهم، لترادفت عليك الحجج بأن مارزقوا من سلامة الخلال، وجلالة الأخلاق، لا يمكن إلا أن يكون بمدد من الله تعالى وتوفيق وعصمة.

ولقد تقدم الكلام في أنه ما من رجل ـ في بعيد التاريخ وقريبه ـ عرف بأنه قد اجتمعت له كل غرائز الخير، وتنزه عن جميع ضرائب الشر، ولو كان هذا ـ وهذا مما أسلفنا أنه يكاد يتصل بالمستحيل ـ فلابد من أن تعترضه عثرة، وتلحقه زلة، وتميل به ـ ولو في شباب السن ـ نزوة، ويطوف به طائف من شهوة. أما الأنبياء عليهم السلام فقد طهرهم الله تعالى، وكف كل رجس عنهم، من يوم سواهم إلى يوم قبضهم ؟

عبد العزيز البشري

بكاء الشـــــباب

للأستاذ على الجارم

ياخليلىّ خليـانى وما بى | أو أعيـدا إلى عهد الشباب
حـلم قد مضى ! وأيام أنس | ذهبت غير مزمعات الإياب
وأزاهير كن تاج عروس | عُفرت بعد ليلة فى التراب
وبسـاط للشـاربين يصـلى | فيـــه إبريقهم بلا محراب
فى حديث أحلى من الأمل الحلـــــو وأصفى ديباجة من شراب
كل فصل كان صفحة الرو | ض وعند العقار فصل الخطاب
ومجون يحوطه الأدب الجــــــم فما راعه اللسان بعاب
يتغنون بـ « النوامى » حيناً | وبشعر الفتى « أبى الخطاب »
كلما هزت المـدام يديهم | قهقهت ثلة من الأكواب
صاح فيهم ديك الصباح فطاروا | كل جمع لفرقة واغتراب

***

يا شباباً أقام أقصر من حســــــوة طير على وحىً وارتياب
لك عمر الندى يطير مع الشمـــــــس وعمر البروق بين السحاب
كنت فينـا كما لمحنـا حباباً | فنظرنا فلم نجد من حبـاب
وعرفناك مذ ذهبت كما يعــــــرف فضل النبوغ بعد الذهاب
مذ خلعنا ثيابك القشب لم نـنــــعم بشىء من منفسات الثياب
ورأينا فى لونك الفاحم اللمــــــاح هزواً بلون كل خضاب
أين لون الحيـاة والقهر والقـــــوة من لون ناصل الأعشاب
ياسواد العيون ياحبة القلـــــب وياخال كل خود كعاب
سرق الليل منك لونا فأمسى | موطن اللهو موعد الإطراب
ورأى فيك «أحمد» لون كافو | ر ففنى خوالد الآداب

***

بسمة للزمان أنت ، تلتها كشرة للزمان عن أنيــاب
كلما رمت خدع نفسى بنفسى كشفت لى المرآة وجه الصواب
رب صدق تود لو كان كذباً وكذاب لو كان غير كذاب

***

ليت لى لمحة أعيد بها منــــــك بقايا تلك الأمانى العذاب
حيث أختال ناضر العود بساماً كثير الهوى قليل العتاب
فى صحاب مثل الدنانير لا تبــــلى موداتهم بطول الصحاب
بوجوه غر تراها فتتلو فى أساريرها سطور كتاب
نسبق الخطو للسرور وثاباً لاتنال المنى بغير الوثاب
ونجر الذيول فى غير نكر طاهرى النفس طاهرى الجلباب
إن دعانا الهوى لغير سديد سددتنا كرائم الأحساب

***

زينب! أين منك زينب والشمل جميع والعيش خصب الجناب؟
وبنات الثغور يلعبن بالألبــــاب لعب الشمول بالألباب
يتظاهرن بالحجاب وهل أذ كى الجوى غير لؤم ذاك الحجاب
كم وجوه تنقبت بسفور ووجوه قد أسفرت بالنقاب
أين تلك الأيام ؟ بانت وبنا وتولت بشاشة الأحباب

الجارم

سفينة الحياة

ياشادياً وخرير الموت يطربه يشكو لطيف الدجى وجداً وآهات
يحدو السفينة والأفلاك ترقبـه تـكاد تبسم من خلـف السماوات
بعثت بالنفس شجواً طال موضعه بين الجـوانح من حب ولوعات
قيـل الوداع ولم ننعم بصـافيـة من الأمانى وطـيب من مسرات
ذكرتنى ما يصيب القلب من حزن ياويح نفسى، من يأسو جراحاتى ؟

عبد المجيد عيسى البيه

٢ - ابن سينا

حياته ومصادر فلسفته

بقلم الأستاذ محمد ثابت الفندى
ما جستير فى الفلسفة

انتقلت الأسرة من أفشنة إلى بخارى بقصد تعليم الابنين فى وقت غير مذكور فى الروايات كلها، وإنما هو على كل حال بعد ميلاد الابن الأصغر (محمود) المولود سنة ٣٧٥ هـ كما تقدم فى العدد الماضى، وقبل بلوغ الابن الأكبر سن العاشرة أى سنة ٣٨٠ هـ، وهى السن التى أجاد فيها فهم الأدب وحفظ القرآن ببخاري.

ولقد أسهب أبو على فى وصف نشأته العلمية التى سارت على المنهج الاسلامى فى التعلم، فقد بدأ بحفظ القرآن الكريم ودرس مايلزم لفهمه وتفسيره من اللغة والأدب، وأجاد ذلك وهو فى سن العاشرة حتى صار بما حذقه ـ وهو فى ذلك العمر ـ موضع العجب ومثار الدهشة من الجميع.

لم يذكر أبو على أستاذه فى اللغة والأدب، كما سيذكر أساتذته فى علوم أخرى؛ وإذا لم يكن بد من الفرض والتخمين فى مثل هذا الموضع، فإن أقرب فرض هو أن يكون « أبو بكر البرقى » الذى صنف له ابن سينا كتابين فيما بعد، هو ذلك الأستاذ، ويؤيد هذا الفرض أن « حاجى خليفة » يجعله أولاً أستاذاً من أساتذة ابن سينا، وثانياً أستاذه فى « الشعر » بالذات، فهو يقول فى كتابه المسمى (كشف الظنون): « ديوان البرقى، وهو أبو بكر حمد بن محمد الخوارزمى المتوفى سنة ٣٧٦ هـ، قال ابن ما كولا: رأيت له ديوان شعر أكثره بخط تلميذه ابن سينا ». [١]

ولعل هذا الخوارزمى هو عين أبى بكر الخوارزمى خصم بديع الزمان الهمذانى، وهما اللذان اشتهر أمر خصومتهما فى ذلك العصر، فإذا كان هو عين ذلك الخوارزمى، فإن وفاته لا يمكن أن تكون سنة ٣٧٦ هـ كما يذكر حاجى خليفة، لأن ابن سينا إلى ذلك العام لم يكن قد بلغ من العمر ما يجعله تلميذاً لأديب خطير من أئمة أدباء اللغة العربية، إذ لم يكن عمره إذ ذاك أكثر من ست سنين. وخصم بديع الزمان الهمذانى توفى ـ كما يقول ابن خلكان ـ عام ٣٨٣ هـ وكما يقول ابن الأثير عام ٣٩٣ هـ؛ وهذا القول الأخير هو الأصح، وهو يؤيد رأينا فى أن أستاذ ابن سينا هو عين خصم الهمذانى؛ ذلك لأن ابن سينا ـ كما يروى فى ترجمته ـ إنما قدم له مؤلفين فلسفيين هما « الحاصل والمحصول ». « والبر والإثم »، وذلك بعد أن أناف على العشرين من عمره أى بعد عام ٣٩٠ هـ على كل حال.

---

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون

بعد حفظ القرآن الكريم ودراسة ما يفسره من اللغة والأدب، يدخل فى منهج التعليم الاسلامى دراسة الفقه، كذلك فعل ابن سينا، فاشتغل بالفقه كثيراً، وتردد فيه إلى رجل غير نابه الذكر ولا معروف القدر الآن هو اسماعيل الزاهد، ولقد استطاع ابن سينا الصبى أن ينبغ فى الفقه فى قليل من الزمن، ويألف « طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذى جرت به عادة القوم (الفقهاء) »[1].

ثم وجهه أبوه بعد ذلك إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى يتعلمه منه، وهذا الرجل - كما يذكر البيهقى - [2] هو محمود المساح.

وفى ذلك الحين نزل ببخارى أبو عبد الله الناتلى وكان يدعى المتفلسف، فارتبطه والد الفيلسوف فى داره رجاء تعلم ابنه منه، فبدأ هذا بدراسة كتاب إيساغوجى عليه، ويظهر أن الصبى ابن سينا كان ذا استعداد متفوق، لأننا نراه يستخف بأستاذه فى المنطق حيث يقول: « وكان أى مسئلة قالها لى أتصورها خيراً منه، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه، وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبر »[3]، ولم يكن رأى ابن سينا فى أستاذه الناتلى فى العلوم الأخرى يخالف رأيه فيه فى المنطق، فهو يقول: « ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق وكذلك كتاب إقليدس، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب، ثم انتقلت إلى المجسطى، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال لى الناتلى: تول قراءتها وحلها بنفسك، ثم اعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه. وما كان الرجل يقوم بالكتاب، وأخذت أحل ذلك الكتاب، فكم من مشكل ما عرفه إلا وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه »[4]. وقد يكون رأى ابن سينا فى أستاذه غروراً منه، وقد يكون ثقة بعقليته واطمئناناً لمقدرته فى الفهم والتعلم، وقد يكون أيضاً حقيقة لاجدال فيها.

والناتلى هذا فارسى الأصل نزح إلى بغداد لتلقى العلوم والمعارف، فدرس الحكمة وتخرج فى المنطق على كتب الفارابى، ثم هبط بخارى حيث لقى تلميذه الصغير أبا على ابن سينا! ثم نزح عنها إلى كركانج حيث التحق بخدمة أمير خوارزم، وتوفى عام ٣٩٠ هجرية، وله مؤلفات يقول عنها البيهقى: « وله رسالة لطيفة فى الوجود وشرح اسمه، ولا يذكره الرئيس فى مصنفاته إلا فى كتاب المقتضيات »[5]، ولسنا نعرف شيئاً البتة عن كتاب المقتضيات هذا اللهم إلا ما ذكره حاجى خليفة حين يضيف إلى ابن سينا كتابا فيقول: « مقتضيات الكبير السبعة » ثم لا يزيد بعد ذلك شيئاً.

(١) القفطى: تاريخ الحكماء، ص ٤١٦، وراجع أيضاً التراجم العربية الاخرى

(٢) البيهقى: تاريخ حكماء الاسلام ص٢٦

(٣) القفطى: تاريخ الحكما ص ٤١٦ - ٤١٧

(٤) القفطى: تاريخ الحكماء ص٤١٧

(٥) البيهقى: تاريخ حكماء الاسلام ص ٤٤ والشهرزورى ص١٨٢

انصرف ابن سينا بعد دراسة هذه العلوم إلى دراسة الطب، وصار يقرأ الكتب المصنفة فيه بمفرده من غير معونة أستاذ، ذلك لأن علم الطب - كما قال فى ترجمته التى أملاها على تلميذه الجوزجانى - ليس من العلوم الصعبة فيحتاج إلى أستاذ، فلا جرم أن يبرز فيه فى قليل من الزمن، حتى يبدأ فضلاء الطب يقرءون عليه هذا العلم. وتعهد المرضى فانفتح عليه من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف، واستفاد نظرياً وعملياً من تلك التجارب حتى صار طبيباً موثوقاً به واسع الصيت موفور الشهرة، وكان فى ذلك الوقت من أبناء ست عشرة سنة، أى أنه أتم دراسة الطب عام ٣٨٦ هـ.

يذكر بعض الرواة أن فيلسوفنا درس الطب على أبى سهل عيسى بن يحيى المسيحى الذى لقبه القفطى « بالمتطبب »، ذكر ذلك المستشرق (ادوارد براون) فى تعليقه بآخر كتاب « المقالات الأربع »[١]، وكذلك فى كتابه « التاريخ الأدبى لفارس ».[٢]

وأبو سهل هذا كان حكيماً غلب عليه الطب، وله تصانيف كثيرة فيه، منها كتاب « صدباب » بالفارسية، ويعرف فى اللغة العربية باسم كتاب « المائة مقالة فى الطب »، ومنها كتاب فى السموم ألفه لخزانة خوارزمشاه مأمون بن محمد[٣]، كما صنف له رسالة فى التعبير[٤]، ويحدثنا صديقه الحميم أبو ريحان البيرونى أن أبا سهل صنف له إثنى عشر كتاباً وأهداها إياه[٥]

ولد بجرجان عام ٣٦٣ هـ، لأننا نستفيد من القصة السادسة والثلاثين من كتاب المقالات الأربع أنه توفى سنة ٤٠٣ هـ وليس سنة ٣٩٠ هـ كما استنتج المستشرق Wüstenfeld من غير اعتماد على نص ما، فإذا كانت مدة حياته أربعين سنة كما قال القفطى[٦]، فلا بد أن تكون سنة ميلاده كما ذكرنا. وقد نشأ وتعلم ببغداد ثم التحق بخدمة أمير بخارى، قال القفطى: « وكان بخراسان متقدماً عند سلطانها، وكان فاضلاً فى صناعته (أى الطب) »[٧]، ثم غادر بخارى والتحق ببلاط خوارزمشاه فى كركانج، وكان بها آنئذ الأمير مأمون بن محمد الذى صنف لخزانته أبو سهل ماذكرناه من الكتب، ولما كان هذا الأمير قد قتل عام ٣٨٧ هـ فلابد أن أبا سهل المسيحى كان قد لحق به قبل ذلك التاريخ؛ فإذا ذكرنا أن ابن سينا أتم دراسته الطبية عام

---

(١) ادوارد براون: المقالات الاربع والترجمة الانكليزية ص ١٥٥
(٢) أدوارد براودن: التاريخ الادبى لفارس Literary Hist. of. Per ج ٢ ص ١٠٦
(٣) الشهرزوري: تاريخ الحكماء، مخطوط ص ١٩٠
(٤) البيهقى: تاريخ حكماء الاسلام، ص ٥٩
(٥) راجع مقدمة ساشو Sachau لكتاب البيرونى: الآثار الباقية، المطبوع بيبسك سنة ١٨٧٦ ص ٤٧
(٦) القفطى: تاريخ الحكماء: ص ٢٠٨
(٧) القفطى: تاريخ الحكماء. ص ٢٠٨

٣٨٦ هـ ، كان من المعقول ، أو قل كان من الممكن ، أن يحدث ذلك أثناء وجود أبى سهل بيخارى ، ولذلك فليس يبعد أن يكون فيلسوفنا قد تتلمذ له فى الطب ، إلا أننا لا نعرف سبباً ما يمنع ابن سينا من ذكره بين من ذكرهم من أساتذته، اللهم إلا أنه لم يتلق عليه علماً أو يدرس عليه طباً ، والواقع أن ابن سينا يذكر صراحة أنه تعلم الطب على غير أستاذ ،ولذلك فإننا نستنكر ذلك الرأى القائل بأنه تعلمه على أبى سهل المسيحى .

إن تشريح الأبدان لم ينس صبينا ابن سينا حلاوة ذلك النظر المجرد الذى عاونه على تذوقه إياه ذا المتفلسف أبو عبدالله الناتلى ، ولهذا فقد عاود أبو على دراسة الفلسفة بعد أن كان قد انصرف عنها إلى الطب ، وقضى عاماً ونصف عام ــ بعد سن السادسة عشرة ــ فى النظر فى أجزاء الفلسفة كلها، فعاود دراسة المنطق، وقرأ العلم الطبيعى والعلم الإلهى بمفرده من غير استرشاد بأستاذ ما، كشأنه فى دراسة الطب . ويظهر أن هذه الفترة التى قضاها بين صحائف الفلسفة أو بين موسيقى المقول كما يقول فيثاغورس، كانت أبرك أيام الطلب وأنشطها فى حياة ابن سينا كلها ، فهو يقول عن نفسه إنه فى تلك المدة ما نام ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغل فى النهار بغير الدرس ، وكان يسهر الليالى فى داره ، يضع السراج بين يديه كما يضع الكتاب والدواة، ويشتغل بالقراءة والكتابة حتى إذا ما غلبه النوم أوشعر بالإعياء والسآمة ــ وهما آفة الطلب والتحصيل ــ عدل إلى قدح من الشراب ، أوقل إلى أقداح منه،ليسترد قواه ونشاطه، ثم يعاود القراءة والكتابة بعد ذلك ، وما زال كذلك حتى استحكمت معه جميع العلوم الفلسفية ووقف عليها بحسب الإمكان الإنسانى كما يقول .

ويظهر أن هذا المجهود الفائق الذى بذله فى دراسة الفلسفة فى صغره ، أغناه فى مستقبله عن معاودة قراءتها مرة أخرى ، ولذلك فهو يقول لتلميذه الجوزجانى عند ما لقيه بجرجان بعد أن نيف على الثلاثين: « وكل ما علمته فى ذلك الوقت (أى وقت الطلب) فهو كما علمته الآن لم أزد فيه » (١) ، وقال أيضا : « وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شىء » (٢) .

وإذن فلقد بنى ابن سينا فى سنى الشباب تلك القصور التى يطل منها الآن على عالم الأفكار .

مصادره

كانت مصادره التى استقى منها الفلسفة كتب أرسطو المترجمة قبل كل شىء ؛ تلك الكتب التى كانت ــ مدى ألفين من السنين ــ دائرة المعارف الكبرى لثقافة الإنسانية ، كذلك اطلع على

(١) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٤١٥

(٢) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٤١٦

شروح القدماء على أرسطو مثل ثمسطيوس والأفروديسى وفرفريوس الصورى وغيرهؤلاء ممن قدترجمت آثارهم الفكرية إلى اللغة العربية، وأيضاً اطلع على كتب الاسلاميين فى الفلسفة، فإن « ظهير الدين البيهيقى » يذكر أن ابن سينا كان يطالع « رسائل إخوان الصفا » كما كان يطالعها أبوه. [١]

وهو يذكر عن نفسه أنه لم يطلع على كتب سلفه الفارابى فحسب ، بل كان لها الفضل الأول فى تفهيمه غرض أرسطو فى علم مابعد الطبيعة ، فهو يقص عن نفسه أنه قرأ كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو أربعين مرة حتى حفظه عن ظهر قلب، ومع ذلك فلم يفهم منه غايته، والتبس عليه غرض واضعه ، فأثر ذلك فى نفسه وأيأسه من معاودة قراءته . واتفق أن كان يوماً بسوق الوراقين ببخارى ، وعرض عليه دلال كتاباً فى علم ما بعد الطبيعة ، فرده عليه أبو على بن سينا رد متبرم معتقد أن لا فائدة فى قراءة هذا العلم ، فألح عليه الدلال وقال له : اشتر منى هذا الكتاب، فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم فقط، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، فاشتراه أبو على وتصفحه ، فإذا به كتاب الفارابى المسمى « الإبانة عن أغراض أرسطو فى كتاب مابعد الطبيعة » ، فأسرع به إلى بيته وقرأه لحينه ، فتجلت له فى الحال معانى ذلك العلم وسفرت أغراض أرسطو فيه ، ففرح بذلك ـ كما يقول ـ وتصدق فى ثانى يوم بشىء كثير من المال على الفقراء شكراً لله تعالى .

كذلك اطلع على مذاهب المتكلمين وعرف دقائق فلسفتهم [٢] ، ويبدو ذلك واضحاً فى نقده آراءهم وتسفيهه مذاهبهم، ورده عليهم كلما لاقاهم فى مسئلة من المسائل الفلسفية التى يتحدث عنها فى كتبه ، فهو حين يتصدى لبحث الوجوب والإمكان يسفه رأيهم القائل بأن علة الحاجة للواجب هو الحدوث ، إذ هو يرى أن علة الحاجة للواجب هو الإمكان [٣] . وهذا مثال واحد من كثير مما يدل على أنه كان عليماً بمذاهب المتكلمين .

***

إن عهد الطلب فى حياة ابن سينا لم ينته بعد كما سنرى عما قريب ، ولكنه قد جد عهد جديد فى حياته يبدأ فيه الشاب العالم بأن يخرج إلى المجتمع البخارى، فيتصل بالسلطان ويؤلف الكتب الضخمة فى الفلسفة والأدب ويتقلد بعض مناصب الدولة .

ألم بسلطان بخارى نوح بن منصور السامانى مرض حار الأطباء فيه ، وكان اسم الشاب ابن سينا قد اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة والمعالجة ، فأجروا ذكره بين يدى

---

(١) البيهقى، تاريخ حكماء الاسلام . ص ٢٧
(٢) يتهم ابن رشد فيلسوفنا بأنه كان متكلما
(٣) سنتكلم عن هذه المسئلة فى فصل آخر

السلطان وسألوه استدعاءه، فاستقدمه وشاركهم فى علاجه حتى برىء، ثم توسم بخدمة السلطان، ودخل فى حاشيته منذ ذاك. قال البيهقى معلقاً على خدمة ابن سينا السلطان بخارى، «وصار أول حكيم توسم بخدمة الملوك، وكان الحكماء قبل ذلك يترفعون عن ذلك ولا يقربون أبواب السلاطين».(١)

ومهما يكن من شىء فإن صلته بالسلطان مهدت له أن يزيد اطلاعه وينال من العلم نصيباً أوفر، ذلك لأنه وقف جهده للتردد على مكتبة السلطان التى يظهر أنها كانت نفيسة غاصة بالكتب النادرة كما يفهم من كلام ابن سينا عنها، فهو يقول: «ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط، وما رأيته قبل، ولا رأيته أيضاً من بعد، فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه، فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها».(٢)

فى غير الطب ظهر ابن سينا فى المجتمع البخارى كمؤلف فى الأدب والفلسفة، فإن باكورة مصنفاته فى عالم الأدب كتابه فى العروض، يذكره ابن أبى أصيبعة فيقول: «معتصم الشعراء فى العروض، صنفه ببلاده وله سبع عشرة سنة».(٣)

ويذكر هو فى ترجمته التى أملاها بجرجان أنه كان بجواره رجل يقال له أبو الحسين العروضى، سأله أن يؤلف له كتاباً جامعاً لعلوم الفلسفة، فصنف له كتاباً أسماه باسمه ألا وهو «الحكمة العروضية»(٤)، أثبت فيه كل العلوم الحكمية ما عدا الرياضة، وكان له من العمر إذ ذاك إحدى وعشرون سنة. ثم صنف بعد ذلك كتابين آخرين لأبى بكر البرقى الذى رجحنا فى أول هذا الفصل أنه أستاذ الفيلسوف فى الأدب، وهما «الحاصل والمحصول»، ويقع فى نحو عشرين مجلدة كما يقول مؤلفه، ثم «البر والإثم» وهو فى الأخلاق ويقع فى مجلدتين، وربما كان قد كتب ابن سينا وهو ببخارى غير ذلك فى الفلسفة وغيرها من العلوم، فإن المستشرق (فانديك) الذى نشر بمصر رسالة فى علم النفس لابن سينا، يرى أن هذه الرسالة لا بد أن تكون باكورة مؤلفاته فى علم النفس، وأنها بذلك تكون من مؤلفاته ببخارى.

***

فى غير عالم العلم ظهر ابن سينا أخيراً فى المجتمع البخارى كعامل من عمال السلطان، فهو يذكر فى ترجمته أنه بعد وفاة والده تصرفت به الأحوال، فتقلد شيئاً من أعمال السلطان، وظل كذلك حتى اضطر إلى الارتحال عن بخارى والانتقال عنها إلى كركانج. ولعل الاضطرابات السياسية التى لحقت الدولة السامانية آنئذ هى التى حببت إلى الفيلسوف هذا الانتقال. قال ابن خلكان

(١) البيهقى: تاريخ حكماء الاسلام ص ٢٩
(٢) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٤١٦
(٣) ابن أبى أصيبعة: طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٩
(٤) ابن أبى اصيبعة: طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٩

عن صلة انتقال ابن سينا بتلك الاضطرابات السياسية التى لحقت السامانيين : « ولما اضطربت أمور الدولة السامانية خرج أبو على بن سينا من بخارى إلى كركانج » . [١]

ويحدثنا ابن العتبى فى تاريخه [٢] عن هذا الاضطراب السياسى فيقول : « إن الأمير نوح ابن منصور الذى عالجه ابن سينا توفى سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، وملك بعده ابنه أبو الحرث منصور ، فأنزل عن عرشه بسبب ثورة داخلية سنة تسع وثمانين وثلثمائه ، فبويع بعده عبدالملك ابن نوح ، فسقط بعد ثمانية أشهر ، ثم أعقبه أخوه المنتصر فأسقطه وأسقط عرش آبائه السامنيين السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى أكبر سلاطين ذلك العصر سنة ٣٩٠ هـ ٩٩٩ م »

ولربما كانت تلك الاضطرابات التى يشير إليها العتبى هى سبب خروج الفيلسوف من بخارى إلى كركانج كما يرى ابن خلكان . ؟

للبحث بقية محمد ثابت الفندى

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جزء ١ ص ١٩٢
(٢) ابن العتبي : تاريخه المنشور بهامش ابن الاثير طبعة مصر جـ ١١ ص ٤٣ ـ ٤٤

أهل الكهف

للأستاذ محمد الهراوى

١ — العقيدة

أهل الرقيم فتية هم عرفوا الإلٰها
قالوا : فهذى الأرض من بيده دحاها ؟
وهذه الجبال من بقوة أرساها ؟
وهذه السماء بالنجوم من بناها ؟
وهذه الأنفس من فى الغيب قد سواها ؟
لاشك هو الله ، لا نعبد إلا الله
وخاب سعى أمة لغيره مسعاها
وإنما نخاف من أمتنا أذاها

٢ — الكهف

وخرجوا من دارهم بالنفس فى هداها
وكلبهم يتبعهم فى طاعة يرعاها
وانطلقوا إلى فلا ة عز من يغشاها
إلى مغار جبل يشرف من أقصاها
ودخلوا ليعبدو ه حقاً لا اشتباها

٣ - نومهم ٣٠٩ سنة

فأخذتهم نومة طال بهم مداها
ولبثوا سنين فى الـعميق من كراها
واستيقظوا فجاءة وانتبهوا انتباهاً

بعـــد ثلثمائة وتسعة عـــداها

٤ ـ حديثهم بعد النوم

فسألوا كم حقبة في الكهف قضيناها
قالوا : لبثنا فيه من عشية ضحاها
فأرسلوا بورق يحملها فتاها
يبتاع من أطعمة وينتقى أذكاها
من المدينة التى بالأمس غادرناها
ويحذر القوم بها ويتقى فوضاها
فإن تعد تدرى بنا أحرقنا لظاها

٥ ـ ظهورهم بعد تغيير الحالة

فوجد الأرض سوى ما كان قد رآها
والقوم غير قومه والحى قد تناهى
فظن وهو دهش أن قد يكون تاها
ومر فى سوق بها غير التى دراها
ثم انتقى أطعمة وراح فاشتراها
وقد رمى بورق تبادلوا سواها
فاستذكروها معه وحققوا إياها
فوجدوا أن المدى بطوله محاها
وعلموا حال الفتى من قصة رواها
وأقبلت إخوته فأيدت أخاها
فصدقوا ماكان عنهم يملأ الأفواها
وآمنوا بربهم فى آية أتاها

٦ ـ نتيجة التقوى

هاهم أولاء فتية قد أحسنت تقواها
فالله قد أناها فى الخلد مشتهاها
وهذه قصتهم خالدة ذكراها
وقيل : كم عدتهم ؟ سبحان من أحصاها

الهراوى

البوصيرى

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ محمود عرنوس
القاضى الشرعى

تاريخ حياته

قرأت فى العدد الأول من السنة الثالثة لمجلة «المعرفة» الغراء بحثاً قيماً لحضرة الأستاذ الكبير على الجارم، بحث فيه عن أحد شعراء مصر الخالدين؛ ذلك الشاعر هو «شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى» وشكا الأستاذ كما شكا غيره من غموض سيرته وقلة ما يمكن أن يقال حول حياته.

والواقع أن حياة هذا الشاعر — على شهرته — تكاد تكون مجهولة. ولما كنت من الذين حبب إليهم البحث عن حياة شعراء مصر، وكنت وقفت على شىء — وإن كان قليلا — يتعلق بحياة البوصيرى، فقد رأيت نشره فى مجلة «المعرفة»، ليكون بمثابة لبنة توضع فى بناء ذلك التاريخ، حتى إذا ماضم ما كتبته إلى ما كتبه حضرة الأستاذ الجارم، وما سيكتبه عن شعره كما وعد، أمكن إظهار شخصية هذا الرجل العظيم.

وقبل الدخول فى تفصيل تاريخه نقول: إن كلمة بوصير بضم الموحدة التحتية وسكون الواو وكسر الصاد وسكون المثناة التحتية أيضاً بعدها راء، اسم يشترك فيه سبعة بلاد بالديار المصرية، كما حققه عالم مصر على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية؛ وصاحب الترجمة ينتسب إلى أحدها ولكن لا يكاد الباحث يهتدى إلى بلده؛ غير أنه تبين من موالاة البحث أن المراد من (بوصير) المنسوب إليها البوصيرى إنما هى بوصيرونا بمديرية بنى سويف؛ ويوجد بالقرب من هذه البلدة بلدة أخرى اسمها (دلاص) بفتح الدال وكسرها، واقعة جنوب بوصيرونا المذكورة، كان منها والد المترجم، أما والدته فهى من بوصيرونا.

مولده ونشأته

نقل صاحب الخطط التوفيقية عن الشيخ على الشناوى أحد الذين كتبوا على همزية البوصيرى أن ناظمها العارف بالله تعالى «شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيرى» نسب إلى بوصير قرية بالصعيد؛ وينتسب إلى دلاص قرية به أيضاً؛ فإن أحد أبويه من أحد القريتين والآخر من الأخرى.

وربما ركبت له نسبة منهما وقيل الدلاصيرى ؛ فدلا مأخوذة من دلاص وصيرى من بوصير، ثم اشتهر بالبوصيرى ؛ وقولهم أبو صيرى بالهمزة فى أوله خطأ .

ولد الناظم المذكور سنة ثمان وتسعين وستمائة، وتوفى سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، ويقال له الصنهاجى نسبة إلى صنهاجة، قبيلة منها ابن آجروم . وكان الناظم وابن عطاء الله الاسكندرى تلميذين لأبى العباس المرسى ، فخلع على البوصيرى لسان الشعر ، وعلى ابن عطاء الله لسان النثر. هذا ما جاء فى الخطط التوفيقية نقلاً عن الشيخ الشناوى .

غير أنى لا أرى هذا صحيحاً ، لأننا إذا صدقنا هذه الرواية عن المولد والوفاة استحال أن يكون البوصيرى تتلمذ للشيخ أبى العباس المرسى ، وأن يكون اشترك فى الطلب عليه مع تاج الدين بن عطاء الله الاسكندرى، لأن أبا العباس المرسى توفى سنة ست وثمانين وستمائة بالاسكندرية قبل ولادة البوصيرى على هذه الرواية ، وتاج الدين بن عطاء الله الاسكندرى توفى سنة سبع وسبعمائة ، فهو وإن عاصر البوصيرى إلا أنه بعيد أن يشترك معه فى الطلب فى مثل سنه. إذاً وجب علينا أن نرجع إلى مصدر آخر نتبين منه تاريخ المولد والوفاة .

قال جلال الدين السيوطى فى «حسن المحاضرة» عند ذكر شعراء مصر : منهم الشريف البوصيرى صاحب البردة محمد بن سعيد بن حماد الدلاصى المولد، المغربى الأصل، البوصيرى المنشأ ، ولد بناحية دلاص فى يوم الثلاثاء أول شوال سنة ثمان وستمائة، وبرع فى النظم ؛ قال فيه الحافظ فتح الدين بن سيد الناس : هو أحسن شعراً من الجزار والوراق ؛ مات سنة خمس وتسعين وستمائة.

وثم مصدر آخر ، وهو ما ذكره شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى ؛ قال فى فاتحة شرحه على الهمزية : إن البوصيرى هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله ابن صنهاج بن هلال الصنهاجى ؛ كان أحد أبويه من بوصير الصعيد والآخر من دلاص بكسر الدال فركبت النسبة منهما فقيل الدلاصيرى ؛ ثم اشتهر بالبوصيرى . قيل ولعلها بلد أبيه فغلبت عليه (هى بلدة أمه كما مر) ، ولد سنة ثمان وستمائة، وأخذ عنه الامام أبو حيان والإمام اليعمرى أبو الفتح بن سيد الناس ، ومحقق عصره العز بن جماعة ، وغيرهم .

ومن مجموع هذه الروايات علمنا بلد أبيه وبلد أمه، وأنه ولد فى بلد أبيه ونشأ فى بلد أمه ؛ أما قبيلة صنهاجة التى ينتسب إليها البوصيرى. فقد ضبطها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح الهاء ، بعدها ألف ، بعدها جيم مفتوح ، ثم هاء، وهم بنو صنهاج بن برنس بن بربر ؛ وقيل صنهاج بن أوريغ بن برنس بن بربر، ويقال إنهم من حمير، ومن صنهاج قبيلة لمتونة التى منها ملوك المرابطين الذين كان منهم يوسف بن تاشفين بانى مدينة مراكش انقرض ملكهم فى المغرب بدولة الموحدين . وقد أطال المقريزى فى كتابه «البيان والإعراب» فى نسب قبائل صنهاج .

أشياخ البوصيرى والرواة عنه

أظهر شيوخ البوصيرى الشيخ أبو العباس المرسى ؛ وقد ذكر له الشيخ الشعرانى فى كتابه «الطبقات» ترجمة طويلة . وهذا الشيخ نشأ نشأة دينية، إذ هو أظهر تلاميذ الشيخ أبى الحسن الشاذلى، كما كان البوصيرى وابن عطاء الله من أظهر تلاميذ أبى العباس المرسى .

ويظهر من كلام ابن حجر أن البوصيرى إنما لازم شيخه بعد أن ترك عمله الحكومى الذى سنتكلم عنه ، قال ابن حجر : كان البوصيرى يعانى صناعة الكتابة على الجبايات ، وباشر بلبيس الشرقية ، ثم ترك ذلك وصحب القطب أبا العباس المرسى ، فصارت عليه بركته ، وساعده لحظه وهمته ، إلى أن فاق أهل زمانه ورزقه الله من الشهرة والحظ مالم يصل إليه أحد من أقرانه .

وما قاله ابن حجر لا ينافى أن يكون البوصيرى تلقى العلم عن أبى العباس المرسى فى مصر قبل أن يلازمه فى كبره ، لأن الشيخ أبا العباس وإن كان دفين الاسكندرية ، إلا أنه كان يقيم فى مصر فى خط القسم بالقاهرة ، وكان يقرأ كبار الكتب ، كما جاء فى ترجمته المبسوطة فى كتاب الطبقات ، وكذلك كان يقيم فى مصر ابن عطاء الله الاسكندرى ، وبها توفى ، وفيها دفن .

بعد أن تخلى البوصيرى عن أعماله التى كان قائماً بها وقال مدائحه النبوية ، اجتمع به كبار العلماء وتلقوها عنه ، قال ابن حجر : أخذ العلم عن البوصيرى جماعة ، منهم الإمام أبو حيان وهو أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان الأندلسى ، كان إماماً فى التفسير والنحو واللغة . قدم القاهرة وروى عن البوصيرى ، وتوفى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، وله مواقف معروفة فى البحث مع ابن تيمية العالم المشهور ؛ ومنهم محقق عصره العز بن جماعة ، ولى قضاء الديار المصرية وعمر طويلاً وورد ذكره فى سلسلة الرواة الذين روى الهمزية عنهم ابن حجر ، فقد ذكر أنه رواها بجملة طرق علاها روايته لها عن شيخه أبى يحيى زكريا الأنصارى عن العز أبى محمد بن الفرات عن العز أبى عمر بن البدر بن جماعة ، عن الناظم . فابن جماعة روى عن الناظم همزيته ، كما جاء فى هذه السلسلة وتوفى سنة ثلاث وستين وسبعمائة ؛ ومنهم الأديب الظريف العالم الحافظ المحدث محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس ، ولد سنة إحدى وستين وستمائة ، وتوفى فى شعبان سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، وكان يروى عن البوصيرى بعض أشعاره ونوادره .

أعماله التى كان قائماً بها

قال محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى المتوفى سنة أربع وستين وسبعمائة فى كتابه «فوات الوفيات» : إن محمداً بن سعيد بن حماد البوصيرى كان يعانى صناعة الكتابة والتصرف ، وباشر الشرقية ببلبيس ، وله تلك القصيدة المشهورة التى نظمها فى مباشرى الشرقية (سنذكر طرفاً منها) .

ويقول ابن حجر : إن البوصيرى كان يعانى صناعة الكتابة على الجبايات وباشر بلبيس الشرقية ؛ وبلبيس هذه كانت عاصمة قسم يقيم فيه الحاكم ، وكان هذا القسم يشمل ثلثمائة وثمانين بلدة ، وفق ماجاء فى « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ، جمع الشيخ شرف الدين يحيى بن المقر الجيعان ، وأصبحت اليوم عاصمة مركز بلبيس التابع لمديرية الشرقية ؛ وفى الخطط المقريزية : هى بفتح الموحدتين ، وفى التوفيقية : بفتح الباء وكسرها ، وفى القاموس : مضمومة الأول وقد يفتح ؛ وكانت أشهر بلاد الشرقية وقاعدة خط الحوف ومحل إقامة الحاكم ، ولها شهرة تاريخية .

فهمنا من هذه الروايات أن البوصيرى كان يلى عملاً فى الحكومة ، وهو مباشرة بلبيس ؛ ولكن لم نذكر طبيعة هذا العمل ولم نحدده ؛ فالذى يفهم من كتاب نهاية الأرب أن مباشر الجهة هو الذى كان يشرف على مساحة أرضها ، ويعرف المستحق عليها من المال والغلال ؛ إذ يقول : والذى يحتاج إليه مباشر الخراج بمصر ويعتمد عليه فى مباشرته ، أنه إذا شمل الرى أرض الجهة التى يباشرها ، أن يبدأ بإلزام خولة البلاد (قياسو الأرض بعصبة المساحة) برفع قوانين الرى وصورتها ، وأن يكتب فى صدر القانون ما مثاله : قانون رفعه كل من فلان وفلان الخولة والمشايخ بالناحية الفلانية بما شمله الرى وعلاه النيل المبارك من أراضى الناحية ، لسنة كذا وكذا الخارجية ، وهو من الفدن (بالضم) ؛ ويذكرون جملة قانون البلد ويفصلونه بالرى والشراق ؛ ويبينون أنواع المزروع وأنواع الأرض بصفاتها وما هو مزروع فيها ؛ فإذا رفع إلى المباشر هذا القانون ، أشهد فيه على رافعه بأن الأمر على ما تضمنه ، ويحضر البلد ويشهد على كل زارع بما سجله من أراضى كل قبالة ، ويبين ما على الفدان من الغلة والدراهم ؛ ثم يصرف لكل مزارع ما جرت العادة بصرفه من التقاوى والدراهم ، ويكون ما يصرفه من أطيب الغلال ، فإذا نبت الزرع واستوى ، ندب من مباشرى مساحة الأراضى ، من شاء من عدول ذوى خبرة بالمساحة ، وكاتب عارف أمين ؛ فإذا تمت المساحة ، أضاف إلى كل اسم ما كان تسلمه من تقاو وقروض ، وما عليه من عشر ودفر ورسوم ، وما لعله انساب من الباقى إلى آخر السنة الماضية . ا هـ . باختصار .

وقد أطال صاحب نهاية الأرب فى بيان عمل المباشر ؛ ومن بيانه نفهم أن هذا العمل لا يخلو القائم به من ظلم للناس ، خصوصاً فى تلك الأزمنة التى كان يعيش فيها البوصيرى ؛ ولذلك كان الناس ينظرون إلى هذا العامل بعين البغض ؛ قال المقريزى عند كلامه فى ذكر الروك الأخير الناصرى وما ترتب عليه : من ذلك إبطال المباشرين من النواحى ؛ فقد كانت البلاد المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى ، ما من بلد - صغيراً كان أو كبيراً - إلا وفيه عدة من كاتب وشاد ونحو ذلك ؛ فأبطل السلطان المباشرين ، وتقدم بمنعهم من مباشرة النواحى ، إلا من بلد فيه مال السلطان ؛ فأراح الله سبحانه الخلق بإبطال هذه الجهات من بلاء لا يقدر قدره ولا يمكن وصفه .

كان البوصيرى مباشراً لبلبيس . وقد علمنا طبيعة هذا العمل ؛ وكان يعلم ما يفعله هؤلاء

المباشرون أمثاله من ظلم وأكل لأموال الناس بالباطل ، ولما فى نفسه من الخير كره هذا العمل وحمل حملة منكرة على هؤلاء المباشرين ، ولا أظن أنه وجه إليهم قارص الكلم ، لأنهم كانوا الطلونه فى حقه ، ويسوفون فى إعطائه راتبه - كما يقول الأستاذ الجارم - بل لما رأى من سوء تصرفهم وظلمهم ، فرفع صوته عالياً بالإنكار عليهم .

روينا فيما سبق - عن الكتبى - أن البوصيرى ذم المباشرين بقصيدة ووعدنا أن نشير إليها، فنقول الآن إن هذه القصيدة هى قصيدة نونية ، خفيفة الروح ، قال فى مطلعها :

نقدت طوائف المستخدمينا	فلم أر فيهمو رجلاً أمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم	مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال همو جميعاً	فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا	بهم فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً	ولا شربوا خمور الأندرينا

ثم يوجه القول فيها بعد ذلك إلى الوزير محرضاً له فيقول :

أمولاى الوزير غفلت عما	يتم من اللئام الكاتبينا
تنسك معشر منهم وعدوا	من الزهاد والمتورعينا

ثم يعطف بعد ذلك على سكان مصر وأهل أديانها المختلفة فيقول :

وما أخشى على أموال مصر	سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون لنا حقوق	بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط نحن ملوك مصر	وأن سواهمو هم غاصبينا
وحللت اليهود بحفظ سبت	لهم مال الطوائف أجمعينا

وهى قصيدة طويلة كلها على هذا النمط . وله كثير من الشعر القصصى والهزلى ، روى له ابن سيد الناس واقعة طريفة مع ناظر الشرقية أثناء عمله معه ، ذلك أنه كان للبوصيرى حمارة ، استعارها منه الناظر ، فأعجبته ، فأخذها ، وجهز له مائتى درهم ثمناً لها ، فكتب له البوصيرى على لسانها إلى الناظر يقول :

يا أيها السيد الذى شهدت	أخلاقه لى بأنه فاضل
ما كان ظنى يبيعنى أحد	قط ولكن صاحبى جاهل
لو جرسوه على من سفه	لقلت غيظاً عليه يستاهل
أقصى مرادى لو كنت فى بلدى	أرعى بها فى جوانب الساحل
وبعد هذا فما يحل لكم	أخذى لأنى من سيدى حامل

وكان الناظر - على ما يظهر - رجلاً ظريفاً ، حيث ردها ، ولم يأخذ البوصيرى الدراهم منه .

عافت نفس البوصيرى هذه المظالم،فترك عمله ولحق بشيخه أبى العباس المرسى،وأخذ يقول مدائحه النبوية ، وهذه المدائح هى التى جعلت له هذا الصيت البعيد ؛ ومن أمهات قصائده النبوية القصيدة الهمزية التى مطلعها :

كيف ترقى برقيك الأنبياء ياسماء ما طولتها سماء

وقد عنى بها العلماء فكتبوا عليها الشروح الكثيرة،من مطول ومختصر.وله قصيدة أخرى حاكى بها قصيدة (بانت سعاد) ،مطلعها:

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول

وله القصيدة المعروفة بالبردة أو البرأة،وهى أكثر شروحاً من الهمزية ،وإن من يطلع على كتاب كشف الظنون ليأخذه العجب من كثرة ما كتب على هذه القصيدة ، وهى آخر قوله فى المدائح.روى صاحب فوات الوفيات أن البوصيرى قال:كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ،منها ما كان اقترحه على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير،ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى فالج أبطل نصفى ،ففكرت فى عمل قصيدتى هذه،فعملتها، واستشفعت إلى الله تعالى فى أن يعافينى،وكررت تلاوتها حتى عوفيت،ثم ساق حكايات تتعلق بهذه القصيدة.

ولهج الناس بقصيدتى البوصيرى : الهمزية والبردة،وأثنوا على صاحبهما أطيب الثناء،غير أن الوهابية أصحاب محمد عبد الوهاب حملوا عليه حملة منكرة حتى كادوا يخرجونه من دائرة الإسلام، قال محمد بن عبد الوهاب فى رسالته (شرح لا اله إلا الله):واعلم رحمك الله أن أشياء من أنواع الشرك الأكبر وقع فيها بعض المصنفين،على جهالة لم يفطن لها ،من ذلك قوله فى البردة :

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وفى الهمزية من جنس هذا أو غيره أشياء كثيرة،وهذا من الدعاء لا يصلح إلا لله وحده .

وقد ألف أتباعه رسائل عن أسئلة رفعت إليهم فى البردة، وكل مجمع على ذم البوصيرى.

إلى هنا انتهى بنا القول باختصار فى حياة البوصيرى ؛ أما وفاته فكانت - على رواية الشيخ الشناوى - فى سنة إحدى وثمانين وسبعمائة . وقد علمت ضعف هذه الرواية فلا ينبغى التعويل عليها،وقد جعل السيوطى وفاته سنة خمس وتسعين وستمائة،أما ابن حجر فإنه جعل وفاته فى سنة ست أو سبع وتسعين وستمائة - على ما قاله المقريزى - ؛ لكن صوب شيخ الإسلام العسقلانى أنه توفى سنة أربع وتسعين وستمائة.وعلى جميع الروايات فإنه عمر طويلاً وقد كانت وفاته بالاسكندرية، كشيخه أبى العباس المرسى ،جاء فى الخطط التوفيقية عند ذكر مساجد الاسكندرية :أن مسجد البوصيرى كان قديماً وجدده المرحوم سعيد باشا بناءاً حسناً،ورتب له ما تقام به الشعائر ،كما رتب فيه دروساً دائمة،والبوصيرى هو شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى صاحب البردة والهمزية، وله تآليف غيرهما ؛ كان أبوه من دلاص وأمه من بوصير ،قرية تقرب من دلاص بمديرية بنى سويف. ا.هـ. رحمه الله .

محمود عرنوس

الانســــان والكــون

للأستاذ محمد محمد السيد

المدرس بمدرسة طنطا الثانوية الأميرية

ذهب (لابلاس)[1] إلى نابليون مقدماً نسخة من مؤلفه (Mécanique Celeste)، وهو كتاب ضخم في خمس مجلدات حاول فيه تفسير نشوء العالم وتكونه من أصل سديمي على أسس ميكانيكية بحتة، وقد أخبر أحدهم نابليون بأن الكتاب ليس فيه ذكر الله؛ وكان نابليون مغرماً بالأسئلة المحرجة، فلما تناول الكتاب من لابلاس، نظر إليه مبتسماً وهو يقول « لقد أعلموني يامسيو لابلاس أنك كتبت هذا المؤلف الضخم عن العالم ونظامه، ولكنك لم تذكر قط خالقه»، فأجابه لابلاس فوراً - وقد كان رغم لباقته السياسية صلباً في آرائه وفي كل نقطة من فلسفته -: « إنني لا أهتم بمثل هذا الفرض»، إذ كان يعتقد أن فرض وجود الله، هو فرض لا حاجة له به في تفسيره للوجود.

بمثل هذا الغرور كان ينظر بعض العلماء الطبيعيين في أوائل القرن التاسع عشر إلى ماحولهم من ظواهر الطبيعة؛ فقد كان العهد لا يزال قريباً بكشف نيوتن[2] لقانون التربيع العكسي في الميكانيكا، وما انبنى عليه من تفسير لحركات الكواكب حول الشمس، وحركة القمر حول الأرض، وغيرها من كثير المسائل الفلكية، حتى عمت موجة من الهرطقة عقب نجاح هذه التفاسير الميكانيكية نجاحاً ظاهرياً. وقام كثير من الكتاب في أوربا — وخاصة في فرنسا — وفي طليعتهم فولتير، يهاجمون القسس ويحاولون هدم المعتقدات الدينية.

وإذا كان بعض العلماء غالى في مدى ما وصل إليه العلم، فإن الكثيرين كانوا ينظرون إلى الكون نظرة الإكبار؛ فنيوتن العظيم كان يعتقد بوجود إله قادر عاقل دائم الوجود في كل مكان، وكان يقول بأن قوانينه التي كشف عنها، ما هي إلا موسيقى تسبح بقدرة هذا الخالق القادر، وقد لخص أعماله واكتشافاته في قوله: « إنني لا أعرف النوب الذي سأبدو فيه للعالم؛ ولكني أمام نفسي لست إلا طفلا يلعب على شاطىء البحر، مسلياً نفسي بلعبة من

(١) بيير سيمون لابلاس La place رياضي فرنسي كبير ولد سنة ١٧٤٩ ومات سنة ١٨٢٧.

(٢) أسحق نيوتن هو أعظم العلماء والرياضيين الذين أنجبتهم انجلترا. ولد سنة ١٦٤٢ ومات سنة ١٧٢٧، تناول مباحثه الرياضيات والميكانيكا والطبيعيات، وخاصة الضوء، ويصفه لاجرانج - وهو أكبر رياضيي القرن الثاني عشر - بأنه الحائز لأعظم عقل جبار، ووصف أعماله بأنها أعظم انتاج لعقل بشرى.

الحصى المستدير الناعم أو القوقع الملون البديع ، بينما محيط الحقيقة الواسع أمامى غامض مجهول غير مكشوف »، فتأمل كيف كان هذا « العقل الجبار » ينظر لضآلة ما كشف من العلم بجانب «محيط الحقيقة الواسع»، رغم اعتماد العالم على اكتشافاته ما يقرب من ثلاثة قرون .

بين هذا الغرور بمدى نجاح الإنسان فى تفسير معضلات الطبيعة الذى يتجلى فى رد لابلاس على نابليون، وبين هذا الإيمان العميق الذى نجده فى كلام نيوتن محقراً ما وصلنا إليه من نجاح فى كشف غوامض الكون ، بين هذين النقيضين يتقلب البشر منذ قرون عدة ، ولكنهم كلما ازدادوا وقوفاً على غوامض الطبيعة ، تجلى لهم عمق المجهول وبعد غوره ، وبانت لهم فى وادى الحقيقة وهاد ونجاد، خفى على أسلافهم حتى مجرد كشف وجودها .

لنرجع عشرة قرون إلى الوراء، ولنقرأ ما كتبه أحد الحكماء فى «رسائل إخوان الصفا»(١)، فى بيان طاقة الإنسان فى المعارف وإلى أى حد هو » ، قال: « ومن الأشياء ما لا يمكن دراكها وتصورها ، لخفائها ودقتها وصغرها ، مثل الجزء الذى لا يتجزأ ، ومثل الهيولى الأولى المجردة من الصور والكيفيات ، ومثل عجزه أيضاً عن معرفة كيفية تصوير الجنين فى الرحم، وخلقه الفرخ فى جوف البيضة، والحب فى الغلف، والثمر فى الأكمام .... فمن يرد أن يعلم كيفية حدوث العالم وعلة كونه، فينبغى أن يتفكر أولاً فى هذه الأشياء، فيعلمها ويتصور كيفية حدوثها، ثم بعد ذلك يتفكر فى كيفية حدوث العالم وعلة كونه ؛ فمن ادعى أنه يعرف ذلك فليخبرنا عن صورة العالم :كيف هى على ما هى عليه الآن؟ـ وهذه تباشرها حواسه هو وتشاهدها ـ دع ما مضى مع الزمان لنسيانه ، أو ما سيكون فى المستقبل وكيف يكون ؟ أو فليخبرنا عن علة كثرة الكواكب وعلة أبعادها ومقاديرها وأعظامها ، وحركاتها ، وما هى عليه الآن ؟ وما العلة فى ذلك ؟ أو فليخبرنا عن المجرة وما هى ، فإنا لم نجد إلى وقتنا هذا أحداً من الحكماء قال فيها قولاً مرضياً ، أو فليخبرنا عن شىء واحد ، هو الأثر الذى نراه فى وجه القمر : ما هو ؟ مع أن الناس يشاهدونه دائماً ، دع ما لا يشاهدونه من كون العالم ؟ أو فليخبرنا عن علة اختلاف أجناس المعادن وأشكال الناس وهياكل الحيوان ، بما هى عليه الآن ، وما العلة فى ذلك ؟ » .

هذه المجموعة من المسائل التى يعدها لنا كاتب « إخوان الصفا » هى دليل على قصور الإنسان وعجزه ؛ وفيها يجد الباحث شيئاً من الضياء قد ألقى على الكثير منها، فالأثر الذى نراه فى وجه القمر قد كشف عنه جاليليو (١) بتلسكوبه منذ أكثر من ثلثمائة وعشرين عاماً كجبال ووديان، وصار تخطيط خريطة الجزء الظاهر من صفحة القمر بجبالها وتلالها عملاً عادياً بفضل المناظير المقربة .

---

(١) الجزء الثالث طبعة المطبعة العربية بمصر ص ٤٢

(١) ولد جاليليو سنة ١٥٦٤ فى بيزا ومات سنة ١٦٤٢، ويصفه المؤرخون بأنه واضع أساس علم الديناميكا والميكانيكا على التجربة والمشاهدة ، وقد حوكم لقوله بدوران الارض حول الشمس ،

وللتلسكوب والعلماء الحديثين الفضل فى الإجابة عن المجرة و« ما هى »، فنحن نعلم الآن كيف أن شمسنا وهذه النجوم التى تبدو للعين منتثرة كالدرر فى السماء تكون عالماً مستقلا، يبين لمن يلقى عليه نظرة خاطفة عن بعد كأنه رغيف الخبز أو قطعة "بسكوت المستديرة ، تحتل شمسنا وكواكبها المحيطة بها مركزاً يقرب من وسطه . ونهر المجرة هو النجوم التى تبدو متزاحمة، لأنها تحدد حافة هذا العالم المستدير .

كذلك يتساءل كاتب « إخوان الصفا » عن الكواكب وكثرتها وعلة أبعادها ومقاديرها وأعظامها . والعلم يقدم له الآن فروضاً تصلح لكى تكون أساساً للإجابة. ففى عصور ساحقة فى القدم — يقدرها الفلكى الطبيعى بآلاف الملايين من السنين — كان العالم ممتلئاً بمادة مخلخلة جداً — الهيولى الأولى كما يسميها الأوائل — أشد تخلخلاً من أى سديم، ثم بدأت تعمل فيها الجاذبية شيئاً فشيئاً، فجمعته ، وتكونت مجاميع نجمية ، كل منها يسمى سديماً. تنتثر فى الفضاء الواسع كما تنتثر الجزر الصغيرة فى الأقيانوس المحيط . ثم بدأت كل مجموعة فى الانقسام مكونة شموساً ، وهذه أحياناً كونت مجاميع كوكبية كمجموعتنا الشمسية المكونة من الشمس والكواكب الكثيرة التى تدور حولها . هذا هو هيكل النظرية التى يتقدم بها الفلكى الطبيعى محاولاً ملء تجاويفها بالحواشى والتفاصيل .

كذلك يتساءل كاتب « إخوان الصفا » عن اختلاف أجناس المعادن . وقد بذل العلماء كثيراً من الجهد فى الكشف عن العلة ؛ فالنظرية القديمة القائلة بإرجاع المواد إلى عناصر أربعة هجرت، واستقر الرأى الآن على أن العناصر المختلفة تزيد على التسعين . وفحصت هذه العناصر بطرق ما كانت لتخطر ببال الأوائل ، للبحث عن أصول مشتركة بينها ، حتى كشف العلم عن الحجارة الأولية التى بنى منها كل عنصر ، وإذا بالحجارة المذكورة لا تختلف عن بعضها فى مختلف العناصر ، (فقوالب) البناء الأساسية هى الإلكترونات والبروتونات، تربطها طاقة هائلة هى (مونة) الطبيعة فى بناء عناصرها وموادها . ويحاول العلم أن يقلد الطبيعة بإضافة أو أخذ بعض القوالب من عناصر ليبنى عناصر أخرى ، وقد أصاب فى هذه السبيل بعض النجاح .

وأشكال الناس وهياكل الحيوان ، وكيفية تصوير الجنين فى الرحم وخلقه الفرخ فى جوف البيضة، والحب فى الغلف، والثمر فى الأكمام ؟! لقد أصاب العلم كثيراً من التوفيق فى كشفها والإبانة عنها بفضل جهود الباحثين ومعجزة المكرسكوب ؛ وكونت الردود على هذه الأسئلة علوماً قائمة بذاتها .

وفق العلم إذن — بدرجة كبيرة — للإجابة بنجاح عن كثير من هذه المسائل التى عرضها تعجيزاً كاتب « إخوان الصفا ». ولكن علينا ألا نغتر كثيراً ، فإن العالم فى إجابته عن تلك المسائل قد عرضت له مباحث أعوص وأشد تعقيداً ، وهو يحاول وسيحاول كثيراً للكشف عنها.

ها هي ذي مباحثه في الذرة — الكوكب الفرد وتركيبه — تقوده إلى ألغاز الميكانيكا الموجبة وتقف به مندهشاً متحيراً أمام أصغر جسيم مادي صوره له خياله ، وهو الإلكترون ، فخواص الإلكترون التي يكشفها (العقل) لا يمكن أن يتصورها (الخيال) ، فالبحث العلمي يرينا الإلكترون كجسيم مادي ، له خواص الأمواج ، يملأ الوجود ، ولكنه يفوت المكرسكوبات لصغر حجمه بما لا يتصور ؛ قد تقول إن هذا تناقض ولكن معذرة فهكذا يقول العلم ، وبهذا تنطق المعادلات الرياضية . ومباحث العالم الطبيعي في الفلك والأجرام السماوية قادته إلى هذه الأحاجي في الفضاء وتركيبه . فمن ذا الذي يتصور بسهولة — إن أمكن تصوره إطلاقاً — فضاء منحنياً متناهياً غير محدود ، الزمن أحد أبعاده الأربعة ؟ .

هكذا يصف العلم الفضاء ، والانحناء فيه هو الذي مكن إينشتين من تفسير ما عجز نيوتن عن تفسيره ، وقاده لقانون جديد للجاذبية بدل قانون نيوتن (قانون التربيع العكسي) .

أما كيف تتصور فضاء متناهياً غير محدود ، فالعلم ينصحك بأن تتصور سطح كرة . وأيضاً في نظر المخلوقات التي تعيش عليه بدون نظر إلى بعد ثالث ، وهو متناه وغير محدود ، ويمكن السير عليه في اتجاه واحد والرجوع إلى حيث بدأنا ؛ كذلك الفضاء ، فإذا قدر لك أن تسافر فيه في اتجاه خاص ، أرجعك انحناؤه مسافة ملايين الملايين التي لا تحصى من الأجيال إلى حيث بدأت ، دون أن تخرج عن هذا الفضاء لحظة . بمثل هذا الغموض يحاول العلم أن ينير ويكشف عن المسائل العويصة ، فيكسبنا المعرفة على حساب الغموض والإبهام ، ويسلب منا الصور الواضحة المحدودة ليعطينا بدلاً عنها هيا كل غير واضحة الحدود ، وكأنه يعطي باليمين ليأخذ باليسار .

ثم هو لم ينجح في تقليل عدد المسائل المحتاجة للإبانة والحل ، فعدد الباحثين من العلماء الآن أكثر منه في أي وقت مضى ؛ هم يعالجون من المعضلات المنوعة ما لا يحصى ، وكلما نجح أحدهم في تذليل إحداها ، نبتت أمامه من وراء المجهول وعن طريق الحل الذي عثر عليه ، مسائل جديدة تحتاج هي الأخرى للتوضيح والإبانة .

لم ينته العلم إذن من مهمته ، وسوف لا ينتهي ، فسوف يجد الإنسان على مدى الأجيال أمامه من خفايا الطبيعة ما يستثير فيه غريزة حب الاستطلاع ؛ إنه لم يفرغ الانسان بعد من كشف ما بداخل جسمه من المواد وما لأعضائه من الوظائف . دع درس ما حوله من أصناف الحياة — نباتية وحيوانية — على سطح الكرة الأرضية وهي في متناول يده .

فإذا فرغ منها فأمامه الكواكب والأجرام السماوية ، ينازلها بعقله ، وعليه أن يكشف باحثاً منقباً عن صور الكائنات الحية فيها : أين توجد ؟ وكيف ؟ . فإذا وفق ، فليشبعها بحثاً وفحصاً كما فعل بمثيلاتها الموجودة على الكوكب الذي يعيش فيه . وليت شعري هل لهذه الغاية من

سبيل؟؟صحيح أنه يستعين بآلات ما كان يحلم أجداده الأوائل بصنع مثلها، كالمكرسكوب الدقيق الذى بحث به عن خفايا الحياة والمواد، والتلسكوب المكبر الذى كشف له عما بعد من الأجرام السماوية الهائلة، والسبكترسكوب المحلل للضوء والذى يخبره عن درجات الحرارة فى الشموس البعيدة ملايين الملايين من الأميال، حتى لكأنها فى متناول يده، وعن سرعتها الهائلة، اقترابًا وابتعادًا، ولكن مدى هذه الآلات محدود.

هناك كائنات حية ليس فى متناول المكرسكوب مهما أدخل عليه من تحسين أن يكشف لنا عنها، والنجوم التى فى السدم البعيدة لا يطمع عالم فى رؤيتها مهما زيدت قوة تكبير التلسكوب. وإذا كانت النجوم التى قد تبلغ ألف مرة قدر شمسنا فى الحجم يكاد يكون من المستحيل رؤيتها بأقوى ما نطمع فى عمله من الآلات، فهل نحلم يومًا برؤية كواكب مثل تلك الشموس إن كان لها كواكب؟ ثم رؤية أصناف الحياة فى مثل تلك الكواكب — إن كان فيها حياة —؟ ثم فحص صنوف هذه الكائنات الحية؟

ثم ما الذى نعلم من خواص المادة الجامدة؟ كل ما نعلمه هو نتيجة درسنا ما حولنا من الأجسام فى كرتنا الأرضية، ندرسها فى جونا ذى درجات الحرارة التى فى إمكاننا الوصول إليها بطرقنا المحدودة، وتحت الضغوط التى يمكننا إحداثها، وهذه وتلك ليست إلا كسرًا ضئيلاً من الحالات المختلفة الموجودة فى أنحاء كثيرة من الكون، فهناك درجات حرارة فى قلب بعض النجوم تبلغ الملايين من الدرجات المئوية، وتوجد ضغوط هائلة جدًا فى بعضها، حتى إن كثافة المادة قد تصل إلى مليون مرة قدر كثافة الماء عندنا. فإذا وصلنا إلى كشف كل خواص الأجسام الجامدة عندنا — وهو ما لم نصل إليه بعد — فلنخفف من غلوائنا قليلاً؛ فالمادة التى كشفنا عن كل خفاياها تختلف خواصها باختلاف الأوساط التى تحيط بها، وقد رأينا أن ما عندنا ليس إلا كسرًا بسيطًا مما يعم الكون بكواكبه وشموسه.

وحتى عندما نحيط علمًا بكل ما هو كائن الآن من ألغاز تخفيها الأرض والسماوات، فهل نطمع أن نكشف عما (كان) قبل أن توجد أرضنا، وعما (سيكون) بعد أن نختفى نحن وتختفى أرضنا فى عالم الغيب؟.

إن حياة الإنسان على ظهر الكرة الأرضية ليست إلا دقة واحدة فى ساعة الكون الأبدية، وقد دارت عجلة الزمن قبل أن يوجد هذا الإنسان، وستظل دائرة بعد أن يفنى؛ فإذا علم شيئًا فسيجهل بلا شك أشياء؛ ولقد حق عليه إلى الأبد قوله تعالى «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

محمد محمد السيد

الاسلام

وأثره فى العرب وفى لغة العرب

بقلم الأستاذ السباعي السباعى بيومى
أستاذ الأدب العربى بدار العلوم العليا

لغة الأمة مرآة ترى عليها صورتها بالحال التى هى عليها ؛ وهى شديدة الحس والتأثر بكل ما يعتريها ، ومن ثم كانت الانقلابات السياسية والدينية والاجتماعية ذات أثر بين فى اللغات ؛ وبقدر ما يكون لتلك الانقلابات من قوة وسعة ، يكون التأثير فى اللغة : صعوداً وهبوطاً ، رفعة وانحطاطاً .

ندلى بهذه التقدمة لنحكم بأن الاسلام – وهو ذلك الانقلاب الهائل الخطير – غير من أوضاع الأمة العربية تغييراً تناولها فى كل نواحيها بدرجة لم تك لأى حدث فى أية أمة سواها، حتى ليقال دون – مبالغة ولا تزيد – إنه خلقها خلقاً جديداً جعلها فى حسها ومعناها غير ما كان عليه أسلافها ، فكان لذلك فى اللغة من الأثر البالغ والتغيير الكبير ما نريد إجماله هنا .

١ — الانقلاب الحسى

عاش العرب محصورين فى جزيرتهم لم يخالطهم فيها غيرهم ولم يرتحلوا للإقامة بعيداً عنها، وهى كما تعلم جزيرة – على سعتها – ليس بها نهر يجرى ولا سهل يزرع كما للأمم حولها، إنما هى أرض تكاد تتقاسمها الصحارى والنجود ، وفيها من الجبال ذات الأودية محط الغيوث والأمطار ما ينبت العشب والكلأ مما تعيش عليه ماشيتهم من إبل وضأن ومعز يعيشون عليها ؛ فهى بلاد يحيا أهلها حياة البدو ، إلا من كان فى بعض أطرافها من الحضر المتحضرين وهم قليل .

طالبتهم هذه الحياة أن يجيدوا وصف الأرض فى الناحية التى عليها بلادهم من الصحارى المترامية الأطراف ذات الرمال المحرقة والمفاوز المهلكة ، ومن النجود العظيمة تشقها الأغوار البعيدة ، ومن الأودية المطمئنة تحدها الجبال الشامخة ، وأن يجيدوا بالتبع لذلك نعت الإبل من رواحل وجزر ، فعلى الإبل حين الرحلة عادهم ، ومن لحماتها وألبانها شبعهم وريهم ، ومن صوفها وأوبارها ملابسهم وخيامهم ، كما يجيدون وصف نبات البادية من كلأ وعشب ، ورياحينها من عدار وبهار ، وشجرتها ذات الصلة الوثيقة بها وهى النخلة التى برح البدو فى معرفتها والوقوف على خصائصها ، فلم يتركوا منها شيئاً دون استخدام وانتفاع .

وطالبتهم - وهم قوم يعيشون فيها على المطر، إذا جادهم أخصبوا وأمرعوا، وإذا أخلفهم أجدبوا وأقحطوا - أن يطيلوا النظر إلى السماء يتعرفون مواطن السحب والغمام، الممطر منها والجهام، ومهاب الرياح باردها وحارها مستقيمها ونكبائها. لما لها من العلاقة الوثيقة بالأمطار.

على أن لهم إلى نظر السماء - إذا صفا الجو وتبددت الغيوم - حاجة أخرى: فإن بها من النجوم ما عليه هدايتهم وفيه إرشادهم حيث يسيرون فى ظلمات الليل البهيم، وما كان مسراهم غالباً إلا فيه فراراً من حر الشمس التى تذيب بوهجها فى صحاريهم أدمغة الضباب.

وطالبتهم - وهم قوم رحل ينتجعون منابت الكلأ ولا يستقر بهم قرار - أن يعدوا للرحلة عدتها، فيتخذوا بيوتهم من الشعر يرفعونها إذا ارتحلوا ويضربونها إذا أقاموا، وأن يحسنوا وصف ذلك وما تعلق به من الصوف والوبر والأعمدة والأوتاد والفواصل والأطناب.

ثم طالبتهم أخيراً أن يكونوا فى مأكلهم وملابسهم على حال من التقشف والتبدى لا تدع لهم تلوناً فى مأكل ولا تأنقاً فى ملبس ولا تنوعاً فى آنية ولا قنية لأثاث أو رياش، مما هو بالحضر كثير المشاهدة وليس عنه لسكان المدن محيص.

هذا هو الميدان الحسى الذى كانت تتطلع فيه العرب جاهليتها، ومنه تنتزع حواسهم، وبه تتأثر مشاعرهم، فلا يصدرون فى تصويرهم إلا عنه، ولا يصفون فى حسهم إلا منه، ولكن الإسلام إذ جاء غير من كل هذا فلم يكد يطالبهم بالجهاد والغزو فى ممتلكات الفرس والروم، حتى خرجت جماهيرهم إليها خروج السيل المندفع، فلم يمض صدر من خلافة عمر إلا وقد خلفوا هاتين الدولتين: فأزالوا الأولى عن رقعتها فارس والعراق، وضعضعوا الثانية بما أخذوا من مصر والشام؛ وبهذا احتلوا ما اتسع من الأرضين يفلحونها ويزرعونها، واستوطنوا ما عظم من المدن يتمتعون بخيرها ونعيمها، وشاهدوا من مجالى الطبيعة الجديدة: الأنهار الجارية، والسهول الناضرة، ومن آثار الحضارة العريقة ما أنتجته حكمة فارس وصنعة الرومان وعلم مصر، فتبدلت بهم الحال غير الحال، ونسوا الصحارى وإبلها والنجاد ووهادها والبوادى ونبتها، ولم تعد حياتهم حبساً على المطر يتشوفونه من الجو المتلبد، ويتسمعونه فى الريح المزجى، ولا هدايتهم وقفاً على السماء الصافية ذات النجوم اللامعة، ولا طلب عيشهم رهناً بالرحلة يشدون أكوارها فضعف فى كلامهم كل هذا وخلصوا منه، إلى ما يقابله مقابلة الحضارة للبداوة أو مقابلة التنعم للتقشف، بل السعادة للشقاء. وكانوا بذلك كله جد منتفعين، فما هى إلا ساعة من نهار حتى أشربوا هذه المدنية، وتغذوا بها وامتلكوا ناصيتها وزادوا فيها، وظهر ذلك عليهم ظهوراً حقاً ليس بالمقلد ولا المعار، ثم ما هى إلا عشية أو ضحاها حتى طبعت هذه الحضارة بطابعهم واستحقوا - عن جدارة بما حوروا وابتكروا - نسبتها إليهم، فقيل الحضارة العربية لا حضارة كذا ولا كذا، وحدث للغتهم كل هذا فأحسنت تصويره وأجادت نعته. وأصبحت تسمع فيها منذ الصدر الأول فى ميدان الحس ما لم تك تسمع،

فى حسن أداء وسعة خيال ؛ وإن كتب المغازى والفتوح لملأى بالأمثال والشواهد على ما جد فى هذا الباب .

٢ ـ الانقلاب المعنوى

وجاء الاسلام والعرب شتى المذاهب مختلفو المشارب ، لا دين يجمعهم ولا عقيدة تنتظمهم ، فمنهم المشرك عابد الصنم والوثن ، وما هو إلا حجر ينحته بيده وينقلب يعبده دون نفع يرجى ولا ضر يخشى ، ومنهم الصابىء عابد الكواكب والنجوم لا يرى فى أفولها نقصاً ولا فى اختلاف أحوالها طعناً ، ومنهم المجوسى عابد النار والشمس يسجد لها فى طلوعها ويقيم بيوت النيران عظيماً لشأنها . ومنهم الدهريون الذين ينكرون البعث والنشور ويقولون « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، ومنهم الزنادقة الثنويون الذين يجعلون الصانع اثنين : فاعل خير هو النور ، وفاعل شر هو الظلمة ، ويقولون إنهما قديمان باقيان ، ومنهم عباد الشياطين مخافة شرهم ، وعباد الملائكة رجاء خيرهم ، ثم منهم اليهود والنصارى ، ومنهم غير من ذكرنا ؛ فجاء الاسلام يدعوهم إلى دين واحد أساسه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فتبدأ تلك القواعد الخمس بالتوحيد وجعل الجهاد من أجله فرضاً ، وآذنهم أنه يغفر ما يشاء لمن يشاء إلا أن يشرك به ، قال عز شأنه « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ؛ وبهذا وحد بينهم فى العقيدة وجمعهم فى صعيد للعبادة ، وكان هذا الاتحاد القلبى النعمة الكبرى التى امتن بها عليهم إذ يقول لهم « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

وجاء الاسلام والعرب أسرى أوهام وخرافات يدينون بالعرافة والكهانة ويعتقدون فى الزجر والعيافة ، بل فيما هو دون ذلك من سائر الأوهام كالصدى والهامة وتعليق الحلى على الملدوغ ليسلم ، وكى الصحيح ليبرأ الأجرب ، وضرب الثور ليشرب البقر ، ووطء المقلات دم الشريف ليعيش ولدها ، إلى غير ذلك مما ران على قلوبهم وغشى من أبصارهم ، فانتزعه الاسلام منهم وانتزعهم منه ، وبذلك خلصت من الأوهام عقولهم وسلمت من التخريف أفكارهم .

وجاء الاسلام والعرب تدين بالعصبية والقوة ، يفنى كثيرهم قليلهم ، ويأكل قويهم ضعيفهم ، لا يزالون يوالون النهب والسلب والابتزاز والنصب ، تقوم بينهم الحرب لأوهى سبب ويطول على بقائها فيهم الأمد ، فتفنى لذلك كبارهم وتنقطع منه ذراريهم وأنسالهم . جاء الاسلام فكان راية السلام يتظللون بظلها وآية الوئام يعملون على تأييدها ، فلا قتال إلا فى نشر دين الله ولا غزو إلا فى إعلاء كلمته ، وبذلك تم توحيد كلمتهم وصاروا يداً واحدة على من سواهم ، فى غير تفاخر بالآباء والأجداد ، ولا تكاثر بالأموال والأولاد ، وكما سوى بينهم فجعل أكرمهم عند الله أتقاهم ، جعل هذا أساس تفضيلهم على غيرهم ، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى

وجاء الاسلام وفى العرب غلظة دونها أكباد الإبل، وقسوة أهون منها قسوة الحجارة، يقتلون أولادهم للفاقة ويئدون بناتهم للقالة « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء مايعملون »، فنعى عليهم جفوتهم وشدد النكير على فعلتهم ، قال تعالى« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً »، وقال فى موطن آخر « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » فسلكها مع جسام الحوادث تهويلاً لها وتبشيعاً، ثم أكثر مطالبتهم أن يكونوا أرقاء القلوب رحماء فيما بينهم، فكانوا كما أراد ،وظهر ذلك فيهم ظهور الشمس فى الرابعة حتى فى الشخص الواحد من مخضرميهم،وآية ذلك عمر رضى الله عنه ، كان فى جاهليته من أقسى القساة وصار فى إسلامه أرحم الرحماء إلا ما أهاب بشدته فيه داعى الدين .

وجاء الاسلام والعرب مضطربة فى معاملتها ، تأكل الربا الفاحش وتلعب الميسر المدمر، وتقتسم على أعمالها بالأنصاب والأزلام فتكف عما أرادت وتقدم على ما كرهت ، فأحل الله البيع وحرم الربا ونهى عن الميسر والاستقسام، حيث نهى عن الخمر،ونظم لهم معاملتهم فبدل من ظلمهم عدلاً ومن فوضاهم نظاماً ، وجعل لهم تشريعاً مدنياً شاملاً لم يسبق مثله،ولم يلحقه إلا ماهو منه أو ماهو دونه،وكذلك فعل فى التشريعين:الشخصى والجنائى،وسائر التشريعات الأخرى، مما لا تزال السمحاء تعلو به سائر الشرائع وتمد العالم منه بالبرهان الساطع والنور اللامع الذى لاينقطع ضوءه ولايخبو شعاعه ، والذى لايزال على مدى الأيام تتكشف أسراره وتتضاعف أنصاره ، فيعترف به الجاحدون ، ويرى بعد نظره المتبصرون ، وإن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.

هذا طرف مما أتى به الاسلام مغيراً لنفسيات العرب فى عقائدهم وعباداتهم: عاداتهم وأخلاقهم، معاملاتهم ونظم حياتهم ، وما كان أسرع ماطبعوا عليه وعملوا به واتخذوه الإمام الذى لا يعصى والقدوة التى لا تنسى ، وظهر ذلك فى عامة أحوالهم وأولاها لغتهم ، فقد حادوا بها عن القديم إلى الجديد ، فلم يك فيها للمعبودات السالفة شأن،ولا للأوهام والخرافات ذكر،إلا ماكان على سبيل الزراية والعيب . كذلك لم تبق ميداناً للتنافر بالعصبية والدعاء بدعوة الجاهلية، وأداة لتحسين ما تقبحه العقول، والترغيب فيما تنفر منه النفوس، دون تورع ولا حياء، إنما صار الشأن فيها كل الشأن لإقرار كلمة التوحيد ونشر معالم الدين والعمل على تغذية الأمة بروحه ووقفها على أسراره،حتى تستعصم بحبله الذى لاينقطع، وتستمسك بعروته التى لاتنفصم . وشتان بين ما كان وبين ما أصبح كائناً من كلام،فقد هجرت ألفاظ وجدت ألفاظ وماتت معان ونشأت معان وعدل عن أغراض إلى أغراض ، وماهذا بالمحتاج إلى إيراد الشواهد وضرب الأمثال .

النتيجة

وإذن فقد تغير من العرب بالاسلام حسهم ومعناهم ،بصرهم وبصيرتهم ، إن استوحوا الخيال فمن ميدان غير الميدان ، وإن استلهموا القلب فمن نفس غير النفس ووجدان غير الوجدان ؛ على أن التغير لم يقف بهم عند هذين الانقلابين فحسب ــ وقد كانت فيهما الكفاية كل الكفاية ــ

بل أمدهم بعامل آخر هو القرآن الكريم ، فى قوة بلاغته وتمام إعجازه ، فكان أمامهم المثل الحى و موطن المحاكاة و التقليد ، فى كل ما يحاولون من قول ويريدون من كلام .

بهرهم ببديع أسلوبه ومحكم آياته وتلازم فواصله ، فخروا أمامه ساجدين وطفقوا به يستعينون ومنه يقتبسون ، فكان النبع المعين ذا الماء الصافى والقرار المكين ؛ ومع تمام عجزهم عن محاكاته ظهر أثره فى كلامهم ، لفظاً وأسلوباً ، معانى وأغراضاً ، وأخذ بيد اللغة إلى الذروة التى بلغتها والمكانة التى احتلتها ، حتى حق للباحثين فى الأدب – من أجل ذلك – أن ينسبوا إليه كل ماحدث بها من رقى وظهر فيها من قوة وسلطان .

نعم إن للانقلابين السالفين من التأثير فى اللغة ما كنا نجد آثاره ، لو جاء الكتاب – كما جاءت الكتب قبله – بلغة لا إعجاز فيها ولا إفحام ، وإلا سلبنا الأحداث الدينية والسياسية قوتها وطعنا فى نظم العمران والاجتماع ، ووقفنا إزاء الحوادث تكذب دعوانا وتقوم شاهدة على النقيض منا ، ولكن القائلين بهذه النسبة لا يقفون من أثر القرآن فى اللغة عند حد الفصاحة والبلاغة فى الألفاظ والأساليب من حيث التعبير عن المعانى والأغراض ، فيكون لما أوردناه آنفاً محل للإيراد ، وإنما يتجاوزون هذا الجانب منه إلى أنه موطن التشريع والتعليم والتقويم والتهذيب ، إلى أن هذا الانقلاب المعنوى قد جاء بدعوته وتم على يده ، فكل ماعند العرب منه ، إليه ينتسب ومنه يتشعب ، لا مبالغة فى هذا ولا امراء . أما ذلك الانقلاب الحسى فرجعه إليه آت من تشريعه الجهاد ، فإن الدعوة المحمدية لم تجىء خاصة بقوم صاحبها ، كما جاءت سوالف الدعوات وإنما جاءت عامة للناس كافة وتقرر لتحقيق هذا التعميم وجوب الجهاد ، فكلف صلى الله عليه وسلم أن يدعو الأمم جمعاء إلى ما فيه سعادتهم وهو دين الله ، فإما أجابوا وسمعوا ، وإما حملهم على ذلك بالسيف حملا ؛ هكذا فعل فى حياته ، وبه اقتدى خلفاؤه من بعده ، فخرج العرب من جزيرتهم إلى ما أسلفنا ، من أقاليم ذات مزارع وأنهار ومدن وأمصار شاهدوا فيها ما شاهدوا من كل جديد عليهم ، وتأثروا بما تأثروا من كل غريب عنهم ، وبذلك انقلبوا الانقلاب الحسى المذكور ، ولولا تشريع القرآن للجهاد تشريعاً جعل الموت فيه أحب إلى العرب من الحياة ، وجعل الخنساء وقد قضت جاهليتها باكية أخاها لأبيها ، تسجد لله شكراً ، حين جاءها من القادسية نعى بنيها ، لما فتحت العرب تلك الفتوح ولا خرجت للجهاد ثم للإقامة هذا الخروج ؛ فمن هنا يكون صدق الدعوى واستقامة الكلام ؛ ومن ثم يجب أن يكون للقرآن دراسة مستفيضة تشرح ماله باللغة من علاقة وفى شتى نواحيها من تأثير ؛ ومن بعده تكون دراسة الحديث ، فقد رأت العرب فى كلام رسول الله – وهو منهم وكلامه من نوع كلامهم الفصاحة المتدفقة والبلاغة المتمكنة ، يخاطب كل قبيل بأعلى ما عرف فى لغته وأتقن ما سمع من لهجته ، كأنه نشأ فيهم وربى فى أوساطهم ، وكأن ذلك فيه عن سليقة وطبع ، فأخذوا يقصدون قصده وينهجون نهجه ، حتى ازدانت ألفاظهم بدرر ألفاظه ، وأشرقت معانيهم بغرر معانيه ، وجاءت السنة معقبة للكتاب فى دخل اللغة من تقدم وارتقاء .

السباعى السباعى بيومى

علاقة الآباء بالأبناء

بقلم المربية الفاضلة

الآنسة زينب الحكيم

بينا فى مقالنا السابق الرابطة بين الآباء وأبنائهم من الناحية الطبيعية والعقلية والانفعالية والاجتماعية ، بحيث لم يبق هناك شك فى صحة وجود تلك الروابط ؛ على أنه قد يكون من السهل أن نتكلم عن هذه العلاقات ونثبت وجودها ، دون أن نقدر قيمها الحقيقية كعوامل أولية هامة فى توثيق الصلات بين الآباء والأبناء ؛ ولقد يكون من العسير أن نرى كيف تدوم تلك العلاقات صحيحة ، مع استمرار محاولة العمل على تقويتها وعدم فصم عراها .

فإذا آمنا بأن العلاقات بين الآباء وأبنائهم تتكون بواسطة الاتجاهات النفسية العديدة ، وأن كل اتجاه أو ميل نفسى يشتمل على تجارب عدة ، لأيقنا أن كلاً من الآباء والأبناء يتأثر بوحدات ومجموع التجارب التى تحصل بينهما .

كيف تنمو الاتجاهات ؟

الميزات العقلية والطبيعية المختلفة تؤهل كل طفل لتجارب مختلفة ، والتجارب المختلفة هذه تنشىء اتجاهات وميولاً مختلفة أيضاً .

وبما أن كل إنسان له نشاطه الذاتى ، فإن كل نشاط يشترك فيه الآباء وأبناؤهم هو تجارب مشتركة ، وعلى هذا الاعتبار ، فالتجربة معناها عمل ، وكل شىء يعمل له نتيجة ، ونتيجة هذا العمل إما شعور إقناع أو عدم إقناع .

ونتيجة كهذه إما أن تقوى أو تضعف العلاقات الأبوية والبنوية . فإذا كانت النتيجة شعور اقتناع فكل فريق يتمنى تكرار نفس العمل ؛ أما إذا كانت العكس فإننا نتحاشى إعادته . وهنا نلحظ أن نشاطنا يقوى أو يضعف تبعاً لشعورنا الخاص نحو كل شىء نعمله .

فإذا رغبنا فى تكرار عمل واحد عدة مرات ، فيمكننا أن نقرر ـ دون أدنى تردد ـ أن اتجاهاً خاصاً قد نما نحو ذلك العمل .

مثال ذلك : إن ميلك نحو شخص خاص أو نحو شىء معين ، توضحه أفعالك بالنسبة لهذا الشخص أو ذلك الشىء .

فمثلاً لو قابلت شخصاً لأول مرة ، وشعرت بشعور متنافر نحوه ، فإنك تتحاشى لقاءه مرة أخرى . ولقد تصرح بأنك لم تحب هذا الشخص ، (وأنك أحسست أنه ثقيل الظل عليك) ، وإذا تكرر شعورك هذا كلما رأيت نفس الشخص فإن ميلك إليه يكون ميل عدم صداقة ، واتجاهك نحوه اتجاه عداء ، فتعمل على مقاطعته كلما استطعت ذلك . فإذا كان ولا بد من مقابلته (كأن يسبب لكما المقابلة اجتماعكما فى بيئة واحدة أو مكان واحد لضرورة عمل أو مصلحة مثلاً) ، فإن علاقتك الاجتماعية تختلف كل الاختلاف عن علاقتك برجال ونساء آخرين تكون علاقتك بهم علاقة صداقة .

انظر إلى الطفل الذى يرسم شيئاً بسيطاً ، ويرى أن رسمه هذا يسر والديه على حقارته ، فإن الطفل يتشجع بهذا الشعور ويستمر يرسم مهما كان فى ذلك من مشقة عليه ، فإذا لحظ أن محاولاته نجحت فى اجتذاب رضاء والديه فإنك ترى ميلاً قوياً للرسم ينشأ بوضوح فى الطفل خصوصاً إذا كانت له موهبة الفن . وقياساً على هذا نرى أن الاتجاهات النفسية هامة جداً فى حياة الأفراد والجماعات حيث إن كل اتجاه أو ميل يتبع دائماً بعمل من أى نوع ، حتى ولو كان هذا العمل مجرد قرار لا ينفذ مطلقاً .

والقرار الذى لا ينفذ فى حالة الأشخاص البالغين يمكننا اعتباره شدة حرص منهم . ولكننا نعتبره فى حالة الأطفال الصغار ، عناداً أو إهمال واجب أو عدم انتباه .

كيفية إنماء الصلات :

عرفنا أن الصلات بين الآباء والأبناء نشأت فى الطفل منذ ولادته ، ويصح للمرء أن يسميها عادات عملية ، أو عادات عمل الأشياء ، أو طرق عمل الأشياء . وهناك مئات الأشياء التى يعملها كل طفل يومياً ، فتنشأ هناك مئات الميول المطابقة لتلك الأعمال ، فهناك الاتجاه نحو الغذاء والنوم واللعب والمشى والكلام والطاعة والصداقة ومشاركة العواطف والحب والشعور المتين .

ويشترك فى تكوين كل هذا جميع أفراد الأسرة الواحدة ؛ وهذه الاتجاهات عوامل قوية فى تربية الطفل ، فهى التى تشكل الأسرة والعلاقات الإنسانية ، وهى القوى الفعالة فى حياة كل مخلوق إنسانى .

وهذه الاتجاهات هى أسس جميع الأعمال الإنسانية المتوطنة ، والعلاقات الإنسانية الضرورية ؛ ومع هذا فنلحظ أن الوالدين أكثر ميلاً إلى الاهمال من حيث التجارب التى يعرضان أبناءهما لها يومياً ، من وقت ولادتهم إلى سن البلوغ .

ومن الغريب أنهما لا يفهمان أو لا يريدان أن يفهما أن الاتجاهات التى نشأت فى أبنائهما هى دعامات الصلات التى كوناها بين نفسيهما وبين أبنائهما .

وكثير من الآباء يظنون أنه يمكنهم أن يكونوا أصدقاء لأبنائهم دون اعتبار صلات الصداقة التى نمت بينهم وبين أبنائهم بنفس الطريقة التى تنشأ بواسطتها علاقاتهم مع أى إنسان يصادقهم.

ولكن الطفل لابد خاسر بالنسبة لعلاقة كهذه ، لأنه عديم الخبرة ناقص التكوين ، غير مستكمل النمو الجسمى والعقلى ، أما الوالدان فكاملا النمو ، لهما خبرة ودراية بشئون الحياة تمكنهما من فهم مالم يفهمه الطفل بعد ، كما أن لهما قدرة على الطفل الصغير ،فهما لذلك يعرضانه للتجارب المختلفة .

وما لم ينتبه الوالدان إلى ماسيعود على الطفل من تلك التجارب ، فمن الممكن أن ينميا فى الطفل اتجاهات مخالفة لما أرادا أن ينميا فيه .

الفتاة «سعاد» وعمرها اثنتاعشرة سنة ، لحظ عليها الهدوء الشديد، والكتمان لأفكارها، ولم تحادث والديها فى شئونها الخاصة ، الأمر الذى أقلق أمها واضطرها إلى المجاهرة بأن الاباء يجب أن يكونوا خير أصدقاء لأبنائهم .

وسعاد هذه لازمتها دائما مربية كانت يقظة من حيث إرشادها إلى عمل أشياء مختلفة ، ولكنها لم تشجعها مطلقاً على إبداء رغبتها فى الأشياء التى تريدها ، بل كانت دائماً تعنفها على أقل الهنات التى تصدرعنها دون أن توضح لها كيف أتلفت تلك الهنات الأشياء التى كانت تعملها، مما جعل سعاداً تصل إلى حكم قاطع بأن كل شىء تعمله إما أن يوافق أو لايوافق عليه البالغون ، تبعاً لميولهم الخاصة وحالاتهم النفسية .

وكان والدها رجلا كثير الأشغال ، ولم يكرس شيئاً من وقته للتحدث إليها ، وكانت أمها مقتنعة بالقاعدة « الأطفال ترى ولاتسمع »، ولم تصرف أى جزء من وقتها معها أثناء الخمس سنوات الأخيرة من عمرها ، على أنها شعرت برغبة ملحة فى مصادقتها وهى فتاة ، ولكن تلك الأم قد نسيت أن إنماء روح صداقة مع ابنتها يستلزم تجارب صداقة مستمرة ، بحيث تضمن رضاء الطرفين وتسترعى انتباه كل منهما ، وبحيث يتكون ميل صداقة وتعاون وتفاهم ، ينمو بممارسته فى المشاكل اليومية حتى يؤثر فى حياة الفتاة .

من أجل ذلك نصحت الأم أن تعمل كل ماتستطيع لكى تمضى بعض الوقت مع ابنتها كل يوم ، حتى يتسنى لهما الحصول على تجارب سعيدة معاً ، وتكون هذه التجارب مثل المشى البسيط حول الحديقة ، أو الجلوس فى مكان معاً للتحدث الظريف أو ما شاكل ذلك . . . .

ولكن الأم لم ترقها هذه النصيحة،وقالت إن مثل هذه الأشياء «ينقص من سلطانها على ابنتها» ويدعو إلى عدم حفظ مركزها ، وأشارت إلى أن كل ماتريده « صداقة بدون منع الكلفة

بينهما » ، واستمرت المشادة بين الأم وابنتها إلى أن تنزلت الأم ، ففهمت ان هناك فرقاً عظيما بين مجرد المعرفة ، والصداقة أو المرافقة .

وبعد سنتين من هذا التاريخ قالت الأم « إنى أعجب إذا كنت سأستطيع تعويض هاتيك الخمس سنين التى أضعتها فى جفاء مع ابنتى ، ولقد وجدت أنى ملزمة بإيجاد شعور حقيقى من المودة والصداقه بيننا ، وأيضاً كان لزاماً على أن أزيل من ذهن ابنتى شعورى الجمود والقسوة اللذين جعلاها قليلة الفهم عديمة الاهتمام بالأفراد الذين فى بيئتها » .

تأثير الوالدين فى أبنائهم :

بما أنه يشترك فى إنتاج الطفل فردان (هما أمه وأبوه) فلهما عليه تأثير كبير من حيث توجيه ميوله ، فهما معاً يعرضانه لأنواع من التجارب الخاصة المحددة ، وأحياناً بينما نجد أحدهما أكثرهما للطفل وأرأف به ، نجد الآخر شديد النقد له ، ضيق الخلق معه ، كثير الجفاء له .

وغالباً يظن هذا الأخير أنه لايقابل من الطفل بمثل مايقابل به الجانب الأول ؛ وذلك لأنه متلكىء مع الطفل أو كثير الشفقة به ، ويسبب هذا الشعور إخلال التوازن بين الوالدين . وهذه الحالة من أشد العوامل إنتاجاً لفشل الترابط العائلى .

فالطفل عند مايحاول إطاعة أوامر والديه ، يشعر دائماً بأنه ملزم بتطييب نفس ذلك الوالد وتهدئة نفس تلك الأم خوفاً منهما ، وخشية غضبهما ، بدل أن يقبل على تنفيذ أوامرهما برغبة ، وطمعاً فى تعلم طرق عمل الأشياء منهما ، ظناً منه أنهما على حق فيما يأمرانه به .

لذلك نرى الطفل يتعود جملة عادات خلقية منحطة كعدم الإخلاص ، والكذب . وأمثال هؤلاء الأطفال من بنين وبنات هم الذين ينشئون سيىء الحظوظ ، لا اعتماد لهم على أنفسهم ، بل تتأثر أفكارهم وأعمالهم برأى آخر فرد يتحدث إليهم ، وأمثال هؤلاء لايوثق بكلامهم ويشك فى إخلاصهم وولائهم ، ونحزن على اعتراضهم فى الحياة ، ويستحقون منا الإشفاق بهم .

محبة الأطفال وأهمية استعمالها بحكمة :

إن إنماء العلاقات الانفعالية فى الطفل أمر له أهميته وخطورته ، ومن الضرورى أن يتعلم الطفل كيف يحب ، إلى جانب مايتعلم من باقى الأشياء الضرورية فى الحياة . وإن معرفة نوعية وكنه الحب الأبوى لمن أهم الأمور ، لأن ذلك ضرورى جداً فى حالة تشكيل وصقل الرابطة الانفعالية بين الآباء والأبناء . لذلك يلزمنا تمييزما إذا كان حبهما أنانياً أو غير أنانى ، إذ كان حباً تتجلى فيه المقدرة على فهم الطفل والعمل على إرشاده وتكوينه ليحتل مكانه الطبيعى فى

الحياة أم عكس ذلك ، إن كان حباً يحيط الطفل كعضو من البشرية جمعاء لا تابعاً لأسرة خاصة أو العكس .

وكيف ينمو حب كهذا ؟

هل ينمو بواسطة الملامح الدالة على المحبة فى أبسط مظاهرها ، كتدليل الرضيع ، ومداعبة الطفل ، وتشجيع الصبى ؟ ! وهل تنمو عاطفة الحب هذه ومشاركة العواطف عندما يبدأ احتياج الطفل للإيضاح عن مكنونات نفسه بطرق ربما لا يستطيع الوالدان فهمها ؟ !

وهل نوعية حب الوالدين من النوع الذى يستطيع إنماءه مربيات أولادهما إلى علاقة صدقة بينهما إذا ما كبر الأطفال وصاروا غلماناً ؟ ! وهل تستطيع المربيات إنماء مواهب الأطفال الظريفة دون تسليط أفكارهن الخاصة عليهم .؟ !

سواء أكان هذا أم ذاك فإنه يجب على الآباء أن يمكنوا أبناءهم من مواجهة الحقائق وجهاً لوجه، وأن يعلم هؤلاء الآباء أنهم تابعون للماضى وأطفالهم مهيئون للمستقبل، وأن الآباء يرون الحياة فى ظل الماضى ، أما أطفاله فيرون دائماً ممكنات المستقبل .

وحب الآباء يجب أن يقوى دائماً بفهم كيفية تربية الطفل والأخذ بيده وفق طبيعته واحتياجاته ومؤهلاته ، حتى يمكنه التصميم على الخطة التى يجب أن تعقد عليها صلاتهم السليمة .

والآباء الذين يتوصلون إلى فهم ذلك يصبح لزاماً عليهم ألا يبتسموا أو يشجعوا الأعمال التى تصدر عن الطفل وعمره ثلاث أو أربع سنوات كأعمال مضحكة أو وقحة دون قصد، فإنهم لن يسمحوا لهم بعملها إذا مابلغوا السادسة والسابعة من أعمارهم ، ولا بد أن يقدروا أنهم لن يستطيعوا منعهم منها إلا بالعقاب .

وهنا يجب أن يرسم الآباء خطة حكيمة لتربية أبنائهم ، يكون ضمن برنامجها ألا يسمحوا لأنفسهم بتشجيع مايستملح من صغارهم وهم صغار أبرياء وقع منهم وهم كبار ويعقلون .وفى ذلك من اقتصاد النشاط والجهود والمشاق الشىء الكثير .

أما إذا اتبع الطريق الهمجى فى تربية الأبناء كما هى الحال الآن، فإن ذلك يكون من الخطر العظيم والخطل البين فى حفظ صلات المحبة والمودة بين الآباء وأبنائهم ، إذ تبعاً لذلك يظل الطفل محتاجاً إلى الرعاية بقدر مايشعر بالحيرة الدائمة .

وليس شعور محبة الآباء بأكثر أهمية من أغراضهم نحو أبنائهم ،فإنه ـ كما قدمنا ـ توجد الاتجاهات ، وتنمو الميول بواسطة التجارب اليومية ، ولكن هل هذه الاتجاهات وتلك الميول هى التى تعلم الطفل قيم ألوان الحياة المختلفة وشئونها ؟ ! إنها كذلك، خصوصا بالنسبة للوالدين

والأشقاء ، والشقيقات ، والأصدقاء ، وفى حالات اللعب والعمل ، وبالنسبة للحيوان والفن والدين والرغبة فى علم مالم يعلم ، وفهم معنى مالم يفهم ، وكل هذا يتوقف نموه وتكوينه على مرمى الحب الأبوى .

وهن العلاقات بين الآباء والأبناء:

كلما اعترضت الوالدين صعوبة معينة بالنسبة لسلوك أحد أطفالهما ، فهذا دليل واضح على أن العلاقة بينه وبينهما ليست مرضية ، وبذلك لم يتمكنا من الوصول بابنهما إلى الغاية التى قصدا إليها ورغبا فيها . وبالنظر إلى هذا الإخفاق، كثيراً مايصرح الوالدان، بأن سلوك ابنهما غير مرض ، فهو عنيد ، مخالف للاوامر ، لا يوثق به ، وهو متلف ومشاغب ، يذكران هذا دون استحياء أو خجل من نفسيهما لعجزهما عن تحويل سلوكه هذا إلى سلوك آخر أفضل منه .

ومن المدهش أنهما لا يفطنان إلى أن هذا الإخفاق سببه ضعف العلاقات بينهما وبين طفلهما. لذلك كان حتما علينا أن ننظر إلى المشاكل السلوكية فى الأطفال كما ننظر فى كل مشاكل العلاقات الإنسانية .

ولقد نلحظ المرة بعد المرة ، أن أحد الآباء لا يجد صعوبة ما فى اكتساب معاونة ومشاركة طفله ، ولقد يقرر هذا الوالد أن طفله مطيع ولطيف ، فى حين يقرر الآخر أنه لم يستطع اكتساب معاونة ومشاركة طفله لأنه مخالف عنيد وخشن ؛ ووالد آخر يستطيع كسب ثقة الطفل وصداقته ، وآخر يجده جافياً له ومقاوما لإرادته .

وكثيرا ما نسمع بعض الآباء يقولون : « عندى أربعة أطفال ، لم تعترضنى صعوبة ما مع ثلاثة منهم ، أما رابعهم (فكلبهم) ؛ فهو يختلف عنهم كثيراً لشدة عناده ، وعبوس وجهه ومخالفته ، ثم إقوى الرأس لدرجة تحير ، ولا أدرى ماذا أصنع معه ، وترون أننى غير متعب مع باقى أطفالى ، وبذلك لا يستطيع أحد أن يقول إننى لا أفهم عن تربية الأطفال شيئاً »

بناء على أمثال التصريح المتقدم ، يكون من الصعب دائماً إقناع أمثال هؤلاء الآباء بأن أشباه الطفل الرابع هذا ؛ إنما يرجع عبوسه وعناده إلى التجارب التى عرضه والداه لها، مما أدى إلى تكوين هذه الميول والعادات عنده .

ونسمع كثيراً فى هذه الأيام ، عن الاختلافات الفردية عند الأطفال . على أننا لا نقنع نفسنا بأن هذه الاختلافات تعرض الأطفال لتجارب متعددة ، مما يعمل على ازدياد مشاكلهم وتعقيد حياتهم ، أكثر مما يعود عليهم من اكتساب المنافع والخبرة ، لعدم رعايتهم وحمايتهم الكافيتين أمام هذه التيارات السريعة المتواصلة ، فى عصر مركب كالعصر الذى نعيش فيه

وفى هذه الحال نرى ضرورة سن خطة حكيمة لتربية الأطفال فى الأسرة، وليس معنى هذا أنه يجب على الوالدين اتباع شكل خاص من التربية لكل طفل على حدة فى الأسرة الواحدة، وإنما معناه أن يلجأ إلى الخطة المرسومة كمثل أعلى للتربية فى هذه الأسرة، وإنما تمنح هذه التربية بتنوع، بحيث تفى بحاجات الأطفال كل بحسب ما يناسبه.

الطفلة « فريدة » ولها من العمر عشر سنوات ـ أحضرت إلينا، لأنها أخفقت فى أعمالها المدرسية، ولم تكن مهتمة بالألعاب، وكانت تغار من أخيها البالغ الحادية عشرة من العمر، وكانت لا تطيع والدتها، لأنها لم تنتبه لما كانت تكلف بعمله، فكانت فى نظر والدتها، من الأطفال غير المرضى عنهم.

فلما حادثنا فريدة وسألناها عن الأشياء التى تحب أن تعملها، قالت « لا أعرف شيئاً عن الأشياء التى أحب أن أعملها »، ولم تظن أن هناك شيئاً بل أشياء تستطيع عملها جيداً. وبعد أن ترددت فريدة عدة مرات على المعمل التجريبى، وشعرت باطمئنان، وروح صداقة، وجدت من نفسها رغبة لعمل أشياء كثيرة، بل لقد أحست أنها عملت أشياء كثيرة فعلاً، ولكنها تطمع فى أن تعمل أحسن من هذا كله، لدرجة أنها ختمت حديثها معنا باقتراح حضورها مبكرة إلى المعمل، لكى ترتب بعضاً من الكتب، وتنقل بعض المحابر من القماطر.

هنا ظهر من حال فريدة أنها فتاة حساسة للغاية، وان عندها قوى عقلية ممتازة، واتضح أن المشكلة لابد أن تكون فى ناحية أخرى. وبعد أسبوعين، جاءت الأم فجأة إلى المعمل لتستعلم عن سبب ترك فريدة المنزل مبكرة عن الميعاد المحدد ساعة كل يوم بحجة أنها يجب الا تتأخر عن عملها!! فلما اخبرت عن الحالة التى وصلت إليها فريدة أبت أن تصدق ماسمعت أذناها، وظلت على اعتقادها، وهو أن فريدة أصبحت شديدة الشوق للذهاب إلى المعمل، كما اعتقدت أنه لا بد يوجد شخص فى المعمل كرس كل وقته لملاحظة ابنتها وتحرضها على العمل، وارتابت كثيراً فى أن فريدة لم تشغل وقت أى شخص بالمعمل، وأنها لم تراقب مطلقاً، وأنها تبرعت من تلقاء نفسها بالحضور مبكرة عن عادتها.

وهنا اتضح أن الأم من فريق الأمهات النكدات القلقات، وأنها لم تكلف نفسها مشقة تعليم فريدة كيفية عمل أى شىء، كما أنها لم تسمح لها بوقت كاف لتأدية أى عمل بل عوضاً عن ذلك انتهرتها دائماً، وانتقدتها وقارنتها بأخيها الهادىء الطبع، الطيع لأوامرها، والذى نشأ على أن يكون رجلا، ولو أنه ما زال فى عهد طفولته. وكانت الأم دائمة الشكاية من وجع الرأس، كما انتظرت من « فريدة » أن تقوم بأكثر مما تستطيعه من الأعمال المنزلية: واتضحت

الحقيقة ، وهى أن فريدة كانت تؤدى أعمالا منزلية أكثر مما تستطيع أداءه فتاة فى عمرها. وظهر أن عدم خبرتها واحتياجها إلى الإرشاد والمران سبب النزاع الدائم بينها وبين أمها، كما سبب هذا الشقاق ذاته شدة حساسية فريدة ، بحيث جعلها تخطىء كثيراً فى عملها إذا ما أحست أنه غير مرض .

من ذلك نرى أنه يجب على الوالدين أن يفهموا طبائع أبنائهم،فإن هذا هو السبيل القويم الذى يجب أن يسلكه الآباء حتى يأمنوا على أطفالهم من التجارب التى يعرضونهم لها، بحيث ينمون أصحاء الأجسام ، سليمى العقول والأخلاق .

والتجارب التى يشارك الآباء أبناءهم فيها توجد علاقه، إما أن تكون تعليمية مساعدة، وإما أن تكون متلفة ضارة فى تربية أى طفل . فإذا كان سلوك طفل غير مرض ، فيلزمنا قبل كل شىء أن نختبر التجارب التى ملأت حياته، وإذا أردنا تغيير سلوكه، فلنغير تجاربه أولاً ولنزل ما يكون منها عائقاً لتكوين اتجاهات وميول نافعة فى التربية ، ولنستبدل بالميول الأقل نفعا ميولاً أخرى تنمو قوية حسنة . فإذا جعلنا ذلك غرضنا فإننا ننهض بالتربية التكوينية، عن طريق العلاقات الصالحة بين الوالدين وأبنائهم .

زينب الحكيم

المرأة الشرقيـــة

وشقاء حياتها الزوجية

بقلم الاستاذ احسان سامى حقى

تمهيد

من جملة أمراضنا الاجتماعية الكثيرة التى نئن تحت أعبائها ، والتى اصبح كل واحد منا يشعر بها ويرى ضرورة تلافيها ، المرأة وماتقاسيه من تعاسة وشقاء وما تتحمله من ذل وهوان فى هذه الحياة ، التى هى حياة لغيرها وموت لها . وإن من ينظر بعين المنصف إلى ما تكتبه الجرائد والمجلات، ويصغى بأذن واعية إلى الشكايات فى المحاكم، ويسمع بإخلاص ما يقال من حكايات وروايات فى الطرقات وحافلات القطر وفى السيارات والمركبات ، بل فى كل مكان عما تقاسيه المرأة الشرقية من أية عائلة كانت ، ومن أية طبقة من طبقات الناس ، لايسعه إلا أن يقر لها بذلك ويعترف لها بأنها معذبة مظلومة .

وقد كنت أنا ممن تتبع هذه القضية وطالعها بعين مجردة من الأهواء، فوصلت ـ نتيجة أبحاثى وتحقيقاتى ـ إلى أن تعاسة المرأة الشرقية إنما ترجع إليها هى نفسها، وهى المسئولة عنها لا غيرها .

ولست أريد أن أبحث حال الفتاة الشرقية من حيث صحتها قبل الزواج ، لأن حياتها تلك لا تكون بيدها ، وليس لها فيها أى اختيار لخير أو شر ، بل أريد أن أبحث فى حياتها بعد الزواج ، لأنه القسط الأوفر من الحياة ، ولأن عليه تتوقف حياة الفتاة قبل الزواج ، أو بمعنى آخر ، إذا نحن أصلحنا حال الأم وبحثنا عن دواء لتلافى أمراضها الاجتماعية ، تم لنا إصلاح الفتاة بواسطة أمها ؛ فبحثى إذاً محصور فى الحياة الزوجية وشقاء المرأة الشرقية فيها .

سر تعاسة المرأة

والرأى عندى أن تعاستها إنما ترجع إلى عدم معرفتها «بعلم الحياة الزوجية»، وإن لم يكن هذا بالعلم الجديد ؛ أقول ذلك وأنا على يقين من قولى ، إذ من المشهور والمسلم به أن الرجل رجل إلا أمام المرأة . وليس لنا أن نبحث عن المرأة ، ما هى وكيف هى ، لأن النساء ـ كما قال أحد الظرفاء ـ كلهن سواء عند إطفاء المصباح . وليس مرجع التعاسة إلى وجود أو انعدام الجمال ، لأنه من الأمور النسبية ، فما يراه رجل جميلاً ، يراه آخر قبيحاً ؛ وإنما نعالج هنا مسئلة المرأة والرجل معاً .

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن تعاسة النساء المتعلمات فى الحياة الزوجية لا تقل عن تعاسة الجاهلات،إن لم نقل إنها أشد وأكثر من تعاسة غير المتعلمات ، بينما كان التعلم يقتضى أن يجرى الأمر على عكس ذلك ، لأن الإنسان كلما ازداد فى العلم ازداد فى العقل ، ومن كان هذا شأنه كان حرياً بأن تكون حالته أحسن من غيره . على أننا نرى الأمور تسير عكساً ، فما هو الداعى إلى ذلك ؟

أما السبب عندى فهو نقص فى «علم التربية الزوجية» ، ولست أعنى بالتربية: العلوم والفنون، أو الحصول على الشهادات العالية،أو إطاعة الزوج وتقبيل يده فى الأعياد والمواسم ، وانتظاره على الطعام ، والوقوف له إذا جاء،وتحيته إذا خرج ، مما يفعله بعض الناس ، بل هناك شىء آخر هو أجدر بأن يلتفت إليه من كل هذه السفاسف ؛ ولا أرانى أشذ عن الموضوع إذا ذكرت النكتة الآتية للتفكه ؛ذلك أن أحدهم ذكر مرة أمام صديق له أن ابنته نجحت بتفوق فى امتحان البكالوريا، وأنها تتقن بوجه خاص علم (الجيولوجيا) و(البكتريولوجيا) و(الفسيولوجيا) و(السايكولوجيا) الخ ، وسيتم اقترانها عما قريب بفلان ، فقال له صديقه :وهل أتقنت ابنتك (الطبيخ لوجيا) و(العجن لوجيا) و(الغسيل لوجيا) و(ترتيب المنزل لوجيا)؟!

وطبعاً لست أعنى أن تحصيل العلوم ونيل الشهادات شىء غير جدير بالفتاة؛ بل إنى لأراه لازماً لها لزوم الخبز والماء ؛ ولكننى أريد ألا تحرم الفتاة من أمور لا تقل فائدتها لها فى الحياة عن فائدة هذه العلوم ، إن لم أقل إنها تزيد عليها، وهى علم الحياة الزوجية ، أعنى به تلك الأمور التى تؤهل الفتاة لأن تكون زوجة حقيقية سعيدة فى حياتها الزوجية.

ترانا نعلم فتاتنا كل شىء،ونرسلها إلى المدارس،فتدرس وتطالع كل كتاب يليق أو لا يليق بالمطالعة ، ونأخذها إلى السينما ونريها شئون العشق والخلاعة والتهتك ، ونبعثها إلى الأسواق والحوانيت والمتنزهات .فتسمع وترى كل شنيعة ورذيلة ؛ ولكننا إلى جانب ذلك نرى من العبث والعار أن نذكر لها فى يوم من الأيام أنها ستتزوج وتكون أماً ؛ وبدل أن نعدها لذلك اليوم ونفهمها معنى الحياة الزوجية ، نعد ذكر الزواج أمامها فى أحاديثنا عاراً ،وفى حديثها أمامنا او أمام غيرنا منتهى الوقاحة وغاية الفجور،حتى لكأنها لم تخلق لهذه الغاية أو كأن الزواج جرم عظيم ومعصية كبرى ارتكبتها أمها من قبل بزواجها من أبيها ، ولا يليق بها أن ترتكبها هى أيضاً ، بينما العقل والدين والمصلحة تقضى علينا بأن نفهمها كل شىء عن الحياة الزوجية ، ونجعلها تستفيد من تجارب أمها — على الأقل — لتعد نفسها — بإضافة هذه التجارب إلى علومها وعقلها — للحياة الزوجية السعيدة؛ ولكن — ويا أسفاً — هكذا شاءت لنا تربيتنا وجمودنا ؛ فكان من جراء ذلك أنه إذا تزوجت الفتاة ودخلت بيت زوجها

ورأت وجوهاً غير الوجوه التى تعرفها وأخلاقاً وتربية وعادات خلاف ماعهدت ، وقعت فى حيرة ، وأخذت الأمور عليها ، فلا هى عالمة بالحياة الزوجية حتى تمدبر أمورها وتعيش بهناء وتعطى كل ذى حق حقه من أهل الدار وتنزل نفسها المنزلة اللائقة بها ، ولا هى جاهلة فتخضع وتستكين وتقضى حياتها بين تلك الجدران حيث لايعلم بها إلا الله ؛ فلا يكون منها - والحالة هذه - إلا أن تشمر عن ساقيها وتخوض مع كل أهل الدار فى بحر من المخاصمات والمنازعات، فيسبب هذا الزواج شقاء ، لا للزوج وحده، بل لكل أهله وأقاربه ؛ هذا إذا كانت الزوجة عودت ذلك فى بيت أبيها ، وتعلمت هذه الدروس من أمها ؛ وإلا فلا يكون منها إلا أن تستصرخ أهلها ، وهناك تكون الطامة الكبرى والويل والثبور .

أصناف الأزواج

ثم إننا نرى - إلى جانب ذلك - أن كثيراً من شباننا ما تكاد تمضى عليهم أيام العرس حتى يهجروا زوجاتهم هجراً مليا ، ويتخذوا لهم من المومسات خليلة يترددون عليها ، بل يقضون عندها كل أوقاتهم ويضيعون زهرة حياتهم فى تلك الحياة الشائنة الوخيمة ؛ كما أنهم ينفقون كل ماتصل إليه أيديهم ، وهم لايبتغون من الحياة إلا رضاءها الذى هو عندهم منتهى السعادة وعين النعيم ؛ على أنها قد لاتكون أجمل من زوجتهم ولا أعلم ولا أكمل . ومن الناس من قد صانهم شرفهم وحماهم من الوقوع فى مثل هذه التهلكة ، فتراهم يهجرون زوجاتهم ويتخذون المقاهى لهم داراً، فلا يأتون إلى منازلهم إلا غراراً ، وإذا دخلوها فإنما يدخلونها مجبرين ، إما لطعام أو لراحة أو لنوم أو لتبديل ثياب بغيرها، ثم لايلبثون أن يخرجوا منها سراعاً وكأنما هم نازلون فى فندق أو كأن فى الدار وباء ! وكثيراً ما يستغنون عن الدار أياماً طويلة يقضونها عند الأصدقاء والأحباب. والبعض ممن لايدينون بأحد المذهبين السابقين، وحالتهم المالية لاتساعدهم على الجلوس فى المقاهى أو المتنزهات ، تراهم يأتون إلى الدار ويجلسون كالجلادين، إن كلمته أخته لطمها، أو أمه أنبها، أو زوجته سبها، وإن ضحك أحد صب العذاب على الدار وأهلها ، وبكى طفل تقوم الهائجة الكبرى ؛ ويضج صاخباً ويثور لأقل حادث وينسى وقاره ويتجاوز حدوده؛ وهو معذور فى ذلك، لأنه يكون فى حالة عصبية غير سليمة؛ ومن الناس من يولع بشرب الخمر ليروح عن نفسه، ومنهم من يقضى حياته على الموائد الخضراء أو غيرها من الأمراض الاجتماعية التى يعرفها كل واحد منا، إما فى نفسه أو فى صديقه أو فى أحد أقربائه أو جيرته ؛ كل هذه الأمراض من المرأة وحدها، فإنك إذا سألت واحداً من هؤلاء الأزواج: لماذا صرف زهرة شبابه فى جمع المال من أجل أن يتزوج وها هو ذا قد تزوج وبيت الزوجية يطلبه ولا يحب له أن يعيش فى الطرقات ؟ أو إذا ذكرته بتلك الأيام التى كان يتهيأ فيها للعرس ، تراه يتأوه فى حسرة وتوجع، لاعناً، ساخطاً ذلك اليوم الذى

كانت له فيه تلك الصلة بزوجه المشئومة ويقول : لقد ضاعت آمالى وتلاشت مع العواصف ، فأنا اليوم غيرى بالأمس ، عرفت بالتجربة مالم أعرفه من الأقوال ، ونصيحتى إلى كل من لم يتزوج ألا يحدث نفسه بالزواج ، فحديث الزواج كالأفعى ، ناعم الملمس قاتل السم.

ثم يزيد على ذلك أنه لايحب زوجته ولا يميل إليها . وقد رأيت أن أكثر متبعى الثقافة الأوربية ومقلدى الطراز الحديث يعزون ذلك إلى أن الشرقيين — وخاصة المسلمين — لايتزوجون كما يتزوج الأوربيون عن محبة وتعارف . أما أنا فمع أننى من السفورين ، فلست أرى فائدة لهذا النوع من الزواج فى توطيد العلاقات الزوجية ، وأرجح أن الزواج الذى يكون بمعرفة الوالدين أو من يقوم مقامهما هو غالباً أنجح من زواج يتم بواسطة الشخص نفسه ، وذلك لأسباب :

منها أن الشاب فى ريعان شبابه وهياجه لايفقه للجمال معنى ، فالشاب لايرى امرأة إلا ويخالجه نحوها من الميل مايخالجه لرؤية غيرها ، سواء بسواء ، وهذا دليل على أن ميله للأولى أو للثانية ليس ناشئاً عن ميل خاص وإنما هو نتيجة ماأودع الله فطرة الذكر من الميل إلى الأنثى والعكس بالعكس .

ومنها أن الجمال ليس جمال الوجه والجسم فقط ، بل هو ما تقدم مضافاً إليه ميزات باطنية كثيرة لا يميزها إلا العارفون . أما أنا فإنى لا أرى جمال المرأة إلا فى الصحة والحياء ، وأما كونها بيضاء اللون أو واسعة العينين أو صغيرة الفم أو نحيلة الخصر ، فهذا مالا أعده الجمال ، لأنه شئ عارض وزائل . وفى زوال الجمال معنى غير جميل وأرجو ألا يفهم من قولى هذا أن لا بأس من كون المرأة شوهاء أو قطماء أو عرجاء ، فأية عاهة وأى عيب لايمكن أن يدل على الصحة الحسنة ، ولكم رأيت من النساء من ليس فيهن من معانى الحسن والجمال المتعارف عليه ذرة واحدة مما فى ذوات الخال والخلخال والقوام والهندام ، ومع هذا فإنك لتتمنى دائماً الجلوس إليهن واجتناء ثمر آدابهن .

فلماذا يضحى الإنسان إذاً بشرفه وجاهه وماله وينقاد إلى بيوت العهر ، وهو صاحب زوجة ، وزوجته جميلة شريفة مهذبة ربما لا يوجد من يضاهيها فى جمالها الطبيعى ، ناهيك عما اتصفت به من آداب وعصمة ، وحسبك ذلك من جمال ؟

ولكن ماذا تفعل هذه المسكينة لحظها القاتم الذى جعلها لاترى زوجها إلا غباً ، ولا تنعم برفقته ساعة واحدة يقضيانها فى سرور ، مما جعلها لا تعرف هل هى زوجة أو خادم أو مربية أو مرضع ، عيشها كله شقاء وعذاب وهى هدف كل لوم وعتاب ، ذلك لأن المومسات قد درسن علم الحياة الزوجية فاستملن الرجال إليهن ، على ماهن عليه من قحة وتبذل وسفاهة وقذارة وغير ذلك ، ولم تدرسه الزوجة فتباعد عنها الرجل وتفر منها ، مع ماهى عليه من عصمة وآداب وأخلاق وطهارة .

علم الحياة الزوجية

فما هو ذلك العلم الذى خرب دور الزوجات الشريفات لجهلهن إياه، وعمر دور العاهرات لمعرفتهن به ؟

هو أمور كثيرة ألخصها لك فى كلمات هى : معرفة كيفية استمالة الزوج لاغير ، وهو علم مختصر كما ترى من ألفاظه، إلا أنه فى الحقيقة وفى الوقت نفسه ، علم واسع لا يمكن معرفته إلا بدراسه علم النفس بفروعه كلها ؛ فإذا سألتنى كيف يتسنى إذاً لكل الزوجات أن يستملن أزواجهن طالما هذا يحتاج إلى دراسة علم دراسته وعرة الطرق ، قلت إن على الزوجة فى كلمة مختصرة أن تجعل نفسها عشيقة لزوجها لا زوجة له فقط، وأن تعامله معاملة العشيق لعاشقة. ومن أولى منها بذلك ! فتتدلل وتخضع، وترضى وتغضب ، وتستعطف وتتنكر، وتطلب وتمنع، وتحب وتنفر ، وتلين وتتصلب ، وتخالف وتوافق ، وتبكى وتضحك ، وتنوح وتشدو ، وهلم جرا . .

هذا هو علم الحياة الزوجية الذى أعنيه والذى أرى أن عليه المعول فى سعادة الحياة الزوجية . وإنى لعلى يقين من أنه إذا سارت الزوجة فى حياتها الزوجية على نحو ما قدمنا فإنها تستطيع أن تقود زوجها بلحظة من لحاظها ، وتجعله طوع أمرها وإشارتها بلفتة من لفتاتها .

وكيف لا يكون الرجل خادماً لزوجه وكيف لا يضحى حياته من أجلها مهما كان شريفاً أو وضيعاً، سفيهاً أو حليما، تحت أقدام هذه العاشقة المعشوقة التى بذل للحصول عليها دمه وماله، والتى يعلم أنها له وحده دون سواه ، وهو لها وحدها دون سواها ، بينما تراه يتفانى ويتهالك فى حب مومس ، يكون لها من العشاق عدد كبير ؟ هذا ما لا يتصوره عاقل قط .

وإنى - فى كل تعاسة زوجية ومخاصمة بيتية - لا ألوم إلا المرأة وحدها، لأنها هى السبب فى حدوثها ؛ ولا ألوم الرجل ، لأنه صعب على الرجل أن يقود امرأة ويجذبها إليه، إذا كانت هى لا تميل إليه من ذاتها ؛ وعلى العكس، فذلك سهل على المرأة . فالحياة المنزلية إذاً فى يد المرأة ، إن شاءت جعلت من الزواج نعما ، وإن شاءت صيرته موتاً أحمر .

وكثيرة هى نماذج الحياة الزوجية التى ترى فيها التعاسة مخيمة ، إذا فقدت الزوجة « علم الحياة الزوجية » ، وبالعكس فإن كل شقاء وعذاب وألم يصادفه الإنسان فى هذه الحياة من رجل أو امرأة، يتضاءل مفعوله إذا سكن كل زوج إلى زوجه: وهذا هو مفهوم الآية الكريمة « لتسكنوا إليهن » ، فعلى هذا العلم وحده تتوقف سعادة الحياة الزوجية ، لا على المال ولا على الجمال ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنما تنكح المرأة الثلاث إما لمالها أو لجمالها أو لدينها ، فعليك بذات الدين تربت يداك » ؛ والدين هو مجموعة الأخلاق كما تعرف .

وإنى أقص عليك الآن قصتين تعلم منهما ما لهذا العلم من الأثر فى الحياة الزوجية . ذلك أن صديقاً لى تشاجر مع زوجته وحمى بينهما وطيس الخصام حتى لم يبق أمل فى الصلح ، فسعيت للتوفيق من قبل الرجل فلم أفلح ، فلما أتيت إليه من قبل الزوجة ، وكنت قد أدليت إليها بشىء ، ما قد مضى من الأمور التى رجوتها أن تعمل بها ، لم يمض إلا يوم واحد حتى عادت المياه إلى مجاريها وكأن شيئاً من الخصام لم يكن ! فهل تعلم ماذا قلت لهذه الزوجة ؟ قلت لها : كونى له معشوقة فقط .

كذلك كان لى صديق تركته مدة طويلة ، فلما رجعت إليه وجدته قد تزوج ؛ وعرفنى بزوجته ، فلما رأيتها عجبت كيف يتزوج مثله مثلها ، وهو شاب ذو مركز عال وعمل كبير ، وهى تزيد عليه فى العمر وليس فيها من الجمال الظاهرى شىء ، ولاح لى أن حياتهما سعيدة ، فأردت أن أعرف الحقيقة ، فسألت صديقى عن حاله فأجابنى : « إن زوجتى ليست بمتعلمة ، ولكنى سعيد بزواجى منها ، لأن الحب بيننا متبادل » ، فعلمت أن جمالها باطنى لا ظاهرى .

وقد يقول البعض : إن الرجل لا يبتغى من الزوجة إلا الطاعة ، وفلانة مع أنها تطيع زوجها ولا تحرك ساكناً إلا بإذنه ، من أتعس الناس حظاً ، وبالعكس فإن فلانة هى الرجل وزوجها هو المرأة ، ومع ذلك فهى سعيدة فى حياتها الزوجية ؛ ولكن هذا القول لا يروقنى ، لأن المرأة ليست بخادم تؤمر فتطيع وتنهى فتنتهى ، بل هى ربة البيت ومالكته ؛ بل مالكة صاحبه أيضاً ، والطاعة العمياء ليست من شأن السادة ، إنما تكون لهم طاعة اختيارية مصدرها الحب وحسن المعاشرة . زد على ذلك أن الطاعة ليست كل ما يتطلبه الزوج فى زوجه ؛ وأولئكم الذين يستندون إلى الأحاديث النبوية والأقوال التى ترتبت عليها من أن الزوجة ليس لها إلا طاعة زوجها ليسوا على حق ، لأنهم فهموا الطاعة كما يفهمها الجهلاء . أما العارفون فيفسرونها على نحو ما فسر الحديث « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فقد فسره العارفون بمساعدة الأخ ، ظالماً بمنعه من الظلم ، مظلوماً برد عه عنه . فهكذا تفسر الطاعة هنا ؛ فقد تكون الطاعة أحياناً بإصلاح الزوج .

ومن الحكايات اللطيفة فى هذا الصدد أن عروساً لم يمض على زواجها إلا بضعة أيام حتى هجرها زوجها وانقلبت محبته لها بغضاً ونفوراً ، وصار يقضى لياليه خارج الدار ، ويأتى آخر الليل ، فتقوم هذه المسكينة له بكل خدمة وتحادثه وتؤانسه ، وهو شامخ بأنفه لا يرد لها سؤالاً ولا يعبأ بكلامها ، وهى تتأكل غماً وهماً من هذه الكارثة التى وقعت فيها ، إلا أنها كانت صابرة لا تظهر عليها أمارات شىء ، حتى طفح الكيل أخيراً ، وبلغ منها السيل الزبى ، فقصت القصة على والدتها وكانت عاقلة مدبرة وخبيرة علامة بعلم (الحياة الزوجية) ، فأمرتها ألا تلتفت إليه ولا تعبأ به فى المستقبل لبضعة أيام ، وألقت عليها بعض الدروس وأوصتها بأن تعمل بها ! فلما كان منتصف الليل وعاد زوجها وفق عادته ودخل الدار ، وجد زوجته نائمة ، فخلع ثيابه ونام هو

الآخر، ولكن فى دهشة من نوم زوجته على غير عادتها، وهكذا تناومت صباحاً حتى لبس ثيابه وخرج وهو لا يفكر إلا فيما حدث لزوجته من الانقلاب الفجائى ؛ فما كاد ينتهى عمله حتى عاد إلى الدار دون أن يذهب إلى مقهى أو ملهى ؛ فلما دخل الدار استقبلته زوجته بكل جفاء وكلمها فلم ترد عليه ، فاضطربت أفكاره وحار فى أمره ، فجعل يسليها ويداعبها ، وهى تزداد فى جفائها ، وزاد فى المداعبة فلطمته، وانحنى على قدميها يقبلهما وهو يقول: رحم الله أباك! لو أنك عاملتنى مثل هذه المعاملة منذ اليوم الأول لزواجنا، لما كان بى من حاجة للتردد على الملاهى.

الرجل كزوج

ومما تقدم يظهر أن الرجل - كزوج - لا يحتاج دائماً إلى لين وطاعة، بل يحتاج بعض الأحيان إلى شدة وغضب؛ ولست أعنى بهذا أن تقوم حرب داحس والغبراء بين الزوجين ليتم الصلح ويسود الوفاق ، وإنما كل ما أعنى هو أن تكون الزوجة عالمة خبيرة بما يجب أن تعامل به زوجها من الدلال .

وإنه ليعترينى العجب من أولئك النساء اللاتى لا يستطعن أن يستولين على أزواجهن بكلهم وجزئهم ، ولا أعدهن زوجات صالحات ، وإلا فكيف نتصور أن يكون لرجل زوجة يحبها وتحبه ، ثم نراه فى أوقات فراغه لا يميل إليها ، وإنما نراه حائراً تتقاذفه المقاهى والملاهى ؟ لماذا لا تسعى هذه الزوجة فتهيء لزوجها من الأمور ما تجعله يسكن إليها ولا ينظر إلى غيرها . أليس هذا عجزاً منها ؟ لنفرض أن زوجها يميل إلى لعب الورق ، فلتتعلمه هى أيضاً وتلعب معه ، أو لنفرض أنه يميل إلى الغناء ، فلتغن له ويغن لها ، وهكذا .

الخلاصة

والخلاصة أن على الزوجة ، إذا كانت تريد أن تكون زوجة بكل معنى الكلمة ، أن تجعل الرجل خاتماً فى يدها تحركه كيفما شاءت ؛ وليس هذا على القوة السحرية فى المرأة بعزيز.

ثم ماذا يجب عليها أيضاً لتكون سعيدة فى حياتها الزوجية؟ لا شك أن هناك أموراً كثيرة؛ فعلى الزوجة أن تقنع زوجها بأنها له وحده ، فلا تمازح أو تلاعب أو تداعب أحداً من أقربائها أو أقربائه أو أصدقائها أو أصدقائه ، إن كانت هذه المداعبات تثير فى زوجها الغيرة.

وعليها أن تندمج فى زوجها ، وتعد نفسها نفسه ونفسه نفسها، فى مالها وبدنها، وطعامها وشرابها، وأن تكون نظيفة الجسم والملبس، وأن تتزين له ما استطاعت، ولا تدع أمراً يسره من الأمور إلا فعلته ، وألا تظن كما تظن الجاهلات أن اللباس هو لأيام العرس فقط ، بل يجب عليها أن تتزين كل يوم بزى تتراءى لزوجها فيه كأنها فى يوم الزفاف، وأن تستقبله ببشاشة وتودعه بابتسامه ، وأن تستخلص لها منه وقتاً للخلوة يومياً، تذاكره فيه بكل حادثات يومه فتهون عليه

العسير وتفرج كربته وتشاركه أفراحه وأتراحه ، وألا تقص عليه من الحوادث البيتية مايكدر مزاجه ، وألا تصغره فى عين نفسه من حيث عمله وعلمه ، وأن تكون مقتصدة مدبرة ، ولست أعنى أن تقتصدهى ويبذر هو ، بل أن تقتصدهى وتعلم زوجها الاقتصاد وتحاسبه على المليم ، وأن تعتنى بنظافته وثيابه وكل أمور الرفاهية من تزيين شعر وحمام ، وأن تضطر إلى ذلك إذا أبى أو كان لا يعبأ بنفسه ، ولكن بطريقة زوجية لطيفة ، وألا تدع له من شك فى أن حياتها منوطة برفاهته وسعادته ، وأن تكسب قلبه لدرجة لايستطيع معها أن يمكث بعيداً عنها إلا للضرورة ، وأن تحاسبه على غيابه عنها وتعاتبه عليه بدلال ، وأن تخلص له ولا تكذب عليه فى شىء ، وألا تخفى عليه حالة من حالاتها أو أمراً من أمورها أو حادثاً وقع لها ، وألا تدع لحظة تفوت إلا وتكسب بها قلبه وتتغلب على لبه .

هذا مايجب أن تفعله المرأة لتكون سعيدة فى حياتها الزوجية ويكون الزوج سعيداً بها . فإذا قال قائل : لماذا ذكرت واجبات المرأة وتركت واجبات الرجل ؟ أجبت بما تقدم من أن المرأة أصل السعادة الزوجية ، وهى القادرة على تكييفها بأية كيفية شاءت ، وأما الرجل فمسكين ، ومسكين جداً ، لاسيما إذا حصل على زوجة من هذا النوع الذى ذكرته ، فحينئذ لايكون الرجل زوجاً صادقاً وخادماً مخلصاً ، بل عبداً مطيعاً أميناً لايحتاج إلى قيد أو شرط ، ينتظر الأمر لينفذه والحكم ليطيعه . وأى شأن للرجل أمام المرأة إذا كانت عالمة (بعلم الحياة الزوجية) ؟!

وأكرر قولى بأن الرجل رجل ، إلا أمام المرأة . وليست الحياة بعد الزواج ألماً وكدراً ، كما يتصور شباننا ، بل منتهى السعادة وغاية الراحة ، لا بل هى الجنة بعينها بما يتصور فيها من نعيم وسعادة ، وبألفاظ أخرى : إذا كانت الحياة الزوجية مبنية على تبادل الحب فهى كذلك ، وإلا فهى الجحيم بعينه ولا شك ، ولا يحق لنا أن نسميها حياة زوجية لأنها لاتكون إلا تمرينات حربية .

إحسان سامى حقى

عليكرة [الهند]

ضحايا محاكم التفتيش

من العلماء والمفكرين

للدكتور علي مظهر

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون أم هل « تستوى الظلمات والنور »

قرآن كريم

يموت من الناس المئات والألوف فلا يكاد يذكرهم إلا ذوو قرابتهم أو من كانوا فى جيرتهم ومن عرفهم ثم يتناساهم هؤلاء أيضاً بعد زمن وجيز.

أما إذا مات عظيم من العظماء أو كبير من الكبراء أو عالم من العلماء أو مفكر باحث غزير المادة قوى الجنان، فعندها يشعر الناس برنة الأسى والأسف تتردد فى الأرجاء دانيها وقاصيها، وتهتز أوتار القلوب حزناً، حتى قلوب من لاقرابة له به أو من لا لحمة نسب له به أصلاً، إلا صلة العلم والتفكير ونشدان المثل الأعلى للحياة الروحية، ولا يزال الناس يذكرون ذلك العظيم ويرددون اسمه.

والعظيم فى رأينا من أفاد الناس بتجارب علمه أو بما بذله من جهود صادقة لخير الإنسانية ومنفعة البشر، وضحى فى سبيل ذلك بقواه وما أوتى من بأس وما أنعم الله عليه به من نفيس فى هذه الحياة.

وكذلك قد رفع الله الناس درجات بعضها فوق بعض فى الحياة الدنيا، وجعل لهم منازل من الذكر الطويل والأثر الذى يمتد بعدهم إلى القرون وآلاف السنين بعد أن يستريحوا الراحة الكبرى.

والحق أن موت عالم كبير خسارة عظيمة دونها موت الألوف ممن عاشوا وماتوا ولم يكونوا إلا كأدوات متحركة إذا قاموا، أو خشب مسندة ونصب نخرة إذا قعدوا، وذلك راجع إلى أن تكوين عالم يحتاج إلى مجهود كبير حتى يصل إلى درجة من العلم، دع عنك ما يجب أن يكون له من استعداد للنبوغ أو ميل إلى التفكير والبحث.

وأيسر لك أن تجد الألوف من الأكرة ومئات الألوف من العمال وصغار الكتبة فى الدواوين والمكاتب، من أن تعثر على عالم أفاد الإنسانية كإديسون مثلاً، أو فيلسوف ككانط. ومن السهل

أن تلد الأمهات أولاداً لا يصلحون إلا للأعمال العادية فى الحياة من أن تلد الأمة بأسرها واحداً كمن ذكرنا يكون له مثل ذلك الجلد والصبر على التعليم والعمل والتفكير والاختراع وعلى إخراج ما بعقله من كنوز وما بذهنه من عصير يكون فيه الشفاء للناس والنفع للبشر .

والعلماء والمفكرون للناس عامة لا لأوطانهم التى ينسبون إليها . فهم حق مشاع للإنسانية تنتفع بمجهوداتهم ، وما أوتوا من نبوغ ومارزقوا من جلد وصبر للوصول إلى ما يمكن الوصول إليه بعد البحث والتفكير .

والعلماء والمفكرون للناس عامة لا لبنى ملتهم ودينهم فحسب الذى ينتمون إليه أو ينسبون له ، فأيما عالم ظهر فى بلد ماجد إليه الطلاب من أقاصى البلدان ومن شتى الأديان للانتفاع بمواهبه وسماع ما يفيض به على الناس فى درسه ، وإذا ما احتفل به لمناسبة ما ، اشترك فى الاحتفال صنوف شتى من الناس لا يفرقهم دين أو مذهب لتكريم ذلك العالم . وإذا ما حل به رزء أو قضى أيامه فى هذه الحياة ، حزن الناس لمصابه وجزع الخلق من مصابهم فيه . ولا زلنا فى حاجة إلى دليل على ذلك ، فالأدلة عديدة حتى إنا لنرى من فضول القول الإتيان بشىء منها .

لهذا يرى الناس أن من العار على رجال التفتيش أن فعلوا ما فعلوا بالعلماء والمفكرين ، سيان كانوا من مسلمى جزيرة أيبريا أو من غيرهم ممن اعتنقوا ديانات أخرى ، إذ كان رجال التفتيش يضطهدون العلماء ويذيقونهم مر العذاب ويحرقون كتبهم ويكسرون أدواتهم ويحطمون بقاياهم ويضيقون على المفكرين ويدخلونهم السجون ويأمرون بحرقهم أحياء ، لا لسبب جنوه إلا أنهم بحثوا فى الفلك والحساب والطب ، أو أنهم درسوا الفلسفة والآداب ، أو قالوا برأى لا ينطبق وما رسخ فى عقول رجال التفتيش .

والغريب أن أولئك القساوسة الجهال المتعصبين عن ضلال وقلة معرفة ودراية ، فعلوا ما فعلوا بالمسلمين واليهود والمسيحيين أنفسهم فى أوروبا . ولما ذهبوا إلى أمريكا حرقوا نيفاً وأربعة آلاف كتاب دونت فيها علوم (المايا) وهم قوم من الهنود الحمر كانت لهم حضارة ولا زالت آثارهم تحدث من يراها بما كان لهم من قدم ثابتة فى العلم والعرفان ، مئات بل ألوف السنين فى أمريكا الوسطى . وبحرق أولئك القساوسة لتلك الكتب والمجلدات قضوا على حضارة المايا فى أمريكا الوسطى كما قضوا على حضارة المسلمين فى غرب أوروبا ، ولم يبقوا منها إلا آثاراً تنعى من بناها ، ومخلفات تشهد بنبوغ أصحابها .

كان (جوردانو برونو) عالماً فلكياً ظهر أثناء القرن السادس عشر الميلادى ، وقد مهد السبيل لمن جاء بعده من العلماء وأرباب الأرصاد وعشاق الفلك . قال جوردانو بدوران الأرض حول محورها وحول الشمس ، وذكر أشياء عن الكواكب السيارة ، وكانت له آراء فى عدم التناهى وامتداد

اللانهاية . وكانت هذه الأقوال والآراء تخالف آراء الكنيسة وتناقض أقوال رجال الكهنوت وقساوسة التفتيش،ولهذا قبض عليه رجال الديوان الذى كان فى مدينة البندقية (فينسيا)،وأمروا بسجنه سنتين،ثم سلم إلى ديوان التفتيش الرومانى فحكم عليه بالحرق حياً فى الساحة العامة، ونفذ ذلك الحكم الوحشى سنه ١٥٩٨م (١٠٠٦-١٠٠٧ هـ) أيام البابا اكليمنصوس الثامن.

وفى ذلك القرن المذكور ظهر العلامة (دولت) وكان أيام (جوردانو)،واشتغل بالفلك والطباعة وقد تعلم بباريس وپادوا وفى طلوشة (تولوز بفرنسا) .

وقبض على دولت وزج به فى السجن وعمره أربع وعشرون سنة،وذلك لأنه طبع بضعة أوراق فى المطبعة ومهرها باسمه ذكر بها بعض آراء فلسفية ، وقال بوجوب البحث فى أسرار الكون والخليقة،ثم أطلق سراحه بعد أن تشفع له أسقف ايكس،ولكن الديوان تعقبه وتتبعه ثم صدر أمر مجلس النواب بنفيه سنة ١٥٣٣ م توافق سنة ٩٤٠-٩٤١هـ ، فسافر إلى ليون وأذن له سنة ١٥٣٥م (٩٤٢-٩٤٣هـ) بطبع كتاب أسماه (بحث فى اللغة اللاطينية) .وأحاط به جماعة لقتله فدافع عن نفسه وقد أحاطوا به وهم شاهرون خناجرهم وقتل واحداً منهم وقبض عليه وزج به فى السجن المظلم ، وكانت ملكة نبرة (نافارا) معجبة بعلمه وتفكيره وكانت ، تعلم أنه مظلوم فسعت حتى استصدرت أمراً من الملك بالإفراج عنه سنة ١٥٣٧م (٩٤٤-٩٤٥هـ) فعاد (دولت) إلى طبع الكتب الفلسفية والعقلية ،فهال ذلك رجال الكنيسة فقبض عليه سنة ١٥٤٢م بتهمة الزندقة والإلحاد وزج به فى سجن ديوان التفتيش خمسة عشر شهراً فى باريس،وما زال يقبض عليه ويطلق سراحه حتى قبض عليه أخيراً وجىء به إلى مدرسة اللاهوت بباريس،واجتمع القساوسة وحكموا عليه بالإلحاد والكفر، لأنه قال بوجوب اتباع فلسفة أفلاطون،واتهم بتهمة إحداث ثورة فى البلاد وخلع الملك ، ولم يغن عنه دفاعه فحكم عليه بالموت ، فشنق فى السجن وجىء بجثته وأحرقت فى أحد الميادين هناك ، وكتبه معه،وصودرت ممتلكاته وكتبه،ولاقت زوجه وولده الصغير ما لاقيا من بؤس وشقاء .

أما (فيانينى) فكان مفكراً وفيلسوفاً له آراء فى الإلهيات والمادة ، وله أقوال ونظريات فلكية ،وكان من جماعة الماديين ، وقد قبض عليه وحكم عليه فى باريس بقطع اللسان،ثم بالإحراق وهو على قيد الحياة، وقد تم ذلك سنة ١٦١٩ م (سنة ١٠٢٩هـ) .

وإليك نهاية عالم أخر : (دميان دى كيز) المولود فى المخير بالبرتقال سنة ١٥٠١م،وكان يشبه لوثر فى روحه وخروجه على التقاليد القديمة ، وقد عين فى عدة وظائف بالحكومة البرتقالية حتى عين سفيراً لها فى هولاندا سنة ١٥٢٩ م (سنة ٩٣٦ — ٩٣٧هـ) ، وكانت أمه هولندية ،ثم استدعاه ملك البرتغال وصار كاتبه الخاص .

وحدثت بينه وبين أحد الكرادلة مناقشة فلاحظ الأخير عليه أنه لا يعتقد كثيراً فى عصمة الكنيسة الكاثوليكية، فشكا أمره إلى الملك ففصله من خدمته وعين آخر بدلاً منه. ولم يلبث أن اتهم بالإلحاد والزندقة فزج به فى سجن التفتيش، وقيل إن القمل غطى جسده وأكله حياً، ومات فى سنة ١٥٧٢ م (٩٧٩ — ٩٨٠ هـ)، وصادر الديوان كل ماله وضمه إليه.

وجاهرت سيدة تدعى بالسيدة (هابيتيا) — وكانت على درجة من العلم والتهذيب كبيرة — بأفكارها الحرة، فقبض عليها وهى فى الكنيسة، وانهالوا عليها ضرباً حتى فاضت روحها وأمر القساوسة الجلاد بقطع جسدها أربعة أجزاء ففعل ذلك بفأس!! وقيل إنهم أطعموا القطع لكلاب المدينة.

أما (جاليليو) فله ذكر كبير عند أرباب الفلك والمشتغلين به، فقد كان عالماً كبيراً وفلكياً له أبحاثه وآراؤه فى الفلك والسيارات وحركاتها ورصدها وله تواليف فى علم الفلك والهندسة.

استدعى رجال التفتيش (جاليليو) سنة ١٦٠٥ م (١٠١٤ — ١٠١٥ هـ) وعدوا مؤلفاته الخاصة بدوران الأرض وما شاكل ذلك من أعظم الأعمال الإلحادية التى ليس بعدها من كفر، وأن آراء لوثر نفسه لا تعدل ما يراه هو، وحكمت عليه محكمة التفتيش بالسجن مع التعذيب، فعلق الحديد بعنقه وتولى جلادون تعذيبه، ولما مثل أمام هيئة المحكمة جيء به عريان حافى القدمين، ولكنه لم يرجع عن رأيه وربط إلى الجحش الخشبى وجلد وألبس فى رجليه حذاء حديدياً محمى له مسامير، وعذبوه حتى غلبه الألم فعدل عن رأيه ليرحموه فكفوا عنه العذاب ولكنه عاد وقال به مرة أخرى فأعادوا تعذيبه وسجنه، ولم يشفقوا بشيخوخته وألزموه أن يعترف من مخبأ كتبه لحرقها وفرضوا عليه قراءة سبعة مزامير كل يوم كفارة عن خطاياه!!

ورأى البابا اكليمنصوس السابع أن يطلق سراحه لئلا يقضى وهو فى سجونهم فيتخذ البروتستانت فى ألمانيا وانكلترا موته ذريعة للتشهير بالكنيسة، نظراً لبعد صيت جاليليو، وقد أجبر على أن يتعهد بعدم طبع كتبه الإلحادية فخرج وهو يخشى أن يعود إلى السجن.

وطورد الكونت (جيوفانى بيكو دللاميراندولا) وكان أميراً إيطاليا، وكان له ولع بدراسة العلوم والفلسفة، وكان مفكراً كبيراً، وقد ذاع ذكره وهو فتى صغير لبراعته فى العلوم براعة خارقة للعادة. وخشى بابا ذلك الحين منه ومن تفكيره ومن نظرياته وآرائه، وخشى أن يؤدى ذلك إلى هدم الكنيسة وإسقاط هيبتها من نفوس من اتبعوها وصدقوا كل ما قالت من غير تفكير أو بحث. وألفت لجنة لبحث آرائه فى الدين والعلوم والفلسفة وما أذاعه من آثار تفكيره، فرأى القساوسة أعضاء اللجنة أن آراءه كبيرة الخطر على الكنيسة وأن بها كفراً ومروقاً

عن آراء الكنيسة . كان كل ذلك وهو الشاب الذى لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره، ورد على قرار اللجنة بكتاب سنة ١٤٨٦ م ٨٩١ هـ يبرر فيه ما قاله وما فكر فيه . ورأى أن الخير فى أن يذهب إلى إسبانيا، ونما الخبر إلى البابا فخشى أن يذيع الشاب آراءه ونظرياته فى تلك البلاد، فكتب البابا لملكى إسبانيا (فرديناند وإيزابلا) بذلك، وأن الشاب كافر خطر، وأمر الملكين بالقبض عليه ومحاكمته أمام محاكم التفتيش . فاستعد الملك وسنحت فرصة للديوان لشحذ خناجره وآلات تعذيبه تأهباً للتشفى من المفكر الفيلسوف ؛ وعلم هو بذلك فعدل عن السفر إلى إسبانيا واتصل بآل مديشى بغير سابقة وكانوا حماة العلم والأدب فى إيطاليا أيامئذ، وعين أستاذاً للفلسفة هناك ونشر كتباً ورسائل، وتوفى صغيراً سنة ١٤٩٤ م التى توافق سنة ٩٠٠-٩٠١ هـ

وليس من قصدنا أن نأتى على ذكر كل من وقع فريسة لرجال التفتيش من العلماء والمفكرين ولكننا قصدنا إلى ذكر أمثلة قليلة لما كانت تفعله محاكم التفتيش من مآثم لا تعد ولا تحصى.

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه إذا ما وقف أحد العلماء أو أحد المفكرين الأحرار أمام محكمة التفتيش فإنه كان يجب عليه أن يخبر المحكمة عن آله وأصدقائه وعن كل انسان يظن أنه على شاكلته فى الرأى، وعن أماكن وجودهم وعن الكتب التى يطالعونها وعن مصادرها وعمن باعها لهم وعن أماكن اجتماعهم وعن محافلهم .

وبعد المحاكمة يؤخذ المسكين فتنفذ العقوبة التى كان رجال التفتيش يتفننون فى كيفيتها أيما تفنن، من ملء البطن بالماء ونخس المعذب بالدبابيس وحرق القدمين وتفتيت الأعضاء وتكسيرها وتمزيق الأعضاء والدفن على قيد الحياة وما عرف بجزاء العنيدات وحرق الجسم كله فى ميدان فسيح أمام الجماهير وغير ذلك مما قد نعود إلى البسط فى ذكره فى فرصة أخرى. وقد ظل ذلك الديوان قائماً فى إسبانيا وبلاد البرتقال وغيرها زهاء أربعمائة سنة دون انقطاع؛ وقد خضدت شوكته فى أوائل القرن التاسع عشر عقب الثورة الفرنسية والأمريكية .

ولا نحب أن ننسى ذكر ما أحرقه جماعات الوحوش المتبربرين من مئات المجلدات وآلاف الكتب التى أنتجتها عقول العلماء والمفكرين فى جزيرة أيبريا وغيرها، وما رموا به إلى البحر والنهر فذهبت تلك المؤلفات الثمينة طعمة للنيران وللمياه، ولم ينتفعوا هم بها ولم يتركوا غيرهم بها ينتفع . ولو أن تلك المؤلفات أو بعضها وصل إلينا لوصلنا علم وفضل غزير، ولكنها هى العقول الطائشة والأدمغة الفارغة من التقدير الصحيح للعلم والأدب؛ تقضى فى سويعات على ما قضى فيه العلماء القرون ومئات السنين فى التأليف والتحبير لفائدة الإنسانية وخير البشر .

على مظهر

فى التاريخ القديم:

كيف أصبحت روما سيدة ايطاليا؟

بقلم المؤرخ الانكليزى ماندل كريجتون

لم يكن باستطاعة روما طوال فترة الصراع بين الدخلاء والوطنيين ، أن تصبح أمة ماجدة الذكر رفيعة القدر ، ولو أنها ذهبت بعيداً فى جعل نفسها مهوبة الجانب حامية الشوكية داخل حدود البلاد الايطالية . وكما قدمنا فى العدد الماضى ، كانت بسالة الدخلاء فى محاربة أعداء روما سبباً من الأسباب التى جعلت الوطنيين يرضخون لمطالبهم فى النهاية .

وجدير بنا ـ لكى نستطيع أن نستوعب جيداً حروب روما ـ أن نستوعب أولاً طبيعة الأقوام التى كانت تحوطها من جميع الجهات ؛ وأحسب أنك ما تزال تذكر أن فى أسفل نهر الألب كانت تجد بلاد الغالة ، وعلى امتداد الشاطىء الغربى (شمالى روما) كانت توجد (بلاد الطسقان) ، وعلى الشاطىء الشرقى (جنوبى روما) كان عديد من المدن الزاهرة ، أسسها واستقربها بعض المهاجرين من (الإغريق) ، وعلى امتداد ساحل جزيرة (سيشل) كانت توجد مدن إغريقية كبيرة ومثرية ، أما باقى إيطاليا فكان مقام قبائل لاتينية قحة ساذجة ـ منها قبيلة اللاتين التى كانت تحيط بروما ـ تختلف اختلافاً كبيراً عن بعضها البعض فى العادات والأخلاق ؛ وكانت هناك أيضاً بعض قبائل شغوفة بالحروب تسكن وديان (الإبنين) ، فكانت القبائل اللاتينية تخاف بأسها وتخشى سطوتها كثيراً .

حروب الرومان الأولى:

نحن الآن فى عام ٤٩٤م ، وقد عقد المستشار (سبيريوس كاسيوس) بين روما واللاتين تحالفاً انضمت إليه بسرعة قبيلة (الهرنيين) ، وبدأ الحلفاء الثلاثة يسلحون أنفسهم ضد أعدائهم ، وكانت روما غير موفورة القوة بادىء الأمر ، فقد انشغلت حتى سنة ٤٠٥م بمقاتلة قبيلتى (الآك) و (الفولسكا) اللتين كانتا تقطنان بجوارها . ونحن لا نعرف عن هذه الحروب إلا النزر اليسير ، الذى لا يعدو حكايتين عن هذه الحروب لا بأس من ذكرهما .

حكاية كايوس ماركوس كاريولينوس :

تريك حكاية هذا الرجل كيف أن الصراع الداخلي قد أضعف روما كثيراً، وتريك أيضاً كيف تعلم الرومان إطاعة الآباء ، فقد كان (كايوس) هذا جندياً كبيراً من الوطنيين الذين ترأسوا الجيش الروماني أثناء محاصرته مدينة من إقليم الفولسكا اسمها (كوريوللي)؛ فلما خرج أهل (فولسكا) لمقاتلة الرومان كان القتال في صف العدو فتقهقر ، فأغرت الهزيمة (كايوس ماركوس) على أن يتبعهم بمفرده إلى كوريوللي ذاتها، فلم يشعر إلا وقد غلقت عليه أبواب المدينة وهو وحيد بين الأعداء، وكان المنتظر أن يسقط في يده فيستسلم للقضاء، ولكنه كان شجاعاً إلى حد أنه دفع الفولسكيين كلهم من لدن الأبواب وفتحها بيديه على مصراعيها للجيش الروماني الذي كان قد أدركه ، وعلى ذلك سقطت (كوريوللي) في أيدي الرومان، وأعطى لقب (رجل كريولينوس) مكافأة له على شجاعته الفائقة وإقدامه النادر.

عود إلى الوطنيين والدخلاء :

حدثت بعد ذلك في روما مجاعة كبيرة وسادها قحط شديد، فلما جاءتها نجدة الحبوب من (سيشل) أراد مجلس النواب أن يبيعها (الدخلاء) الفقراء بثمن يطيقونه ؛ ولكن (كايوس ماركوس بطل القصة السابقة قال : «دعوهم بلا حبوب حتى يخضعوا لكلام الوطنيين » ، فلما سمع الدخلاء ذلك ثاروا وغضبوا وقدموه للمحاكمة أمام (الوكيلين) ، وأدرك (كايوس) أن إدانته ستثبت لامحالة، فهرب لاجئاً إلى ملك (فولسكا) وعرض عليه أن ينخرط في خدمته ضد الرومان، فأعطاه ملك فولسكا جيشاً كبيراً سار به قاصداً (روما)، ووصل ذلك إلى علم الرومان فتوجسوا خيفة وأرسلوا إليه في طلب الصلح: أرسلوا إليه بادىء الأمر كبار رجالات مجلس النواب، لكنه رفض أن يصغي إليهم، ثم أرسلوا إليه القساوسة ومعهم صور مختلف الآلهة ، فلم يصغ إليهم أيضاً ، وهنا أسقط في أيدي الرومان، ويئسوا من الوصول إلى سبيل للنجاة من هذا المأزق، وأخيراً قال واحد منهم : «ربما جاز أن يقبل ضراعة أمه وزوجه»، وصادف هذا الرأي قبولاً ، فذهبت إليه أمه وزوجه وأطفاله وعديد من كبيرات العقائل في ثياب الحداد، فلما رأى أمه أسرع لمقابلتها، ولكنها قالت له: «لا تقبلني حتى أعرف ما إذا كنت عدواً أم ابناً»، فارتبك ولم يحر جواباً، وأزاء ذلك خرت أمه وزوجه وأطفاله على ركبهن وصرن يتوسلن إليه أن ينقذ روما، فبكى وقال لأمه: «أمي.. إن هذا لنصر كبير لك ولروما، ولكنه خراب كبير وعار عريض لولدك»، ثم تركها وبدأ يعود بجيشه من حيث جاء، وبذا نجت روما ؛ ولم يلبث إلا قليلاً بعد ذلك حتى توفي بين (الفولسكيين) .

حكاية (لوسيوس كوينكتيوس سينسينيتوس):

وهى حكاية أخرى كان يتناقلها الرومان عن حرب لهم مع (الآكويين)، ومنها نستطيع أن نرى كم كانت عاداتهم بسيطة،وكيف أن جميع المواطنين كانوا يخدمون الولاية تاركين أشغالهم الخاصة إذا اقتضى الأمر: كان المستشار (مينيوسيوس) يحارب (الآكويين) حتى سدوا عليه المسالك على شفا جرف واد ضيق رأسى الانحدار، وقفوا على (فه) حتى لا يمكنه الخروج منه، وجاءت الأخبار إلى روما بهذا، فقال أحد أعضاء المجلس أخيراً: «ليس هناك إلا رجل واحد هو الذى يستطيع إنقاذ الموقف،هو (لوسيوس كوينكتيوس)،فلنجعله ديكتاتوراً حتى تضع الحرب أوزارها. فكانت موافقة من الجميع؛ فأرسلوا إليه رسلاً وجدوه يحرث -بغير عباءته- مزرعته التى يعيش عليها، فلما أن رآهم نادى على زوجته لتحضر له عباءته، حتى يظهر احترامه للرسل. فلما أخبروه بأن المجلس انتخبه ديكتاتوراً ترك الحراث فى الحال وجاء معهم إلى روما حيث أمر كل من يستطيع حمل السلاح أن يستعد وينتظم فى سلك الجيش، على أن يحضر معه ما يكفيه من المئونة واثنتى عشرة عصاً؛ وإذ تم له ذلك سار بجيشه حتى شارف الآكويين ليلاً؛ وأمر جنده فأصدروا صيحة عالية أفرحت المستشار ورجاله، إذ علموا أن النجدة قد جاءت، ثم حاصر الآكويين وأمر رجاله أن يحفروا خندقاً حولهم، وأن يجعلوا من عصيهم التى جاءوا بها كومة عالية على حد الخندق؛ وفعل الرومان كل ذلك ليلا، فلما أصبح الآكويون وجدوا أنهم أصبحوا محاصرين بعد إذ كانوا حاصرين، فأسقط فى أيديهم وسلموا للدكتاتور، ونجا المستشار وجنده، وعاد لوسيوس إلى روما منتصراً، ولكنه ترك ديكتاتوريته فى الحال وعاد إلى مزرعته.

وكثيرون هم أمثال (لوسيوس كوينكتيوس) ممن كانوا يتركون مزارعهم ليصبحوا ديكتاتورين إذا دعت إليهم حاجة الولاية، فإذا قضيت الحاجة عادوا إلى مزارعهم ومحاريثهم، وهو هذا الصنف الذى أكسب روما المعارك، وهو الذى خلق لروما عظمتها.

روما والطسقانيون:

تعبت روما من تلك الحروب مع (الفولسكا) و (الآك)، ولكنها لم تكن فى الحق حروباً كبيرة، وكان مازال عليها رغم تعبها أن تراقب أعداءها الأقدمين من الطسقانيين، ولعلك ما تزال تذكر أن مدينة روما إنما أنشئت لتستطيع فحسب أن تمنع اعتداء الطسقان على اللاتين، الذين كانوا أقواماً عظيمة، عاشت فى المدن وبنت المبانى الكبيرة وصنعت كثيراً من الأشياء الجميلة وتاجرت كثيراً وبنجاح؛ وكانت لهم سفن تجارية وحربية، وكانوا فى الأيام الأولى هم والقرطاجانيون

سادة البحر الأبيض المتوسط ؛ إلا أن الأغارقة من سيشل وإيطاليا ، رغبوا فى أن يتاجروا أيضاً بهذه المياه، فحاربوا الطسقانيين والقرطاجانيين،وهزموا الطسقانيين فى معركة بحرية كبيرة عام ٤٧٤ق . م . وفى نفس الوقت هاجم الغاليون الطسقان من الشمال ، فارتبك الطسقان وبدأت قوتهم تنقلب ضعفاً، فلما رأى الرومان منهم ذلك هاجموهم من الجنوب وبدءوا عام ٥٠٤ق.م حصار أقرب مدينة طسقانية إليهم وهى مدينة (فيى)،واستمر الحصار عشر سنوات وأخيراً سقطت فى يد القائد الرومانى الكبير (ماركوس فيوريوس كاميليوس)مع عدة مدن طسقانية ضمت إلى روما حتى وصلت الحدود الرومانية سهول (الكامبنيا) .وقد عرف عن هذا القائد أنه كان رجلاً شريفاً فى القتال ، فقد حدث مرة وهو يحاصر(فاليردى)أن جاء إلى معسكره مدرس فى المدينة ومعه صبية،هم أبناء أكبر مواطنى تلك المدينة ؛ جاءله بهؤلاء الصبية على أنهم إذا صاروا فى قبضة يده فإن أهليهم يرغمون على التسليم له ، ولكن كاميليوس غضب غضبة شديدة من هذا المدرس الخائن الدنىء ، وشد يديه إلى ظهره ثم أسلمه للصبية وأمرهم أن يعودوا إلى المدينة ويقصوا على أهليهم قصة هذا المدرس اللعين ؛ فلما عرف آباؤهم هذا ، ظنوا فى الرومان أحسن الظن،وهان عليهم أن يسلموا لقائدهم باختيارهم ومن تلقاء أنفسهم .

الغاليون يهزمون الرومان

ولكن ما أسرع ما لحقت بالرومان هزيمة منكرة ؛ ذلك أن (الغاليين) كانوا هم الآخرين يهاجمون (الطسقانيين) من الشمال، بينما كان الرومان يهاجمونها من الجنوب ،فلما رأى الرومان ذلك حاولوا أن يساعدوا عليهم الطسقانيين، وشعر الغاليون بذلك فساروا إلى الرومان وهزموهم هزيمة بالغة على نهر (الأليا) سنة ٣٠٩ق م،وتقدموا إلى روما ذاتها .

الغاليون يأخذون روما :

فقد الرومان فى المعركة كثيراً من رجالهم حتى إنه لم يبق لديهم أى أمل فى حماية روما ذاتها!فلما رأى الرومان من الأهالى ذلك هربوا كلهم إلا نزراًيسيراًمن أشجع الجنود ، أغلقوا الكابتول عليهم - وكان الكابتول هذا أحصن قلعة بروما - عازمين على ألا يسقط الكابتول مابقى فيهم نفس يتردد،وبقى فيه أيضاً قليل من الوطنيين الكهول الذين صمموا على ألا يغادروا فى كبرهم مدينة عاشوا فيها طوال حياتهم،فألبسوا أنفسهم أحسن ماعندهم من ثياب وجلسوا صموتاً على المقاعد فى مجلس النواب !فلما اندفع الغاليون إلى المدينة ولم يجدوا بها أحداً إلا هؤلاء الأشياخ الذين جلسوا صموتاً ،دهشوا لذلك وحاروا، من يحاربون؟ وماذا يفعلون؟والمدينة خالية إلامن هؤلاء الأشياخ؟وأخيراًبدأأحد هؤلاء الغاليين يعبث بشعرات ذقن قسيس يدعى (ماركس پابيرس)فغضب القسيس لهذا الاعتداء وضرب العابث بصولجانه العاجى الذى كان ممسكاً به فى يده ، وكان هذا

كافياً لأن يندفع الغاليون على الأشياخ فيقتلوهم ويشعلوا النار فى المدينة . وحاول الغاليون بعد ذلك أن يأخذوا الكابتول ، ولكنهم لم يصلوا إلى أية طريق يصعدون منها له ، لأن الصخرة التى أقيم عليها كانت رأسية الانحدار ؛ وكشفوا لها أخيراً عن طريق ، وفى ذات ليلة تسللت عصابة منهم تصعدها فى منتهى الصمت لئلا يشعر بهم أحد من الرومان . وكان فى الكابتول بعض الأوزات ، منذرة إلى الإله (جونو) ، فلما كاد الصاعدون يصلون إلى القمة ، بدأت الأوزات (تصيح) فاستيقظ رومانى شجاع هو (ماركوس مانليوس) فى الوقت الذى كان فيه طليعة الغال على وشك الانتهاء من تسلق الصخرة ، فلما رآه دفعه إلى أسفل بدرعه فسقط إلى الأرض فوق كثير من الذين كانوا ينتظرونه ، ثم استيقظ الرومان كلهم على الضجة الحادثة ، وكان لهم من الوقت ما أعانهم على طرد الغاليين كلهم ، وبذا أنقذ الكابتول ؛ فلما رأى الغاليون أن سقوط الكابتول مستحيل عادوا إلى بلادهم ، مكتفين بما حملوا معهم من الغنائم والأسلاب .

آثار حرق روما:

وهو غزو روما وحرقها هذا ، الذى جعلنا لانعرف عنها من الأخبار الصحيحة فى تاريخها القديم إلا النزر اليسير ؛ فقد كان القسس فى تلك الأيام يكتبون مذكرات بكل ما يحدث عاماً بعد عام ويحتفظون بها فى المعابد والهياكل ، وقد أحرق الغاليون المعابد فلا بد أن تكون كل هذه المذكرات أحرقت معها ، وكذلك السجلات الرسمية . ونحن فى الحق لانستطيع أن نجزم قطعاً بأى خبر قبل هذا التاريخ ، ولكننا نستطيع الفصل فى صحة الأخبار بعد ذلك ، لأن الأشياء بدأت مصادرها تتأكد وتتعدد ، كما بدأنا نعرف كثيراً من الأشياء التى كان يعملها الرومان معرفة حقيقية لا شك فيها.

ماركوس مانليوس والوطنيون

وعاد الرومان بعد جلاء الغال ليجدوا مدينتهم خربة ، فيتحدثوا بادىء الأمر فى تركها والذهاب للإقامة فى مدينة (فِي) ، ولكن (كامليوس) يغريهم على أن يبقوا بها ويبنوا مدينة جديدة بدلاً منها . وكان هذا عبئاً ثقيلا ألقى على عاتق الدخلاء الفقراء ، وواجباً عانوا من جرائه شقاء كثيراً ، واستدانة فاحشة ، حتى لقد حدث ذات يوم أن اقتيد إلى السجن جندى شجاع لعجزه عن دفع دينه ، وسمع بذلك ماركوس مانليوس الوطنى الذى أنقذ الكابتول فحزن لذلك ولم يسعه إلا أن يدفع الدين نيابة عنه وبذلك أنقذه ؛ وآلى مانليوس على نفسه ألا يترك دخيلا يلقى إلى غيابة السجن فى نظير دينه مادام فيه نفس يتردد وما دام عنده ولو القليل من المال ، فأحبه الدخلاء من أجل عاطفته النبيلة هذه ، وتخوف منه الوطنيون كثيراً ، فاتهموه

بأنه يحاول أن يعيد الملكية وحكموا عليه بالإعدام سنة ٣٨٣ ق م ، ومن هنا تعلم الدخلاء أن ينظروا إلى وجود القوانين التى تحميهم، لا إلى وجود الرجال الذين يحمونهم .

نتائج مجىء الغال:

ولم يكن غزو الغال لروما بلاء حقيقياً كبيراً ؛ حقاً لقد عانوا منه كثيراً ، ولكن ليس بالقدر الذى عاناه (الآكويون) أعداؤهم الأقدمون ، والذين - منذ غزو الغال لهم - لم يعاكسوا الرومان مرة أخرى، فضلا عن أن الرومان قد تعلموا كذلك أن يحسنوا جيوشهم، وأن يكونوا أكثر حذراً فى المعارك ، وكان من عادة الغاليين أن يخرجوا من بلادهم على امتداد نهر (البو) عاماً بعد عام ، ليعتدوا على البلاد التى يمرون بها ويعيثوا فيها مفسدين وغانمين أسلاباً . ولكن الرومان تعلموا من هزيمتهم الأولى، فما عادوا يخرجون لمقابلتهم فى سرعة وطيش واندفاع، بل كانوا يرجعونهم قليلاً قليلاً حتى خاف الغاليون أن تنتهى بهم القهقرى إلى داخل بلادهم ؛ وبعد عام (٣٥٠ ق . م) لا نسمع بغزواتهم لروما ، وصارت القبائل تنظر (إلى روما) بعد إذ ازدادت قوتها وقويت شوكتها بحروبها معهم ، على أنها حاميتهم .

بداءة الحروب السمنية :

سحق الغاليون - إلى جانب الآكويين - كثيراً من القبائل الإغريقية التى كانت تسكن المدن الواقعة جنوبى روما فى الإقليم المسمى إقليم (كامبانيا) ، وكانت هذه المدن غاية فى الضعف ، وفى نفس الوقت غاية فى الثراء ، حتى إنه عند ما جلا عنها الغاليون ، هاجمتها قبيلة لاتينية تسمى (قبيلة السمنية) ، كانت تعيش فى جبال الإبينين وسط إيطاليا ، وأتلفت تلفاً هائلا مدينة (كابيوا) ، فأرسلت الأخيرة إلى روما فى طلب النجدة سنة ٣٤٣ ق م، وأنجدتها روما فبدأت الحروب السمنية التى دامت أكثر من خمسين عاماً، أى إلى عام ٢٩٠ ق م، وهى نتيجتها التى كانت ستقرر ما إذا كان سيقدر لروما أن تحكم إيطاليا كلها أم لا .

كان (السمنيون) أضخم أعداء روما وأشجعهم ، وما لبثت الحرب السمنية الأولى أن انتهت دون أن يكون لها نتائج خطيرة ، وكان كل من الطرفين راغباً فى عقد تحالف ، وخاصة روما التى كانت فى ذلك الوقت قد بدأت تخاف عداوة أحلافها (اللاتين) .

حرب اللاتين :

والآن بعد إذ رحل الغاليون عن اللاتين ، لم يرد اللاتين أن يظلوا تابعين للرومان

فأرسلوا إلى الرومان سنة ٣٤٠ ق م يطلبون منهم مساواتهم بهم ، ولم يعترضوا على بقاء روما عاصمة الحلف ، إلا أن مجلس النواب يجب أن يضاعف عدده ويجب أن يكون هناك مستشاران من اللاتين كما يوجد مستشاران من الرومان . ولكن لم يوافق الرومان على هذه المطالب ، فنشأت حرب اللاتين الكبيرة لتقرر أى المتحاربين هو الذى سيحكم الآخر ؛ ودامت هذه الحروب ثلاث سنوات (٣٤٠ — ٣٣٨) وكانت شديدة جداً وقاسية للغاية . وكانت كبرى معارك الحرب عند سفح جبل (مونت فيزيوس) ، وكان النصر فيها مشكوكاً فيه لمدة طويلة ، ولكن المستشار الرومانى (ديسيس مس) ألهم أن الجانب الذى سيفوز هو الذى يقدم قائده نفسه للموت ، ومن ثم فقد غطى رأسه بعباءته واندفع بين صفوف الأعداء فقتل ، وفعلاً بدأ الرومان ينتصرون قليلاً قليلاً .

قسوة مانليوس :

وربما كان فى مكنتك أن تقدر كم كان الرومان قساة أصلاباً ، إذا سمعت تلك الحكاية التى حكيت عن المستشار الآخر تيسيوس مانليوس ، فقد أصدر أمراً بأنه لا يجوز لأى إنسان أن يتحارب فردياً مع أى عدو له ؛ فحدث ذات يوم أن ابنه شخصياً تحداه أحد الأعداء فتعارك معه وقتله ، وأتى بجثته معه ، فلما سمع بذلك والده أمر به أن يشنق لعصيانه ووقف بنفسه يرقب تنفيذ الحكم ؛ ومع أن هذا الحكم قد أرعب الناس كلهم فإنهم اعتقدوا أن مانليوس كان عادلاً إلى الحد الأقصى .

كيف حكمت روما اللاتين ؟

وإذن فقد غزت روما اللاتين وأخذت كل مدائنهم . وقد عرفت كيف تخضعهم ، فأعطتهم امتيازات مختلفة ، وعلمتهم كيف ينظرون إلى روما ، وإليها فقط ، وكيف يعنون بها أكثر مما يعنى أحدهم بالآخر . كما أنها فى نفس الوقت لم تنظر إليهم كأجانب عنها فقد كانوا حلفاءها ، بل لقد تعاركوا حلفاء جنباً إلى جنب واستعملوا نفس الأسلحة ، وكانوا فى السلم إخواناً ، فلما تمردوا أخضعتهم ولم تعاملهم بخشونة ، وإنما عملت فقط على ألا يقوموا فى وجهها مرة أخرى ، وحسنت تجارتهم على حساب ذلك ، فلم تسمح لمدينة بالمتاجرة المباشرة مع أخرى ، وإنما جعلتها كلها تتاجر مع روما ؛ ومن هنا أصبحت روما عاصمتهم التجارية إلى جانب كونها العاصمة السياسية والحربية . ومنتهم كثيراً أن يصيروا مواطنين رومانيين ، إذا أبقوا على ولائهم لها ، فبدءوا ينسون أنهم غزوا ، وصاروا يفتخرون بأن روما تحكمهم .

وهكذا تعلمت روما كيف تربط بها البلاد التى تغزوها ، حتى إنها قلما فكرت فى الوقوف

في وجهها، ويجب أن نذكر أن روما كانت بعد ذلك في غزوها الخارجي تفعل نفس مافعلت مع اللاتين، وبذا جعلت إيالاتها كلها تطمع في أن يكون أهلها مواطنين رومان، فيكون ذلك لهم خير جزاء على إخلاصهم لها.

الحرب السمنية الثانية :

ولقد كان من حظ روما أن صفت حسابها مع اللاتين وجعلتهم حلفاءها اختياراً، فقد بدأت عام ٣٢٧ ق م الحرب السمنية الثانية التي دامت إلى عام ٣٠٥ ق م، أي مدة خمس وعشرين سنة، وقاتل فيها كل من الفريقين بشدة، لأنهما كانا يعلمان أن المنتصر منهما هو الذي سيحكم إيطاليا، وكان للسمنيين قائد شجاع اسمه (كايوس پونتيوس) استطاع مرة أن يهزم الجيش الروماني بحيلة غريبة؛ فقد جعل جيشه يتظاهر بأنه هرب فتبعه الجيش الروماني من أقصر طريق ليجد أنه قد حوصر وأغلق عليه الوادي وحاطه السمنيون من جميع الجهات وهو ليس يستطيع مخرجاً! فلم يسعهم إلا أن يعترفوا بالهزيمة للسمنيين الذين عقدوا معهم صلحاً وأطلقوا سراحهم؛ ولكن هذا الصلح لم يقره البرلمان في روما، وكان اعتراضه أن الصلح القانوني هو الذي يصدر عن مجلس النواب فقط، وأرسلت الولاية المستشارين اللذين عقدا الصلح كأسيرين إلى (پونتيوس)، فرد بونتيوس بقوله إنه كان في استطاعته أن يسحق الجيش الروماني بأسره لو أراد، ومن هنا كان يرغم المجلس على عقد الصلح، فإذا كان المجلس لا يرضى بالصلح فليرسل الجيش ثانية إلى ممر (كوديوم) بسلاحه كما كان، وتستمر الحرب، ولكن الرومان أبوا ذلك قائلين إنهم أرسلوا إليه القائدين اللذين ارتكبا الخطأ، وإن هذا هو كل ما يستطيعون عمله؛ فأعاد بونتيوس القائدين واستمرت الحرب من جديد؛ ولم يكن رأي المجلس صائباً هذه المرة، ولكنهم كانوا قوماً يعتقدون أن الواجب يقتضيهم أن ينفذوا القانون بحروفه.

فلما استمرت الحرب تخوف الطسقانيون من قوة روما، وعملوا على شلها فساعدوا السمنيين، ولكنهم هزموا أيضاً، وأخيراً في عام ٣٠٤ ق م اضطر السمنيون إلى إلقاء السلاح وعقد الصلح.

الحرب السمنية الثالثة :

ولكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً، فقد بدأت الحرب السمنية الثالثة عام ٣٠٠ ق . م . وفيها نرى كل الأقوام من إيطاليا التي كانت حتى ذلك الوقت يقاتل بعضها بعضاً، قد اتحدت ضد روما التي أصبحت قوتها تخيف الجميع فرادى ومجتمعين، فكانت هذه الحرب صراعاً يائساً من السمنيين والطسقانيين والغاليين، للحد من سلطان روما وعتوها. وكانت كبرى المعارك سنة ٢٩٥ في مدينة (سنتينيتم)، وفيها انتصر الرومان عليهم جميعاً . وبعد ذلك بعامين أسر الرومان قائد

السمنيين الشجاع (كايوس بونتيوس) ولم يعاملوه بأية شفقة بل قتلوه ؛ ولقد أظهر الرومان أنفسهم دائماً بمظهر القاسى ضد من يثور فى وجههم ، وكانت فعلاً هذه القسوة سبباً آخر من الأسباب التى جعلت الأمم التى تغزوها روما لا تثور ضدها غالباً .

الحرب مع المدن الاغريقية :

والآن وقد قررت الحرب السمنية الثالثة أن روما هى سيدة إيطاليا الجنوبية بعد إذ أخضعت السمنيين والطسقانيين وقهرت الغاليين ، لم يبق أمامها إلا المدن الاغريقية لتسود روما كلها .

كانت هذه المدائن فى زمن ما قوية جداً وكانت ماتزال غنية جداً ، كانت غنية إلى حد أنها لم تكن تعنى بالحرب والدفاع عن نفسها ، بل تؤجر غيرها على القيام بذلك نيابة عنها ، وكانت من أهم هذه المدن مدينة (تارنتم) على خليج تارنتم الكبير فى جنوب إيطاليا ، وكان الرومان يساعدون بعض المدن التى تجاور تارنتم ضد أعدائها ، وكان أهل تارنتم يحسدون روما على قوتها ، فلما عرفت روما ذلك أرادت أن تؤدبهم ، ففى ذات ليلة بينما كان القوم كلهم جالسين فى (المسرح) على شاطىء البحر فى الهواء الطلق حيث المقاعد تشرف على الماء ، ليشاهدوا إحدى الروايات التمثيلية التى كان الاغريق بها جد مغرمين ، إذ رأوا فجأة عشر سفن رومانية لصق الميناء ، فاندفعوا فى عنف وهياج إلى السفن الرومانية وهاجموها وحطموها ، وابتدأت الحرب عام ٢٨٢ ق م .

الحرب مع فيرهس :

ولكن التارنتيين كانوا يخافون الحرب بأنفسهم ، ولم يكن فى إيطاليا كلها من القبائل الأخرى من تصلح لان تقف أمام روما ، فلم يجدوا بداً من أن يتجهوا إلى بلاد الاغريق ويطلبوا مساعدة (فيرهس) ملك (ابيرس) التى كانت على الشاطىء الغربى من إغريقيا ، وهى أقرب جزء إلى إيطاليا . وسر (فيرهس) إذ تيحت له الفرصة لتحقيق أمانيه ، فقد كان على صغر سنه يطمع فى أن يكون غازياً كبيراً . وكان حقاً قائداً جيدا فأحضر معه جيشاً من الجنود المدربين ، وقصد إلى إيطاليا . وكان شيئاً خطيراً بالنسبة للرومان أن يقفوا ويتقاتلوا مع أناس يعيشون خارج إيطاليا ، لأنهم كانوا مضطرين إلى الحرب بطريقة دفاعهم الخاصة التى لم يجربوها إلا مع أهل إيطاليا .

نزل فيرهس إلى الأرض الإيطالية عام ٢٨٠ ق م فى جيش كبير ، فتصدى له الرومان ، فهزموا عند (هيرا كلس) على نهر سيريس الصغير ؛ لأن قسم الراكبين فى جيشهم لم يكن جيداً مثل (سوارى الاغريق) ، وفزعت خيلهم كثيراً عند مارأت فيلة جاء بها الاغريق معهم ؛ ولكن على الرغم من أن فيرهس كسب المعركة فإنه خسر كثيراً من جنوده حتى لقد قال : قليل من مثل هذه الانتصارات ثم أهزم ! ! وذهب بعد ذلك إلى روما وحاول أن يسعى فى الصلح بشروط جيدة ، له

ولثارتم، فأرسل إليهم رجلاً لبقاً جداً اسمه (سينيز) كان دائماً يغير من وجهة نظر المجلس الاغريقى، وكان له عليه تأثير كبير، ولكن نبيلاً رومانيا ـ كان مستشاراً ومراقباً وتقاعد وقد تقدمت به السن ـ أمر بنفسه أن ينقل إلى مجلس النواب الرومانى، حيث توسل إلى المجلس ألا يسمح بصلح ما دام فيرهس لا يزال موجوداً فى إيطاليا. وأخذ المجلس برأيه وعاد (سينيز) بهذا الرأى إلى فيرهس، فلما سمعه قال: «من العبث المقاتلة مع روما لأن مجلس نوابها هو مجلس ملوك لا مجلس نواب!!»، وفى العام التالى هزم فيرهس الرومان مرة أخرى، ولكنهم لم يسلموا له، فيئس فيرهس وجلا عن ايطاليا إلى سيشل وقاتل هناك عامين، ثم عاد إلى إيطاليا، وكان جيشه أضعف بكثير مما كان عليه، وكان الرومان قد لاحظوا ضعف «راكبيهم» فدربوهم وسلحوهم جيداً، كما عودوا أنفسهم على المقاتلة ضد الفيلة، حتى صاروا يستطيعون الوقوف فى وجه فيرهس وقفة الند؛ وفى سنة ٢٧٥ ق م نشبت بين الجيشين معركة غلب الرومان فيها فيرهس، فرجع إلى ايبرس وقد فقد جنوده تقريباً، وانتهت بذلك آماله فى الفتح والغزو بعد هذا الانحدار الشنيع، وبعد ذلك بثلاث سنوات قتل فى إغريقيا بحجر ألقته امرأة على رأسه حينما كان يحاصر أرجوس.

حكم روما لايطاليا:

بعد جلاء فيرهس لم تجد روما أية صعوبة فى أخذ كل جنوب إيطاليا. والآن فهاهى ذى روما تحكم كل الأراضى الواقعة جنوب خط يرسم من النهر الصغير (ماكرا) الواقع على الساحل الغربى إلى (الرابيكون) على الساحل الشرقى، وفوق هذا الخط كانت بلاد الغال، وكانت روما ذاتها مدينة، فحكمت نفسها وحكمت كل المدن الإيطالية، لأن إيطاليا كانت مقسمة إلى أقاليم يتبع كل إقليم منها مدينة، وصارت الحال فى إيطاليا هكذا: كان المواطنون الرومان يحكمون كل الباقين، وصار كل من غير المواطنين يحب أن يكون مواطناً رومانياً، وبعد الرومانيين يجىء (اللاتين) الذين كان لهم بعض حقوق المواطنين الرومان، وكانوا يأملون فى الحصول على بقية امتيازات الرومان بمرور الزمن؛ وبعد اللاتين يجىء الايطاليون الذين كانوا يحكمون مدنهم التى يعيشون فيها، ولكن كان عليهم أن يطيعوا روما وأن يخدموا الجيش الرومانى عندما كان يحتاج إليهم.

وكانت هناك طريقتان بواسطتهما احتفظت روما بسلطتها على إيطاليا، ويجب أن نذكر دائماً هاتين الطريقتين فقد كانتا دائماً الوسيلتين اللتين استعملتهما بعد ذلك فى كل مستعمراتها. وهما:

١ـ إنشاء المستعمرات الرومانية.

٢ـ إنشاء الطرق.

المستعمرات الرومانية

المستعمرات كما تعرف هي أراض من بلد يستوطنها أناس من بلد آخر، ليعيشوا فيها باستمرار كأنها جزء من وطنهم. فكان الرومان يأخذون جزءاً من الأراضى التى يغزونها ويرسلون إليها مواطنين رومانيين ليعيشوا فيها ويكونوا هناك ولاية رومانية لأنفسهم. ومن هنا فإن عددا من (رويمات) صغيرة قد انتثر فى أنحاء إيطاليا، وكانت روما تستطيع على الدوام أن تعتمد على مواطنيها فى المستعمرات، لأن الرومانى الوطنى لم يكن ينسى روما مطلقا، وكانت هذه المستعمرات حاميات تحفظ السلم بين الايطاليين، ولكنها أحسن من الحاميات العسكرية لأنها كانت حاميات من رجال سلميين يشتغلون يومهم فى مزارعهم ويعلمون الآخرين أن يحذوا حذوهم، ومن هنا أحب الايطاليون الرومانيين وحاولوا أن يكونوا مثلهم، وكانوا راضين بأن تحكمهم روما.

الطرق الرومانية:

كان الرومان صناع طرق ماهرين، إذ كانوا ينشئونها بالجودة والمتانة التى تنشأ بها الطرق فى الوقت الحالى وبنفس الطريقة أيضاً، وكانت هذه الطرق تتفرع من روما إلى سائر أنحاء إيطاليا، ومن هنا كان فى استطاعة روما أن ترسل الجند إلى أى مكان يحتاج إليهم، ويمكنها بسهولة أن تتلقى الأخبار عن مستعمراتها، فكانت هذه الطرق وسيلة جميلة لحفظ النظام، وقد يستطيع القارئ أن يتصور ايطاليا فى ذلك الوقت، ويذكر أن هذه الطرق كانت منتشرة، ليعرف أنها كانت عبارة عن سلاسل تقيد المدن بروما.

أخلاق الرومان القدماء:

هكذا كانت روما تحكم إيطاليا. وكانت أيام حربها مع السمنيين وفيرهس مأزق أيامها، لأنه كان ما يزال على الرومان أن يشتغلوا بجد ليغتنوا، وكانوا أمناء وشجعان ونبلاء، وهناك كثير من القصص التى تحكى لنا كيف كان الرومان القدماء يحيون، فلم يكن قوادهم وسياسيوهم أعظم ولا أنعم فى مجرى حياتهم من الناس الآخرين، واعتادوا حينما كانت ترسل الهدايا إليهم أن يرفضوها. حدث مرة أن أرسل السمنيون إلى القائد الرومانى (مانليوس سيريوس) هدية من الذهب، فلما حضر الرسل وجدوه فى مزرعته يطبخ لنفسه طعام غدائه الذى لم يكن يزيد على لفتة تشوى فى النار، ولم يكن لديه إلا طبق من الخشب يأكلها فيه!! فلما قدموا له الهدية الذهبية رفض (سيريوس) أن يأخذها قائلاً: « ليس الشرف فى حيازة الذهب إنما هو فى سيادة من يحوزونه ».

ولكن ما أسرع ما يأتى الزمن الذى يثرى فيه الرومان من الحروب الخارجية، وما أسرع ماتنتهى تلك الحياة الساذجة البسيطة التى كانوا يحيونها مما ستراه فى الجزء القادم.

اسماعيل باشا صبرى

شيخ شعراء العصر

١٨٥٤ – ١٩٢٣م

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

تذكر أيها القارىء أنى وقفت فى كلمتى [١] السابقة عن شيخ شعراء العصر ، اسماعيل باشا صبرى عند حد تلمذته، وكان فى السادسة عشرة من عمره ، ما فتىء يواصل طلب العلم فى فصول إحدى المدارس الثانوية بالقاهرة ، ويمارس فى أويقات فراغه قرض الشعر ، وينهج فيه منهج متأدبى الجيل الماضى ، من مدح الخديوى ورفع التهانىء إلى أعتابه بمناسبة حلول الأعياد ، إلى غير ذلك من مختلف المناسبات .

وتذكر فوق هذا أن مجلة « روضة المدارس » كانت تنشر له فى أيام تلمذته تلك ، قصائد لاغبار عليها ، تنم عن شاعرية عبقرية ، غير أنها ما برحت لجة كامنة طى براعمها ، لم يأن أوان ربيعها ، لتتفتق عنها الأكمام ، ويتضوع شذاها معطراً أرجاء النفوس .

وإخالك لم تنس بعد أنى قلت : إن صبرى لم يكن من أبناء العائلات العريضة الجاه ، اللاتى يفاخر بنوها بمجد آبائهم وشرف أجدادهم ، وقد دلت على ذلك بأبيات جاءت فى مرثية أمير الشعراء « شوقى » لشيخ الشعراء ، منها هذا البيت :

قل للمشير إلى أبيه وجده ... أرأيت للقمرين من أسلاف ؟

وبعد تذكرة القارىء بهذا ، أعود لمتابعة الحديث فأقول :

أتم «صبرى» دراسته الثانوية بمصر سنة ١٨٧٣، وهو فى الثامنة عشرة من عمره، ولما كان يعد من نبغاء التلاميذ اختارته الحكومة فى ١٧ مايو من السنة المذكورة ليكون ضمن أعضاء بعثتها الذين تعلمهم على نفقتها فى الخارج ؛ فسافر إلى فرنسا وتلقى علومه العالية فى معاهدها ، وعاد منها إلى مصر بعد أن أحرز شهادتى البكالوريا والليسانس فى الشرائع والحقوق وهو فتى لم يتجاوز الثالثة والعشرين ، وما لبث أن اندمج فى سلك رجال العدالة والقضاء ، وذلك فى إبريل سنة ١٨٧٨ .

(١) راجع عدد مايو سنة ١٩٣٣ من هذه المجلة

ولا شك في أن دراسة « صبرى » لفلسفة القانون ، واشتغاله بحل مشكلات القضايا، وتضلعه في الأدب الفرنسي، قد وسع من أفق خياله، وغذى عبقريته بآراء حديثة قيمة في نقد الأدب العربي ، وما يجب أن يكون عليه الشعر العصرى .

« والمترجم له من النوادر القضائية ما لا يقل في الطرافة والقيمة عن نوادره الأدبية»، ومنها هذه النادرة التي رواها الدكتور هيكل، وهي تدل ـ كما سترى ـ على تعمق «صبرى» في دراسة سرائر نفسيات القتلة والمجرمين وهيآت ملامح وجوههم ، قال الدكتور:

« اعترف أمامه متهم بجريمة القتل ، فلما خلا مع زملائه للمداولة ، ورأى أن العقوبة هي الإعدام ، ذكر لهم أنه يشك في اعتراف هذا الرجل ، لأنه لا يرى في سيماه معنى شجاعة يمتاز بها على غيره من أمثاله . وجيء بالرجل إلى غرفة المداولة وقال له : إن اعترافك هذا يجعلنا نحكم عليك بالإعدام ! فكان جواب الرجل : لكن العمدة لم يقل لى هذا : بل قال لى ـ حين دفع إلى الجنيهين ـ : إنه سيعفى عنى لأنى كنت في السجن حين ارتكاب الجريمة ! ! وتبين فعلاً أن الرجل كان في السجن، فلم تكن له في الجريمة يد ، وقضى ببراءته ».

فتأمل كيف أن هذه الملاحظة التي أبداها هذا القاضى البعيد النظر ، قد أقصت عنق هذا الفلاح الساذج عن حبل المشنقة ، وضمنت له الحياة بعد أن أصبح على حافة قبره !

وقد أخذ قاضينا الشاعر يرتقى سلم المناصب القضائية ، إلى أن تبوأ في سنة ١٨٩٥ منصباً رفيعاً لم يتبوأه أحد قبله من القضاة المصريين ، أعني منصب النائب العمومى ، أو « قاضى القضاة المدنيين » ، إن شئت.

ومن أروع التهانىء التي وصلت «صبرى» حين إسناد هذا المنصب إليه : قصيدة رفع بها إليه صديقه القاضى الأديب المرحوم « حفنى بك ناصف » ، أجتزىء منها هذه الأبيات، والقصيدة في جملتها آية من آيات الشعر البليغ الخالد الحى :

لم ينلها سـواك من أهـل مصر	والمعالى بالخاطب الـكفء تدرى!
طمحت أنفس إليها فصانت	حسنها عنهم صيانة بكر !
راودوها عن نفسها فاستخفت	بنهاهم وقابلتهم بهجر
وابتغت كفأها فكنت رضاها	فهى شمس جرت إلى مستقر
أمض فينا القانون لا فرق فيه	بين زيد من الرعايا وعمرو !

وللشيخ شعر ائنا أبيات ثلاثة من هذا البحر والروى ، يثنى فيها على حفنى بك ، لإهدائه إياه رسمه الفوتوغرافى ; ومما زاد لأبيات طلاوة تضمين « صبرى » للمصراع الأول من قول حفنى المتقدم ، قال صبرى :

حظيت راحتي برسمك حفني مثلما فاض بالمسرة صدري
صورة ما شفت غليلاً ولكن حيرت في صفات ذاتك فكري
أذكرتني محاسناً لك غرآ «لم ينلها سواك من أهل مصر»!!

وتعين «صبري» في سنة ١٨٩٦ محافظاً لثغر الاسكندرية، ثم تقلد وكالة نظارة الحقانية في سنة ١٨٩٩؛ وعند ماحل يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٧، كان الشاعر قد بلغ سن المعاش، فتقاعد ولزم داره، وانقطع لمذاكرة الأدب ومجالسة رجاله ومراسلتهم.

ويظهر أن المترجم له كان يتمنى أن يساعده الحظ لكي يصبح في عداد النظار «الوزراء» بعد أن صار في عداد الوكلاء، بدليل أنه عند ماشكلت وزارة «بطرس باشا غالي» في ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ -وقد دخلها بعض أصدقائه- نشر بجريدة الأهرام -على سبيل المداعبة التي لاتخلو من مغزى- هذين البيتين اللذين يطيران ظرفاً وخفة روح بإمضاء بنتاؤر (١) قال:

أين صبري من يذكر اليوم صبري بعد أيام عزله وشهوره؟
اسألوا الشعر فهو أعلم هلا أكلته الأسماك وسط بحوره؟

وربما كان السبب الذي باعد بين صبري وبين تمتعه بالجلوس على كرسي نظارة ما، هو إباء نفسه واحترامه لوطنيته؛ وقد حملته عزة نفسه على ألا يتعرف إلى الحاكم بأمره يومذاك في مصر، وهو المعتمد البريطاني اللورد كرومر، ومع أنه كان قاضياً لقضاة مصر، ثم محافظاً للاسكندرية، ثم وكيلاً لوزارة الحقانية، فإنه لم يسمح لقدمه أن تعبر عتبة «قصر الدوبارة»، إلى أن ودعت روحه الشاعرة هذه الحياة! وهذه نادرة تعد من الشواذ، وقل أن تحصل من رجل سواه من رجالات الدولة المصرية.

ومن الكلمات المأثورة عن شيخ شعرائنا:

«أحب الحرية في ثلاثة: في المرأة تحت ظل زوجها، وفي الرجل تحت ظل شريعته، وفي الوطن تحت ظل الله».

ومن حق شعراء العصر أن يحمدوا تلك العوامل التي أثرت في نفس شيخهم وجعلته يعاف الاشتغال بالسياسة بطريق تتنافى مع مبدئه القومي، فينصرف إلى أداء رسالته الأدبية البليغة الخالدة.

ولقد كان صبري في الشطر الأخير من حياته مهتماً بتهذيب فن الشعر، وما يتعلق بالشعر من موسيقى ومن غناء؛ وقد تحولت داره بعد إحالته إلى المعاش إلى شبه منتدى أدبي يؤمه كل يوم أشهر شعراء مصر المعروفين عندنا الآن، وذلك لكي يسمعوا منه أشعاره أو يسمعونه أشعارهم، للنقد والتنقيح قبل إذاعتها، ومن هنا منح بحق لقب «شيخ الشعراء».

(١) بنتاؤر يعد من أعلام الشعراء في عهد قدماء المصريين

ويقول الأستاذ «محمد صبري»: إن صبري لم يلقب بشيخ الشعراء، إلا لأنه جمع بين مزايا ثلاث: فضل السبق فى السن، وفضل السبق فى قول الشعر والتبريز فيه، وسلامة الذوق فى نقد الشعر.

ويقول الأستاذ الشاعر «مصطفى الرافعي»: لم يكن فى مصر ممن يحسن ذوق البيان، ويميز اقدار الألفاظ: كالإمام محمد عبده، وإبراهيم المويلحي، والبارودي، وإسماعيل صبري؛ فالإمام يتذوق بالبصيرة النفاذة، والمويلحي بالظرف، والبارودي بالسليقة، وأما صبري، فيتذوق برقة العاطفة، وذلك شيء ركبه الله فى طبيعة صبري، لم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس!!

والآن أضع بين يدى القارىء شذرات من مراثى أساطين الشعراء لصبري وأقوال مشاهير الأدباء، التى أثبتوا فيها أن المترجم له كان أستاذهم الذى كانوا يأخذون عنه ويتعلمون عليه ويقتدون بآرائه الصائبة فى نقد الشعر.

ها هو ذا «شوقى» يرثيه ويعترف بأنه كان فى إبان حياته الأدبية يعدو خلفه كما يعدو المهر وراء جواد سباق لايشق له غبار، ليتعلم منه كيف ترام الغايات فى حلبة القوافى:

قاضى القضاة جرت عليه قضية ... للموت ليس لها من استئناف
ومصرف الأحكام موكول إلى ... حكم المنية ماله من كافى
«أأبا الحسين» تحية لثراك من ... روح وريحان وحسن نطاف
وسلام أهل وله وصحابة ... حسرى على تلك الخلال لهاف
هل فى يدى سوى قريض خالد ... أزجيه بين يديك لإتحاف
هـذا هو الريحان إلا أنه ... نفحات تلك الروضة المئناف
والدر إلا أن مهد يتيمه ... بالأمس لجة بحرك القذاف
أيام أمرح فى غبارك ناشئاً ... نهج المهار على غبار خصاف [1]
«أتعلم» الغايات كيف ترام من ... مضمار فضل أو مجال قواف

وها هو ذا «حافظ» يندبه، ويقول إنه كان يعرض شعره عليه للتنقيح:

إذا قيل «صبري» ذكرت الوليد ... ومرت بنفسى ذكرى عمر
يزين تواضعه نفسه ... كما زان حسن الملاح الخفر
زكى المشاعر عف الهوى ... شهى الأحاديث حلو السمر
لقد كنت أغشاه فى داره ... وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع ... لطيف يحس نبو الوتر!

(١) خصاف هو من الجياد السوابق أيام العرب

فيصقل لفظى لفظ الجمان ويكسوه رقة أهل الحضر
يرقرق فيه عبير الجنان فتستاف منه النهى والفكر
كذلك كان عليه السلام إماماً لكل أديب شعر!
فكنا الجداول نروى الظماء ظماء العقول وكان النهر

وها هو ذا «المطران» يبكيه ، ويقول إنه كان له ولزملائه الشعراء بمثابة الأستاذ :

اليوم نجم من نجو م الشعر أدركه الغروب
ياخطب إسماعيل صبـ ـرى ليس تبلغك الخطوب
أى صاحبى لقد قضى «أستاذنا» البر الحبيب
فعرا قلادتنا وكا نت زينة الدنيا شحوب

* * *

مات الذى منظومه لأولى النهى سحر خلوب
شعر على الأيام ير ويه مردده الطروب
وكأنما فى أذن قا رئه يغنى عندليب!
لله صبرى وهو لا لغة التى انتهت غضوب
بالرفق ينقذ ما يزيـ ـف المخطئون ولا يعيب!

* * *

فاذهب أبا الشعراء فخـ ـرك ليس ضائره الذهوب
لك فى النهى بعد النوى شفق ولكن لا يغيب!

وكتب أحد الأدباء بجريدة السياسة يوم وفاة الشاعر يقول: أعرف «صبرى» منذ ثلاثة عشر عاماً ، وكنت أغشى مجلسه كثيراً وأردد عليه ، وكانت بيننا صلة الابن بالأب البار ، والتلميذ بأستاذه ، وكان يفيض علينا أدباً ومكارم أخلاق ، وكان حلو السمر عذب الحديث ؛ ولعل السر فى ذلك هو أن «صبرى» كان فى حياته ـ كما كان فى شعره ـ فناناً ؛ وكم مرة استرعى نظره فى الطريق منظر رائع من تلك المناظر الدقيقة التى لا يلتفت إليها أحد ، فوقف واستوقف يمتع منها ناظره ، حتى إن المرء ليتساءل أيهما أشعر ؟ الرجل فى حياته أم الشاعر فى شعره ؟!

ويقول الأستاذ الرافعى : كنت أعرض عليه مرة قصيدة نظمتها فى العام الهجرى ونشرتها جريدة المؤيد سنة ١٩١٢ ، فاستحسن منها هذين البيتين :

مضى العام مذموم الفعال مشيعاً بأنة محزون ودمعة مشفق!
فلا الغرب فى ساح اليقين بمهتد ولا الشرق من الأسار بمعتق!

ثم قال لى: أولى بك أن تنظم خمسة عشر بيتاً من هذا الطراز، بدلاً من أربعين ، ومن ذلك يتضح حب الرجل للإتقان ، ومحض النصيحة للناشئين.

وبعث «شوقى» أيام تفيه بالأندلس «لصبرى» بهذه الأبيات التى يبدى فيها شوقه لمصر وإلى ماء نيلها العذب ، لكى يدلى فيها شيخ الشعراء برأيه ؛ والأبيات من نونية «شوقى» التى عارض بها نونية الشاعر الأندلسى أحمد بن زيدون المشهورة، ومطلعها «أضحى التنائى بديلا من تدانينا» الخ . وهاك أبيات شوقى :

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا	بعد الهدوء ويروى عن مآقينا
ترقرق الماء فى دمع السماء دماً	هاج الأسى فخضبنا الأرض باكينا
يا ساكنى مصر إنا لانزال على	عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا !
هلا بعثتم لنا من ماء نيلكم	شيئاً نبل به أرواح صادينا ؟
كل المناهل بعد النيل آسنة	ما أبعد النيل إلا عن أمانينا !

وقد كان إعجاب شيخ الشعراء عظيما بهذه الأبيات التى أبدع شوقى فى إيداعها حرارة أشواقه لمصر وساكنيها وماء نيلها ؛ وقد أرسل صبرى إلى شوقى بالأندلس هذه الأبيات :

ياوامض البرق كم نبهت من شجن	فى أضلع ذهلت عن دائها حينا
فالماء فى مقل والنار فى مهج	قد حار بينهما أمر المحبينا !
لولا تذكر أيام لنا سلفت	ما بات يبكى دماً فى الحى باكينا !
يا «آل شوقى» عودوا لا عدمتكم	وشاهدوا ـ ويحكم ـ فعل النوى فينا !
يا نسمة ضمخت أذيالها سحراً	أزهار أندلس هى بوادينا !

وعندما اطلع شيخ الشعراء على قصيدة شاعر القطرين فى الحرب الطرابلسية ، هلل لها طرباً ، وكان يتغنى منها كثيراً بهذا البيت :

يقول للعلم الخفاق فى يده	فىء من الأرض ما تختار ياعلم !

وقد قال لمطران : أسكرتنى، إنك قد فت الشعراء بستمائة عام!!

وسئل صبرى يوماً عن رأيه فى الشعراء الثلاثة فقال : شوقى ينظم ، وحافظ يبنى ، ومطران يبتدع ؛ وقيل له أيضاً : أيهما أشعر : شوقى أم حافظ ؟ فأجاب : إن الفرق بينهما كالفرق بين المليم والجنيه الذهب !

والآن سلاماً أيها القارىء ، لنلتقى أعلى صفحات العدد الآتى ، فنتحدث عن بقية نوادر الرجل الأدبية وطريف أشعاره .

[أم درمان — سودان] المبارك ابراهيم

ظلامة الكريم

للأستاذ مرسى شاكر الطنطاوى

ظلموا الكريم فجرّدوه حُلّةً
لم تعْدُهُ يوماً إلى ابتآس
ورأوه بالعين التى لم تكتحل
إلا بما فى القلب من وسواس
وإذا «العمى اللونىّ» حفّ بناظر
عكس القياس فكان شر قياس
كم ذا يحار الرأى فى تكوين من
عاث انحلال كيانه فى الراس
وكذاك تعثر بالظنون دخائلٌ
تجرى بحكم فى الإرادة قاس
لا تعجبوا فلكل نفس فى الهوى
شأن يمكن عزمها بأساس
من لم تزوّده الشجاعة نفسه
جهل الشجاعة فى نفوس الناس

مرسى شاكر الطنطاوى

عمـــــد المجتمع

لهنريك ابسن

لهنريك إبسن مكانة سامية فى تاريخ المسرح ؛ ولا أظن الظرف يسمح بإيفائه حقه من الإشادة بما كنت أحب أن أفى به ؛ ولكنى ألخص له رواية ، هى فى أسلوبها وغاياتها آية بينة على أسلوب إبسن وغاياته من الروايات المسرحية ، التى جعل منها موضوعاً لدراسة المجتمع ومشاكله ؛ ولا أحدثك عن ميزات إبسن العالية ومهارته فى حبك الموضوع وصياغة المحاورات، وتوجيه ذلك كله إلى ما يقصد من نقـد وإصلاح ، فهـذا كله لا يكفل وعيـه فى النفس إلا دراسة الرواية والاستمتاع بها ؛ فإذا كان مثل هذا التلخيص الذى نعرض له الآن يحفز على هذه الدراسة ، وذلك الاستمتاع، فقد وفقت إلى أقصى ما أريد .

***

نحن فى حجرة بحديقة قصر القنصل (برنك) بإحدى موانىء الدنيمارك ، وهى معمورة بسرب من السيدات والآنسات، جلسن يستمعن إلى الأستاذ (رولند) وهو يقرأ فى كتاب، من بين هؤلاء السيدات مسز برنك زوج القنصل ،ومارتا أخته، ودينا وهى فتاة ربيبة القصر ؛ وإذا أصخت بأذنك لما يدور من الأحاديث ، علمت أنك فى قصر أكبر رأسمالى فى الميناء وهو برنك صاحب المشاريع الخطيرة والأعمال النافعة للمجتمع ؛ مما جعل قومه يرفعونه إلى أسمى المكانات ويطلقونه مثلا جميلاً على الإخلاص ونقاء السريرة وعلو الهمة والغيرة على المصالح الاجتماعية والمبادىء الخلقية ؛ وإنك لتحس أنك فى وسط أريستقراطى شديد المحافظة تطغى عليه ظاهرة واحدة لعلها تدل على عظيم أثر القنصل فيمن حوله؛ وهى التفانى فى المجتمع والحرص على ما يمهد له سبل السعادة والتقدم والخير .

ويرجع الحديث بالمتحدثين إلى الماضى ؛ ويذكر كل منهم ماهاجه الحنين والذكرى فى نفسه من المؤثرات ؛ ويطرق الحديث شئوناً مختلفة وضروبا متباينة ، يكون من بينها التمثيل والفرق التمثيلية التى كانت تزور البلدة منذ خمسة عشر عاماً ؛ والظاهر أن هذا الحديث يوقظ فى بعض النفوس ألماً خفياً؛ فإنهما تكاد تخرج مسز برنك ومارتا ودينا والأستاذ ويخلو الجو للزائرات، حتى تنطلق إحداهن تلوم تلك التى تحدثت عن الفرق التمثيلية ، وتأخذ عليها أن تذكر الخبر أمام مسز برنك والفتاة دينا المسكينة ! فإذا تتبعت الحديث، وضح لك من قصر برنك ما لا تكاد تصدقه ؛ فذلك الرجل العظيم لم يتورع العار أن يتسرب إلى بعض نواحى بيته منذ خمسة عشر

عاماً ، مما كان حديث الجميع ؛ وكان القنصل فى ذلك الوقت شاباً يافعاً حديث العودة من البلاد الأوربيـة ، وكانت تزور البلدة فرقة تمثيليـة من ضمن أفرادها الممثل دورف وزوجه ، وكان خطيبة القنصل (زوجه الآن) أخ شاب حديث السن موظف فى بيتهم المالى ـ الذى كانت تديره حينذاك أم القنصل ـ ... وقع الفتى فى حب الممثلة واندفع فى سبيل الحب الوردى لا يلوى على شىء ، وفى ذات ليلة رجع الممثل دورف من الملهى على غير موعد ، فما يدرى إلا ورجل يقفز من النافذة ويغوص فى لجج الليـل العميق ؛ ولم يشـك أحد فى شخص الهارب ؛ وزاد الأمر توكيداً ، هرب جوهان (شقيق مسز برنك) إلى أمريكا . ويعلم الجميع أنه لم يفر صفر اليدين فإنه سرق من مال البيت الذى كان موظفاً به مما هدده بالخراب بعـد الثبات والثقة ؛ وختمت المأساة بأن هجر الزوج الممثل زوجه وابنتها ؛ وجاهدت المرأة حتى سقطت ميتة ؛ ولولا أن مارتا آوت الابنة للحقت بأمها سريعاً ، ولما صارت دينا فتاة يافعة .

ويستمر الحديث ، ويدور حول لونا أخت زوج القنصل والتى يملأ جوها من الشبهات ما يملأ جو أخيها ، ولا يزال السيدات يذكرن كيف كانت تسير فى شوارع المدينة بحالة تلفت الأنظار وتحرك الألسن بالثرثرة ، ويقال إنها كانت تظن أن القنصل ينوى الزواج منها ، فلما فوجئت بعقد خطبته على أختها تصرفت تصرفاً شائناً لم يعف من الأذهان ... وقد فرت خلف أخيها ووصلت إشاعات مختلفة من وراء المحيط تقول إنها امتهنت الرقص وما شا كل ذلك . . هذا ما كان منذ خمسة عشر عاماً ولو أن الأراجيف لا تنام عنه .

وإذ دخلت دينا ، حولن الحديث إلى مجرى جديد واختلسن من الفتاة نظرات إشـفاق ورثاء وعطف ، والفتاة لا تضيق لشىء ضيقها لهذا العطف والإشفاق اللذين يشعر انها بالذلة والهوان ، ولا تبرم بشىء برمها بحياتها فى هذا القصر الذى يحاسب أهله على الابتسـامة الصغيرة إذا خرجت عن حدود التقاليد المرعية . وهى تعلم أن الأستاذ رولند يحبها ؛ ولـكنه يحرص الحرص كله على ألا يصل علم ذلك الحب إلى أحد ، لأنه يشفق بنفسه أن يصيب مكانته الاجتماعية رذاذ مما يتناثر حول تاريخ الفتـاة ؛ وهو يستمهلها ويعهدها وينميها ، ولـكنها لا تستطيع أن تقنع نفسها بأنه يحترمها مادام يخجل أن تنتسب إليه .

ويظهر القنصل والرأسماليون ، ونعلم مما يدور بينهم من حديث أنهم مقدمون على تنفيذ مشروع خطير ، هو إنشاء خط حديدى فى المدينة ؛ والحق أن القنصل شخصية فذة محترمة ، وكأنه ما وجد إلا ليعمل للمجتمع ويسهر على سعادته ؛ ولا يزالون فى حديثهم حتى يصيح بهم صائح أن (سركاً) أتى المدينة ، وأن هاهم أولاء عماله يسيرون أمام القصر ، فيلتفت الجميع يشاهدون المارين ، و يلحظ هيلمار (ابن عم مسز برنك) أن سيدة تومىء برأسها إلى القصر ، فينبه إليها ويعجب الجميع من شأنها ، وقد ظنوها من بنات السرك ! وتزيد دهشتهم إذ يرونها متجهة إليهم بل داخلة عليهم

تناديهم بأسمائهم كأنها تعرفهم حق المعرفة، ولا يطول تساؤلهم لأنهم يعرفون فيها « لونا » أخت مسز برنك وبطلة ما ذكرنا من حوادث . . . وتخبرهم أن جوهان أتى معها ! وأنه فى طريقه الى القصر .

وتستطيع أنت أن تتصور لنفسك ما أحدثه ظهور لونا وجوهان فى نفوس الزائرات وأصحاب القصر على السواء، من الدهشة والألم والخجل، بعد إذ علمت من أمرهما ما علمت .

***

طبيعى جداً أن يحدث قدوم الأمريكيين انزعاجاً فى الأسرة، وطبيعى جداً أن يصلى ناره القنصل وزوجه، ما دامت هذه تحس إحساساً قوياً بما تسببه له قرابتها لهذين الشخصين من تكدير صفو الحياة، وما دام هو قاسياً فيما يمس السمعة والخلق؛ ويؤكد هذا التنور والألم بين الزوجين شكوى هيلمار من الزائرين اللذين منذ قدومهما لا ينيان عن السير فى طرق المدينة ومعهما دينا وأولاف (ابن القنصل الصغير) بحالة لفتت الأنظار وأيقظت الذكريات وأطلقت الألسن بالأحاديث المرة ؛ ومستر برنك يألم لذلك من غير شك ، ولكنه يرجو من هيلمار أن يتغاضى عنه، وألا يذكر الماضى بكلمة أمام الزائرين رحمة بهما ! فتهتف بهزوجه: ما أكرمك! ما أنبلك!

وينصرف هيلمار ومسز برنك ويدخل أون رئيس بنائى السفن فى مصنع برنك وشركاه، ويبدو لنا أن العامل ورئيسه مختلفان بسبب إدخال الآلات الحديثة فى المصنع ؛ فالرئيس يضع أمامه مصلحة المجتمع ويستشهد باختراع آلة الطباعة، فقد كانت بلا شك سبباً فى خراب آلاف البيوت، ولكن العاقل لا يمكنه أن ينكر فضلها أو يكابر فى أن فوائدها لا تدع مجالاً لذكر مضارها التافهة، والعامل من جهة أخرى يذكر العمال وبؤسهم ويسأل سيده ما عسى أن يكون رأيه فى أمر آلة الطباعة، لو أنه كان عاملاً مثله! على أن الرئيس يضيق بالمناقشة ويحتم على العامل أن ينتهى من إصلاح السفينة الأمريكية « الفتاة الهندية » قبل غد، لتبحر فى موعدها، فإذا طلب الرجل أن يمد له فى الزمن، أصر القنصل على رأيه وهدده — إذا أخلف أو تأخر — بالرفت!.. فيقبل الرجل مكرهاً ويخرج وهو كظيم .

ثم يدخل الأمريكيان ودينا وأولاف، وقد تولدت بين جوهان ودينا علاقة ودية وسحرية؛ فهى لم تلق فى حياتها إنساناً مثله صراحة وبعداً عن التكلف ، كما أنها لم تلق من يحترمها احترامه من غير دافع عطف وإشفاق ومن غير خجل وخوف من الناس وأقوالهم ؛ إلا أنها لا تحب أن يطلق العنان لعواطفه، فتعرضه لما لا يدرى من الشكوك التى تشيع جوها . ! ولا يلبث أن يدخل الجميع إلى القصر، إلا جوهان بطل قصة المملة، وبرنك عمود المجتمع ؛ ولا يكاد يخلو بهما المكان حتى ينظر القنصل إلى الفتى بوجه يطفح بشراً وامتناناً ويقبض على يده ويقول:

برنك — صرح بيتى هذا ، سعادتى المنزلية ، مركزى فى المجتمع ، هذه جميعاً أنا مدين لك بها .

جوهان — حسناً ، إنى مسرور ياعزيزى ، وكيف لايسرنى أن يأتى خبر من وراء هذه الحكاية القديمة ؟! .

ويقول له القنصل إنه أنقذ حياته وما هو أثمن من حياته،فيقول الآخر :

جوهان — صه... كنت وحيداً حراً يتيماً ، وكان يسعدنى أن أتخلص من ربق وظيفتى، وفى صدد ذلك كانت أمك مازال على قيد الحياة ، وكانت خطبتك معقودة سراً على أختى، فماذا يحدث لها لو أتيح أن تعلم الحقيقة ؟

برنك — حقاً، حقاً ، ولكن ...

جوهان — ألم يكن بسبب أختى أن صرمت حبل المودة مع مدام دورف ؟ ألم يكن من أجل أن تقطع هذه العلاقة أن كنت فى بيتها تلك الليلة ؟

برنك — نعم ... تلك الليلة المشئومة ... لما رجع ذلك الوحش السكير إلى البيت . . . نعم ياجوهان، كان ذلك من أجل أختك،ولكن مع ذلك... كم كان كرماً منك أن تحول الشبهات إليك وتفر بعيداً .

أرأيت كيف أميط اللثام عن الإله فإذا به صنم ؟...ويبدى برنك قلقاً من رجوع جوهان، فيطمئنه ويقول له إن بقاءه إلى حين فقط... ولكنه يعترف له أن أخته لونا تعرف الحقيقة أيضاً وأنه اضطر إلى أن يعترف لها،لأنها عزيزة عليه ، ولأنه لم يقو على لومها ... ولكنه يطمئنه أيضاً لأن أخته لن تبوح بكلمة لإنسان .. أما عن مجيئه فهو تلبية لرغبة أخته التى تحن إلى وطنها،وهل كان يستطيع أن يرفض لها رجاء وهى التى بذلت ما هو أغلى من حياتها لتوفر له السعادة والراحة عند ما كانا فقيرين بأمريكا ؟

وتخرج جوهان وتدخل لونا فتلتقى القنصل وحيداً ويتجاذبان أطراف حديث تمتد به الذكرى إلى الماضى البعيد،ونعلم منه أن برنك كان يحب لونا فيما مضى وأنه كان يعدها بالزواج ، ثم كان أن سافر إلى أوروبا ،فلما رجع تجافاها ووقع فى حب الممثلة مدام دورف ، كما مر بنا، وفى ذلك الوقت رأى أخت لونا الصغيرة وعلم أنها الوريثة الوحيدة لعمة لها ، فبادر إليها يتودد ، حتى علقها بحبه وعقد خطبته عليها ثم تزوجها ..وهو يكاد لا يتماسك أمام نظرات لونا ، ولكنه يدافع عن نفسه دفاعاً يراه وجيهاً ، وتراه معيباً ،إذ يقول إنه كان يحبها حباً صادقاً ، وإنه إنما تزوج أختها لثروتها لا لحبها،لأنه لما رجع وجد أن بيت آبائه مهدد بالخراب،وناداه واجبه نحو آبائه والمجتمع،فلباه على الوجه الذى ترى،ولكن لونا لاتحفل كثيراً بمثل هذا الواجب،وإنما يدهشها

أن ترى حياته قائمة على ثلاث أكاذيب : كذبه على جوهان لأنه يحمله من الذنب ما لم يفعل، وكذبه على زوجه لأنه يخدعها بحب لا يسعه قلبه ،وكذبه عليها لأنه ضحى بها ... فأية حياة هذه التي تستمد من الأكاذيب ؟! أفلا تراه يتألم لذلك؟لا.. إنه رجل عملي له ضمير من معدن آخر وقد يستحيل عليه أن يتصور إنساناً يرضى أن ينهار بنيانه،لأنه يقوم على كذب ؛ أليس لكل إنسان هفوة أو هفوات يحرص على إخفائها ، وربما لو كشف عنها الستار بارت حياته ؟ ..

ويقطع حبل الحديث ويدخل جميع من مر بنا من أهل القصر . . . ويعلم رولند أن دينا تميل إلى جوهان،فيجن من الغيرة . . ويصرح لها أن ذلك الشاب الذي توشك أن تضع فيه ثقتها،هو الذي اعتدى على أمها،مما كانت نتيجته أن هجرها أبوها وتركها وحيدة تموت .. وهو - إلى ذلك - سارق .. سرق البيت الذي كان موظفاً فيه ، وها هو ذا القنصل - وهو لا يشك في صدقه ! - يشهد على ذلك ؛ ويعجب جوهان من ذلك أشد العجب ، لأنه أولاً لم يسرق،ولأنه ثانياً لا ينتظر من القنصل - الذي ضحى في سبيله - أن يذيع عنه ما لم يرتكب، بل لعله انتظر أن يدافع عنه كثيراً . . ويتكهرب الجو ، ولا ينقذ الموقف إلا دخول بعض الرأسماليين في طلب القنصل ، فإن مشروع الخط الحديدي في خطر ولا ينقذه إلا القنصل،الثقة الغالية التي يتمتع بها ، ولما هو معروف عنه من جدارة بهذه الثقة !

***

نحن في حجرة الحديقة أيضاً ، وفي الحجرة القنصل ورئيس كتابه (كراب)،والكاتب يفضي لرئيسه بتصريح غاية في الخطورة ، ذلك أنه لاحظ مراراً أن الإصلاح الجاري في سفينة الفتاة الهندية يلابسه إهمال وسرعة هوجاء، وأن شكاً قوياً يداخله في أن(أون) يتعمد أن تبحر السفينة وهي واهية البنيان ، بحيث لا تستطيع مقاومة الرياح ، فتغرق ويقوم غرقها برهاناً قوياً على فساد الآلات الحديثة، الأمر الذي يحرص أون على الدعاية له ، ويضطرب برنك لذلك ويصرف كاتبه بعد إذ يطمئنه ويعده بالاهتمام بالأمر ، ولا يكاد يفيق من كابوس هذا الخبر حتى يفاجأ بدخول لونا وهي متلهفة على معرفة أمر السرقة المزعومة ، ويخبرها عمود المجتمع أن السرقة لم تقع ، وأن الأمر لم يتعد الإشاعة،ولكنه استغل الفرصة وشجع هذه الإشاعة لتجري مجرى الحقائق ، وكان مطمئناً إلى أنه لم يأت أمراً نكراً ، لأن سمعة جوهان كانت حينذاك من السواد بحيث لا تؤثر فيها بقعة جديدة ،ولأن انتشار مثل هذه الإشاعة يبقي الثقة في بيت برنك ، فلا يعزو الناس سوء حال ماليتهم إلى إهمال أو ضعف ، وإنما إلى أمر خارج عن كل ذلك وهو السرقة ، وقد استطاع بفضل هذه الإشاعة،وبفضل مال أختها ، أن يسترد مكانة أجداده ويحتل المكان العزيز الذي سما إليه .

وهنا يخف جوهان ، والفتى لا يحفل كثيراً بأمر السرقة،فقد تخلق بأخلاق الأمريكيين، وهم عادة لا يحفلون بآراء الناس عنهم ، ولكنه من جهة أخرى يحب دينا،وقد عقد العزم على أن يتزوج منها ويقيم معها هنا فى الميناء .. ويراع القنصل لذلك الخبر الذى فيه القضاء عليه ويصرح بسر خطير،هو أنه قبل أن يعلن أمر مشروع الخط الحديدى اشترى سراً جميع الأراضى التى سيمر بها ، كالغابات ومساقط المياه والمناجم،واشتراها بثمن بخس،حتى إذا تم المشروع صار مليونيراً،وإذا فشل هوى إلى الخراب..وأعداء المشروع كثيرون،وهو ما زال يتكىء على خيوط من حرير ،ومثل هذا الزواج قد يقطع هذه الخيوط ويهوى بالمشروع إلى الحضيض . .
ويرضى الفتى أن يسافر إلى أمريكا،ولكن إلى حين،على أن يعود ويطالب باسمه وبإعلان الحقيقة، وإذا تحفز القنصل للمقاومة وتكلم عن ثقة الناس به،هدده الآخر بخطابات عنده ، فيها الحديث الحقيقة والكذب ! أما الآن فسيسافر غداً فى « الفتاة الهندية »!

ويخرج الفتى وتخرج لونا.وهى ما تزال مفكرة فى شراء القنصل للأراضى التى يمر بها الخط الحديدى ، وفى عقليته التى تعمل لنفسها وتمهد لبسط نفوذها وقوتها وإرضاء أنانيتها،بينما يظن الرجل أنه يعمل للمجتمع ولقومه ، وأنه يوفر حياته وما يملك لغيره !

ويخلو المكان ببرنك،وتمر به ساعة عصيبة ، فهو الآخر أصبح يعتقد ويجزم بما يشك فيه كاتبه كراب ، من أن السفينة الأمريكية إنما أصلحت لتغرق ، وقد أصبح أمر السفينة وأرواح من عليها فى يده هو! نعم إن سمعة المصنع قد تنال بعض الشىء،إذا تأخر موعد إبحار السفينة ، ولكنها إذا أبحرت وغرقت،فلا شك أن هذه السمعة تتعرض لسوء أشد ! ومن جهة أخرى - وهو ما يشغله كثيراً - فالسفينة تحمل جوهان ، وخطابات،فضها كفيل بالقضاء عليه قضاء مبرماً ، فماذا يصنع ؟

وأخيراً تبرد حرارة قلبه وتهدأ العواصف فى نفسه،وتسكن الجواذب فى ضميره، وتتمخض هذه الثورة عن رأى واحد.... وهو أن تبحر السفينة فى موعدها !!! .

***

البلدة جمة النشاط متدفقة الحياة ، يتأهب كل فرد من أفرادها للاحتفال بالرجال العاملين عمد المجتمع،وعلى رأسهم القنصل برنك.

والقصر كذلك كثير الحركة ، ضيق بمن فيه ، وقد وضع هيلمار قطعة موسيقية بطلها القنصل ، وحضر (رولند) خطبة طويلة كلها إطراء وثناء على القنصل،والجميع يحث مستر برنك على أن يتأهب ليلقى الجمهور ،محاطاً بزوجه وولده ، وليخطب فيه .

وفى ناحية ساكنة من نواحى القصر، اجتمع جوهان ودينا ولونا ومارتا ، وقد فكر الفتى

أن يستصحب معه دينا ، على ألا يعود ثانياً. ومارتا تنصح الفتاة أن تقبل، والفتاة نفسها تجد من الدوافع القوية والإغراءات الساحرة، مايجعلها تلبي الطلب من غير نصيحة ؛ إلا أنها تشترط عليه أن يدع لها فرصة ترسم فيها حياتها بنفسها. فتعطى نفسها بمحض إرادتها لمن تشاء وترضى، من غير أن تؤخذ أخذاً، ثم يتوادعان ويخرجان، ولعلهما يجهلان أنهما تركا خلفهما قلبين كسيرين انتزع من كليهما عرشه الذهبي، فلونا كانت تحب أخاها كابنها. وكان هو يتعلق بها كأمه ، وهاهي ذى قد تخلص ظلها من قلبه دفعة واحدة، وكذلك مارتا كانت تجد عند دينا عزاء يهون عليها مرارة الوحدة والعزوبة، وها هي ذى تجد نفسها وحيدة. . وهي تعترف للونا أنها كانت تحب جوهان. . وطالما أحبته، وقد ارتأى لها هذا الحب — عند ماعلمت بالجريمة — أن تؤوى الفتاة الصغيرة وتربيها، لتكفر عن ذنبه . . وترتمي كل منهما بين يدى الأخرى، لعلها تجد عندها مافقدت من حب وحبيب .

وتقصد لونا إلى القنصل فتجده وحيداً ، عظيم الاضطراب ، وذلك لأنه قد قبل أن يظهر أمام الجمهور على غير رغبة منه، وهو إلى ذلك لايجد زوجه ولا ابنه — على كثرة سؤاله عنهما — وتهنئه لونا على أن قد أتت ساعة التكريم والتبجيل التي تحلم بها كل النفوس الطامحة ، ولكنه يفجؤها بأنه ليس سعيداً كما تظن، وأن حياته تبدو لعينيه باهتة ثقيلة . . وحقاً لقد خدع نفسه حين ظن أنه عمود يقوم عليه المجتمع . . والحق أنه آلة يعبث بها هذا المجتمع !

لونا — ولماذا لم تر ذلك إلا الآن ؟

برنك — لأنى مافكرت فيه إلا أخيراً ، بعد رجوعك إلى هنا ، بل هذا المساء على وجه الخصوص . أواه يالونا ! لم لم أعرفك فى الأيام القديمة ؟

لونا — فماذا كنت فاعلا ؟

برنك — كنت لاأتركك أبداً . فأتجنب هذه الحالة التى هويت إليها .

لونا — ألم تفكر بتاتاً فيما كان يمكن أن تكون لك تلك التى آثرتها على ؟

برنك — إنى أعرف على كل حال أنها ليست شيئاً أحتاج إليه .

لونا — ذلك لأنك لم تشاطرها حياتك العملية. ولأنك لم تضمها إليك بعهد حر صادق ، ولأنك رضيت بحمل العار الذى لطخت به كل من حولك .

برنك — نعم . . . نعم . . . نعم . . . كذب ودناءة فى أعماق كل شىء .

لونا — لماذا لاتتمرد على هذه الأكاذيب ؟

برنك — الآن ؟ ! . . . لقد فات الوقت يالونا .

على أنه لايضيع وقته عبثاً ، فهو يمهد لابنه من بعده كى يحظى بحياة أسعد من حياته ، حياة لا

تقوم على الأكاذيب ولا تستمد سلطانها من الدناءات .. ولكنه لا يمكن أن يعد مسئولاً وحده عن أخطاء المجتمع ، ولسوف يدافع عن نفسه إذا فكرت فى فضحه أمام الجميع ؛ ولكنها تطمئنه على مكانته ، فأخوها قد سافر مع دينا إلى أمريكا ولن يرجعا ثانياً ، وقد اختار سفينة غير الفتاة الهندية ، لأنه شك فى مقدرة ربانها ؛ وهى لا تفكر فى الإيقاع به ، وكل ما فى الأمر أنها علمت بسر حياته وقذارتها ، فأتت إليه لتؤنبه وتلفت نظره . لعله يستيقظ ، ولكنه يأبى إلا أن يبقى نائماً ؛ وإذاً فليبق كما يشاء . . ولكى تبعد عن نفسه كل شك ، فها هى ذى تمزق الرسائل التى تهدد سمعته !

وتصعقه هذه التصريحات صعقاً ؛ فجوهان يختفى إلى الأبد ، والخطابات التى صار مجرماً من أجلها ممزقة تحت قدميه ، وفضلاً عن ذلك ، فالفتى قد سافر على غير الفتاة الهندية . . . وهو لا يستطيع أن يأمر بتأجيل إبحار الفتاة الهندية الآن . . فكأنه دبر القضاء على أرواح بريئة ، من غير فائدة ومن غير ذنب !

ويدخل عليه هيلمار وفى يده خطاب . . والرجل شديد الاضطراب لا يدرى ما يقول ؛ فإذا سأله برنك عن زوجه وأولاف ، زاد اضطرابه ؛ ولكنه لا يجد مفراً من أن يقول للقنصل إن ابنه أولاف مختف فى الفتاة الهندية ! وإنه كتب إليه خطاباً يذكر فيه أنه سيسافر مع خاله جوهان إلى امريكا ليرتاح من تقييد أبيه له ! . . . أمام ذلك يئن القنصل من الألم . . وقد قضى على حاضره ومستقبله وغاض كل أمل له فى الحياة ! فمن هنا ترى أن المكر السيء يحيق بأهله . . ولكن الذين يحيطون ببرنك لا يفهمون كل شيء ؛ فإذا كانت السفينة الأمريكية ستبحر بالصبى إلى أمريكا ، فمن السهل أن تعود به كذلك ، وهم يذكرون أنه أب للمجتمع وليس لأولاف فقط ! . أما هو فلا يذكر مجتمعاً ولا مجتمعين . وإنما يذكر أمراً واحداً يحز فى فؤاده حزاً ، ذلك أنه قضى على ابنه بيده شر قضاء ، وقضى على نفسه فى آن واحد ؛ وفى تلك الأثناء تدخل مسز برنك فتلفت إليها الأنظار ، لأنها كانت غائبة إلى حين ظهورها . ويتوجه القنصل إليها بالملامة إذ تغضى العين عن طفلها ، حتى يفر هارباً ، ولكنها تؤكد له مطمئنة أنها أعظم حذراً مما يظن ، وأنها أحست بحركات الطفل وتبعته إلى السفينة ، وأمرت أون زعيم العمال أن يبحث معها عنه ، ولكن السفينة أوشكت أن تتحرك ولما يعثر عليه ، فاضطر أون ـ بسبب ذلك ـ أن يأمر بتأجيل موعد إبحار الباخرة إلى الغد ، وبذلك استطاعت أن تنقذ الفتى من التهلكة ؛ وهى تتوسل إليه أن يعفو عن عصيان ابنه ، ويعفو عن مخالفة أون أوامره ؛ وهكذا أنقذ الله السفينة ومن بالسفينة ، وأنقذ على وجه الخصوص أولاف . وبعث فى قلب برنك حياة جديدة لا عهد له بها .

وأتى القوم المحتفلون وهم يهتفون بحياة برنك ، وخطب رولند خطبة جامعة أشاد فيها ببرنك وأعماله وتضحياته،حتى إذا ما انتهى توجه القوم إلى برنك شغوفين باستماع كلمة منه .

وقام القنصل ليخطب وصمت القوم حتى ليحاسبون أنفسهم على أنفاسهم ، ولكن الخطبة لم تأت كما كان يحب الأصدقاء ولا كما كان الجمهور ينتظر ، أو قل إنها جاءت كأشد ما يكره هؤلاء وهؤلاء ، ولعلها كانت أقرب إلى الاعتراف النفسي منها إلى خطبة قومية ، استهلها بالطعن في المجتمع وتقاليده وتوسله إلى الله أن يقيه شرها ؛ وصرح بكل رزانة بأنه — وهو أكبر عمود في المجتمع — صاحب الفضيحة الكبرى التي أثارت اشمئزاز الأهالين منذ خمسة عشر عاماً،وأن الفتى جوهان برىء منها ، وأنه هو الذي اشتري جميع الأراضي التي سيمر فيها الخط الحديدي ، ولم يدع شيئاً غير ذلك إثماً اقترفه إلا اعترف به ، حتى انتهى وقد أحس أنه وإن كان قد خسر كثيراً ، إلا أن ربحه أوفى على خسارته .

ويترك القنصل الجميع ويقترب من زوجه ويسألها أن تعفو عنه وتجيبه المرأة إلى طلبه،وعلمت أنه لم يكن لها ، أما الآن فستربحه بعد إذ كانت تظن أنه كان لها ثم خسرته ! ثم يعفو عن أون ويعطيه من الوقت ما يشاء لكي يتم إصلاح الفتاة الهندية،ويعفو عن أولاف ويعده أنه ما عاد متداخلاً في حريته بحيث يرهقه ويزهقه ؛ وأنه سيهب له حياته يتصرف فيها كيف يشاء .

ويجلس إلى زوجه وأخته ولونا،وكأنه يجلس إلى أسرته لأول مرة،أو كأنه كان ذاهلاً من جراء مرض خبيث ثم أفاق ، ويسأل لونا،إذا لم يكن بدافع الانتقام قد فعلت ما فعلت، فبدافع أي شيء ؟ فتجيبه ببساطة : بأنه بدافع الحب القديم ! !

برنك — إلى... إلى... أيتها السيدات الصادقات الوفيات! لقد تعلمت الآن أنكن أنتن عمد المجتمع.

لونا — إذاً قد تعلمت حكمة فقيرة... كلا.. كلا.. إنها آيات الحق والحرية.. تلك هي عمد المجتمع .

نجيب محفوظ

المعرفة في تونس

تطلب « المعرفة » في تونس من حضرتي وكيلينا السيد محمد الأمين والسيد طاهر صاحبي المكتبة العلمية رقم ١٢ نهج الكتبية .

أو من حضرة السيد محمد بن الحاج صالح التميني صاحب مكتبة الاستقامة رقم ٣٤ نهج سيدي ابن عروس.

لانجلاند الانجليزى

شاعر الأخلاق والدين

بقلم الأستاذ رشدى ميخائيل السيسى

تاريخ الأدب الانجليزى حريص على أن يحشر اسم «لا نجلاند» ضمن أسماء الشعراء الإنجليز الذين ظهروا فى المرحلة الثانية من تاريخ هذا الأدب ، تلك المرحلة التى تنحصر فى الفترة بين الفتح النورماندى عام ١٠٦٦ ميلادية ، وبين وفاة (شوسار) الشاعر الكبير ، فى العام الأخير من القرن الرابع عشر ؛ فروبرتسون وبروك وثومبسون وغيرهم ممن عالجوا كتابة هذا التاريخ من المعاصرين والقدماء لم ينقذوا الرجل من هذا الحشر ، ونحن ومن سبقونا واللاحقون من دارسى هـذا الأدب وراغبى الكتابة فيه لابد لنا ولهم جميعاً من أن نحذو هـذا الحذو بالذات . نعم لابد لنا أن نحـذو هذا الحذو مترسمين خطا السابقين ، ولا بد لنا من أن نعتبر «لا نجلاند» شاعراً رغم عدم اطمئناننا إلى هذه التسمية التى درجت عليها الأجيال المتعاقبة ، والتى لا يقوم لدينا دليل على صوابها سوى نثر الرجل « المنظوم » الذى لا يعبر عن عواطف النفس وخلجات القلب ، شأن الشعر المطبوع ، وإنما عن أفكار وآراء لا تخلو من تنوع وجدة ، ومن تهكم وتمرد وثورة أيضاً .

أفهم أن يكون الشاعر رسـولاً أميناً للطبيعة غير المحدودة والقلب الانسانى الطليق ، ولساناً ناطقاً لهما قلما يخطىء أو يمين ، وإنما يعبر للعالم فى صدق عما يحويانه من أسرار الجمال والحق ، بعد أن ينشىء حول هذه الأسرار المذاعة نسيجاً مذهباً من وشى روحه الهائمة الطليقة وشعوره الصادق الجميل ، وأفهم أنه قد يكون الشاعر إلى جانب هـذا مفكراً جبار الفكر ، أو مصلحاً ينشد الكمال ، أو داعية إلى مذهب جديد ، إنما لابد له كيما يستكمل رسالة الشعر المخصص لها من أن يملك قدرة التعبير عن مكنونات الطبيعة وعن مكنونات القلب ، تعبيراً رائعاً فيه حياة وقوة ، وفيه حق وجمال ، فإذا أخفق فى الاستحواذ على هذه القدرة فى الإبانة والتعبير أصبح الأدب فى حل من اعتباره شاعراً . . . فأنا « مثلاً » لابد لى من

الاعتراف بأنه كثيراً ما ينتابنى عجز عن مشايعة القائلين بأن « فيلسوف المعرة » قد أدى رسالة الشعر كاملة غير مشوبة، إلا إذا اعتبرنا الشعر ضرباً من الفلسفة، وهذا ما لا يسلم به أحد، وإلا إذا اعتبرنا كل أديب يتناول المواضيع الاجتماعية أو الاقتصادية فى صدد بحوثه الأدبية عالماً اجتماعياً أو إخصائياً فى علم الاقتصاد، وهـذا ما لا يصح أن يكون، . . . بيد أنى وإن خالفت مذهب المؤمنين برسالة «المعرى» الشعرية، فلن تنتقص هذه المخالفة من عظمة المعرى كفيلسوف عالمى جبار، وكأحد الدعاة الاجتماعيين . . . فالمعرى وإن عبر عن آرائه وأفكاره بنظم موزون مقفى، راعى فى بعض قصائده مثل « لزوم ما لا يلزم » أن يشتط فى تقييد قافيته تقييداً يعجز عنه أبرع شعراء العرب، فإن هذا لا ينفى القول بأنه أخفق أو كاد فى أن ينقل إلينا رسالة العاطفة الخالصة التى لا يشوبهـا الفهم العميق المعقد، والطبيعة الصريحة غير المحدودة التى لا تعرف قيود الفلسفة ولا تحترم أوضاعها، وهى رسالة الشعر التى لا يتيسر لامرئ مالم يهبط عليه وحيها أن يصبح شاعراً ... ولو أن أستاذنا «العقاد» لم يكشف لنا عن ملكته الشعريه فى « ديوانه » وفى «وحيه »، لمـا ترددنا كثيراً عقب الاطلاع على أى من مؤلفاته الأدبية غير المنظومة أن نحكم بأنه شاعر مطبوع ؛ ذلك لأننـا لابد سنحس بنسمات عواطفه المؤرجة المليئة بالحياة تهب علينا من بين ثنايا سطوره، وذلك لأنه لابد ستأخذنا روعة مطمئنة غير فازعة عندما نشـاهد لهب روحه الشاعرة تندلع من أكثر ألفاظ شعره المنثور المبثوث فى تضاعيف كتابه، فتداعب أفئدتنا فى رفق وتمسح عليها وتطهرهـا، وذلك لأننا سنسمع موسيقى الانسانية العذبة الساحرة وتهاليل الطبيعة الشابة المرحة غير القاتمة تنبعث من معظم عباراته فتملأ علينا أجواز الفضاء .

وأنا أريد بهذا الاعتراض أن أصـل إلى نتيجة، وهـذه النتيجة بسيطة ومعقولة يعرفها الجميع، تتلخص فى أن الشاعر ليس كل من يعبر عن آرائه وأفـكاره ـ التى يصح أن تكون عميقة جبارة ـ بالنظم الموزون المقفى، وإنما لابد من أن تكون له رسالة خاصة يؤديها، ولا بد من أن يتصف حاملها بخصوبة النفس ودقة الإحساس والائتلاف بالطبيعة وسمو الذوق وما يتبع هذا السمو من القدرة على فهم شتى ألوان الجمال والتعبير عنهـا فى إبانة وفى سهولة وفى غير تشويه . . . فهل تيسر « للانجلاند » أن يجعل هذه العناصر من ضمن الدعامات التى قامت عليها رسالته ؟ ! فى مقدورى أن أؤكد العكس .

***

لست أريد أن أنتقص من أهمية الرسالة التى أداها «وليم لانجلاند» كمصلح اجتماعى، وكناقد «حكيم» حمل على نقائص عصره وعلى فساد المجتمع بما له من نظم بالية وأوضاع عتيقة غير عادلة

هذا المجتمع الفاسد الذى أحاطه المستبدون والنبلاء والأغنياء بهالة من القداسة المفتعلة غير الصحيحة حتى يرضخ له الشعب قسراً ، وإن تجرع فى هذه السبيل كأس الذلة والفقر والهوان طافية مترعة ؛ نعم ، لست أريد أن أنتقص من أهمية هذه الرسالة ، فلم يكن « للانجلاند » من هذه الناحية قرين ، ولو أنه عمد إلى التعبير عن آرائه الصائبة غير القائمة ، وعن أفكاره الثائرة غير المستكينة بالنثر دون النظم ، لتضاعف إنتاجه الأدبى وزاد وضوحاً ، ولاكتسبت كتاباته من هذا الوضوح قوة وتأثيراً ، ولتيسر للانجلاند أن يستحوذ ـ بجانب هذا ـ على مايستحقه من مركز فذ ممتاز فى عالم الأدب و« الاجتماع »، وأخيراً لما تجرأ تاريخ الأدب أن يعده من رجاله « الثانويين » الذين لا يؤبه لهم ولا يعتد بإنتاجهم .

ففى عهده ـ عهد الإقطاع وعهد أرستقراطية النبلاء فى القرون الوسطى ـ كانت حرية الرأى فى أبسط صورها من المحرمات ، وكان أعز مايبغيه الفرد العادى فى حياته أن ينال رضاء سادته الأشراف ، وإذ لم يكن « لانجلاند » من هؤلاء الأشراف فقد كان لزاماً عليه أن يتملقهم وينشد لغة رضائهم ، ولكنه لم يفعل لأنه كان فى تفكيره الحر متقدماً على جيله كثيراً ، لايستسيغ غرور الأغنياء وتعنت النبلاء ، ولا يرى لهم ما يبرر ظلمهم للضعيف واستبدادهم بالفقير ، ولذلك ظل يتألم لأجلهم ولأجل نفسه ، إذ كان واحداً منهم ، وإنما فى صمت وفى سكون خشية التعذيب أو الموت ، ولكنه لم يقو على الصمت طويلاً ، ولم يرد ـ بجانب هذا ـ أن يفرط فى رأسه بالثمن التافه ، وهو ما لابد أن ينتهى إليه مصيره إذا ما أعلن تمرده على الواقع الظالم المظلم فى غير حذر أو احتراس .

وتحت تأثير عاملين من حرية الرأى ومن غريزة الدفاع عن النفس رأى « لانجلاند » أن يحيط أفكاره الثائرة العنيفة بغلالة مقدسة من الغيرة الدينية والحماسة الكنسية ، حتى ينال بذلك تعضيد الكنيسة التى كانت تتمتع إذ ذاك بسلطة هائلة تعنو لها جباه الإمبراطرة والملوك والنبلاء ، وتحت هذا الستار المفتعل من الدين راح « لانجلاند » يهاجم المجتمع فى غير هوادة ، وراح يفضح عيوبه ونقائصه وينتقد الخاملين المتهتكين من الأغنياء والفقراء ، ومن النبلاء وعامة الشعب على السواء ، حتى لايتهم بالتحيز وحتى لايجد أعداؤه ثغرة يلجون منها للطعن فى ميوله وأغراضه والتشهير به وبها .

ولعلى لا أعدو الحقيقة إذا التمست التشابه فى بعض النواحى بين « لانجلاند » وبين « فيلسوف المعرة » ، فكلاهما كان يدعو إلى فلسفة الزهد والتقشف ، حتى لقد رضى الانجليز فى بعض الأحيان أن ينعتوا لانجلاند « بالنبى الاسرائيلى » ، لما عرف عن دعوته إلى الزهد ، وعن طباعه الحادة التى لا تلين ، تلك الدعوة وتلك الطباع التى لم تشتهر إلا عن أنبياء اليهود ورسلهم ، والتى تتعارض ، فى مظهرها وجوهرها ، مع ما يجب أن يكون عليه الشاعر من عذوبة النفس وخصوبتها ، ومن

رحابة الصدر ومرح العاطفة التى لا تحتد من نقص الناقصين ولا من ضعف الضعفاء، وإنما على النقيض من هذا تفيض حنواً وتذوب عطفاً على هؤلاء الناقصين والضعفاء ، وتأخذ من هذا النقص وهذا الضعف مادة للتسلية وملهاة للترفيه عن النفس ؛ وأنت لابد ستلمس هذه الميول التى تجعل «لانجلاند» أشبه ما يكون بناقد اجتماعى يلبس مسوح الرهبان منه بشاعر يخاطب العاطفة وينطق بلغة القلوب فى جمال وصدق ... لابد ستلمسها عند ما تروح تقرؤه فى كل آثاره التى تنوف على السبعة آلاف ونصف الألف من الأبيات الطويلة الروى ، وعندما تحس للسع كلماته النارية التى كأنما هى سياط ملهبة ، لما فيها من النقد المر والتهكم اللاذع ، ومن العنف الفكرى الهادم الذى لا أثر فيه لروح التسامح الشعرى ، ولا لنظرة الشاعر الشاملة الفسيحة إلى الحياة ، التى تحوى هذه الحياة برمتها وتشملها .

وأخيراً نوى « الجشع » صباح يوم ما أن ينال نعمة « سر الاعتراف » المقدس ؛ وإذ كان فى طريقه إلى الكنيسة لهذا الغرض لاقته « بيتى » بائعة الخمر بتحيتها المعتادة وسألته عن مقصده فأجابها بأنه متوجه إلى بيت الله لسماع القداس وللاعتراف استعداداً للتوبة التى انتواها ، فابتسمت « بيتى الخبيثة » وذكرته فى استهتار بخمرتها الصافية ، وإذ ذاك انهارت نوايا « الجشع » ولم يتمالك نفسه من أن يسأل بيتى - فى نهم - عما أعدته له بجانب الخمر من أنواع « المزات » ، وإذ اطمأن من هذه الناحية ولج المشرب فى عجلة ظاهرة وهو أكثر ما يكون نزوعاً إلى ارتشاف الكأس . . . وفى نواحى المشرب وقعت عينا الجشع على كثيرين من رفاقه السكيرين وزوجاتهم من عمال وحوذية ورجال دين ، وقد هللوا جميعاً لدى رؤيتهم صاحبهم « الفاضل » ، ثم رأوا أن يكرموا وفادته بكأس مترعة ؛ فشربها مع عشرات مثلها تبادلها مع الحاضرين ، وثمة قصف ولهو وغناء صحب الشراب وضجت به أركان المشرب ، حتى حلت صلاة المساء وكانت أمعاء الرجل قد اكتظت وناءت بحملها ، فقام متثاقلاً مترنحاً بقصد منزله ، وكان أن مرض وصرف فى فراشه يومين كاملين لا يبدى حراكاً ، ولكنه ما كاد يثب ويقوى على الحركة حتى فاجأ زوجته بقوله : « أين الكأس ؟ ! »

فأنت ترى أن هذا كلام قارص عنيف فيه تهكم وفيه نقد، ولكنه بعيد عن أن يكون شعراً، ذلك لأنه وإن كان الدافع إليه إحساس صادق بما كان فى أيامه من نقص ، ولكن طريقة التعبير عنه جاءت مشوهة معقدة غير جميلة، وأنت لابد ستقتنع بهذا إذا ما قرأت «لانجلاند» فى أسلوبه الانجليزى المعقد غير السلس المملوء بشتى التعابير التيوتونية المهجورة المستعملة فى الكنائس والأديرة فحسب .

وكتابات لانجلاند تخاطب العقل دون الشعور ، وتلتمس انتزاع تقدير القارىء لها، دون إعجابه بها ومداومة مطالعتها ، وهو قانع بذلك ما دام قد ضمن لنفسه أن القارىء لابد واجد

نفسه مرغماً على الاعتراف بجبروته الفكرى حتف أنفه ، وهو قانع بذلك مادام قد ضمن لنفسه أن يستدر فزع القارىء من قلمه النارى الهادم الذى وصمه معاصروه بالجنون ، ولعل لهؤلاء عذراً فى هذه التسمية، إذ لم ينج أحد منهم من نقده اللاذع الصريح، أو تعريضه الجارح الجرىء، أو لمزه غير المكشوف الذى يتضاءل أمامه كل نقد وكل تعريض .

ومثل « رهين المحبسين » عاش « لانجلاند » بين قومه وهو برم بهم وبالحياة معهم، وافر الازورار منهم ، وإن كان فى أعماق قلبه أكثر شفقة بهم وحناناً منهم على أنفسهم ، ولكنها شفقة المؤدب بتلاميذه يحبوهم بعنايته التى كثيراً ماتلبس ثوب القسوة ، ويخصهم بإصلاحه وإن توسل إليه ببعض ضروب الإرهاق ؛ وهكذا راح « لانجلاند » فى مجموعته الشعرية « رؤيا الحارث » المتصلة الجوانب والمواضيع ، يحلم ويتخيل كأنه فى برية جرداء قاحلة ، وعن يساره هاوية مظلمة حيث الموت والشيطان ، وعن يمينه منارة الصدق الشاهقة الساطعة ، وبين المنارة والهاوية يقوم العالم الصاخب بما فيه من كافة الأحياء ، أغنياء وفقراء وأشراف وعامة الشعب؛ وهنا تتجلى روح « لانجلاند » فى وضوح بما فيها من تمرد وثورة على الأوضاع وعلى مالها من قداسة القدم ، وبما فيها من حرية فكره التى لاترضى أن تحترم حدود الواقع أو تسلم بها ، فيروح يخاطب الفلاحين بقوله : « أيها الفلاحون الأمناء ، ياحاصدى التبر من التراب ، ويانعمة البلاد ، لاتبتئسوا إذ يأكل الكسالى من النبلاء زرعكم كأنهم غربان الحقول ، وأنتم من خلف محاريثكم تكدون وتنصبون فى غير هوادة أو رفق »

وقد اختص طائفة الفلاحين الفقراء بهذا الخطاب لأنهم كانوا عماد ثروة البلاد إذ ذاك ، إذ لم تكن هناك صناعة ما بانجلترا أو بغيرها من أقاليم أوربا ، وبعد هذا ينتقل لانجلاند من مخاطبة الفلاحين إلى طائفة أخرى مجهولة ، لعلها فئة النبلاء وأشراف البلاد ، فيروح يوجه إليها حديثه :

« ياسادتى الكسالى المحترمين ، ياذوى الملابس الزاهية والجسوم السمينة الناضجة ! لعلكم لاتختلفون كثيراً عن المشعوذين من المغنين والسائلين المتجولين الذين لايعنون بشىء قدر عنايتهم البالغة بملء بطونهم وحقائبهم ، ما أحرى بكم أن تتواروا خجلاً من بطالتكم ! ! . . . »

وهكذا يستمر « لانجلاند » فى انتقاده المر لكل طبقات الشعب دون استثناء ، فيتناول عيوبهم ونقائصهم بالتشهير فى أسلوب تهكمى لاذع تشوبه صيغة دينية قاتمة غير متفائلة تفعم القلب وحشة مظلمة وإن أشبعت العقل .

وأخيراً لعلى وفقت لاعطاء القارىء فكرة غير خاطئة عن هذا المفكر الكبير الذى لم ينصفه قومه ، فقللوا من شأن رسالته الحرة كما هو معروف عن خلقهم الذى يأبى الطفرة ولا يتابع من يخالف الأوضاع والتقاليد .

رشدى ميخائيل السيسى
ليسانسيه فى الأدب الإنجليزى

الذكرى

بعد وداع الأصيل

للسيد صالح الحامد العلوى [سنغافوره]

نظرت والأفق بديع خضيب — والكون باد فى جلال مهيب
البحر فى هدأته خاشع — والشمس عجلى قد دنت للمغيب
ألقت على الكون سنىً باهراً — كالذهب الذائب أو كاللهيب
هاجمها جيش الدجى فازوت — صفراء فى لون الهزيم الكئيب !
والروض موشى النواحى بدا — - من صبغة الشمس - بلون عجيب
ياحسنه ! حين بدا زاهراً — يهتز فى برد الأصيل القشيب
يروقك الغصن به : راقصاً — والزهر بسام كثغر الحبيب
والبلبل الشادى به : صادحاً — يزهو على الأطيار زهو الخطيب !
بحيرة زانته رقراقة — تملأ بالسحر فؤاد الأديب
تخالها المرآة مجلوةً — لها من النبت إطار ذهيب

* * *

وكم ترى ما بين أدواحها — من شادن ذى منظر ساحر
فى قده أبدع ما ينتقى — أنموذجاً للناحت الماهر
جلست فى ناحية أجتلى — جمال ذاك المشهد الباهر
وأرتوى من حسن تلك الرؤى — بمتعة المهجة والناظر
والريح تأتى بالندى سجسجاً — أشهى من النوم إلى الساهر
والزهر يهدى بأنفاسها — رسائلا من عرفه العاطر
فهذه الروضة مما بها — خواطر الإلهام للشاعر
عادتنى الذكرى ففى خطرة — رأيتنى كالهائم الحائر
فى غسق الليل وريعانه — أصيح : هل لليل من آخر ؟

صالح الحامد العلوى

أشيك كريب

[قصة تركية للشاعر ليرمونتوف]

كان فى مدينة «تفليس» رجل تركى وهبه الله بسطة فى الرزق ووفرة فى المال، وأعطاه ما هو أثمن من الذهب والفضة .. بنيته الوحيدة الجميلة « ما جول مجيرى » ، وكانت هذه الفتاة أجمل فتيات تفليس ، كما أن الملائكة أجمل من بالسماء .

وكان فى «تفليس» أيضاً رجل فقير يدعى « أشيك كريب» ليس له من المواهب سوى قلبه النابض وصوته العذب ، فكان يذهب إلى حفلات الزواج فيدخل على الأغنياء السرور بحسن توقيعه على آلته الموسيقية وغنائه الشجى ، يشيد بذكر أبطال تركستان القدماء وما قاموا به من ضروب الشجاعة والفروسية ، فحدث ذات يوم أن « أشيك كريب » كان يغنى فى حفلة عرس ، فرأى الفتاة « ما جول مجيرى » ورأته ، فجذب كل منهما الآخر نحوه ، ووقعا صريعى غرام يهيم كل منهما بالآخر .

وطبيعى أن لا يكون عند الرجل الفقير أمل فى الاقتران بمن أحب ، فوقع فريسة الهموم والأحزان ، وبينما هو راقد ذات مرة فى حديقة تحت أظلال الكروم يغط فى نوم عميق إذ مرت به « ما جول مجيرى » بصحبة صديقات لها ، فأبصرته إحداهن فذهبت إليه وقالت له وهى تغنى وتضحك :

— أيها الرجل المجنون ! لماذا تنام تحت الكروم وغزالك يمر بك ؟

فاستيقظ الرجل على صوتها، وأسرع الفتيات فى الهروب من أمامه ، فأنبت « ماجول مجيرى » صديقتها على غنائها لرجل لا تعرفه ، فقالت الفتاة :

— لو كنت تعلمين لمن كنت أغنى، لقدمت إلى أسمى عبارات الشكر، إنه « أشيك كريب » .

— إذن فلنذهب إليه .

ورأت « ما جول مجيرى » آثار الكآبة على وجهه ، فحاولت أن تخفف عنه، وسألته عن آله فقال :

— وكيف لا أحزن ؟ وأنا أحبك ، وليس لدى أمل فى الاقتران بك ؟

— اذهب إلى والدى وأطلب يدى منه ، وسيحتفل والدى بزواجنا بأمواله ، وسيعطينى من الهدايا والأموال ما يكفينا للعيش معاً سعداء .

— هذا جميل ! وإذا فرض أن أباك « آجا » لم يحقد عليك ، فمن يضمن لى أنك سوف لا تبتعدين عنى لإملاقى ولأنى مدين لك بكل شيء .

كلا ياعزيزتى « ماجول » ! ! لقد وهبت نفسى لك ، وأقسمت أن أتجول سبع سنوات ، فإما حصلت على الثروة والغنى ، أو هلكت فى إحدى المفاوز الموحشة ، فإذا كنت تصممين مثلى على الانتظار هذه المدة فستكونين لى .

فوافقته الفتاة وزادت على ذلك : أنه اذا لم يحضر فى اليوم المعين فستكون فى حل من وعدها ، وستتزوج « خورشيد بك » الذى خطبها من زمن .

* * *

عاد « أشيك كريب » إلى أمه يسألها الدعاء له بالتوفيق فى رحلته ، وقبل أخته الصغيرة ، ثم حمل حقيبته على ظهره ، وأمسك عصاً غليظة ، ثم خرج من « تفليس » فلحق به فارس على صهوة جواده ، فالتفت إليه أشيك كريب ، فإذا به خورشيدبك يقول له : أتمنى لك حظاً سعيداً فى رحلتك ، وسأرافقك فى تجوالك أنى ذهبت .

فامتعض «أشيك»لوجود مثل هذا الرفيق معه ، ولكن لم يكن بد من الواقع ، فسارا مدة طويلة حتى اعترضهما نهر ليس عليه قنطرة أو قارب ، فقال خورشيد بك لرفيقه : تقدم أمامى واعبر النهر وسألحق بك .

خلع أشيك كريب ملابسه وقذف بنفسه فى الماء حتى بلغ الشاطىء الآخر ، ونظر لصديقه فاذا خورشيد بك ـ لسوء الحظ ـ يأخذ الملابس ويقفل راجعاً إلى «تفليس» بسرعة غريبة ، حتى لم يظهر منه وسط الحقول إلا عاصفة من التراب المنبعث من ركض جواده ، فلما بلغ تفليس ذهب إلى أم أشيك كريب يحمل ملابس ابنها ويقول : لقد غرق ولدك فى نهر عميق ، وها هى ذى ملابسه .

فخزنت الأم وسقطت على ملابس ابنها تذرف بدل العبرات دماء حارة ، حزناً على فلذة كبدها ، ثم حملت الملابس إلى خطيبة ابنها « ماجول مجيرى » وقالت لها :

— غرق ابنى ، وحمل خورشيد بك ملابسه إلى ، فأنت الآن فى حل من وعدك ، فتبسمت « ماجول » وقالت :

— لا تصدق ذلك ، إن هذا كله كذب من خورشيد بك ، وأنا لن أتزوج مخلوقاً ما قبل مضى السبع السنوات . ثم أمسكت بآلتها الموسيقية ، وطفقت تغنى أناشيد أشيك كريب .

كان أشيك كريب إذ ذاك عارياً وبدون حذاء، وقد وصل إلى قرية استطعم أهلها، فأحضروا له ما يريد من مأكل وملبس، فأخذ يغنى لهم أغانى عذبة شجية، وتنقل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينـة حتى اشتهر فى كل مكان؛ وأخيراً بلغ مدينة « خالاف » فذهب إلى مقهى يغنى به، وكان فى خالاف إذ ذاك رجل غنى كلف بالغنـاء محب للمغنين، فكان يذهب إليه عدد من هؤلاء الفنانين يعرضون فنهم عليه، فلم يعجبه أحد، وأجهد خدمه فى البحث له عن مغنين فى كل ركن من أركان المدينة، وبينما هم يطوفون فى أرجائها إذ سمعوا صوتاً جميلا فى المقهى، فأسرعوا إلى « أشيك كريب » قائلين :

— لتذهب معنا إلى الباشا العظيم، وإلا أرغمناك قهراً على الذهاب .

- إننى رجل مهـاجر من مدينة تفليس، وإنى حر فى ذهـابى أنى شئت، وإذا لم أرد الذهاب إلى مـكان ما، فلا يرغمنى أحد . إننى أغنى متى أشاء، أما ذلك الباشا فليس بسيدى حتى أصدع لأمره .

فلم يحفلوا بقوله، بل حملوه إلى الباشا، فأمره أن يغنى فأنشد مدائح فى حبيبته « ما جول مجيرى » فأعجب الباشـا بغنائه وأمره أن يبقى معه، وأغدق عليه كثيراً من الذهب والفضـة ووهبه خلعاً سنية؛ فعاش أشيك كريب سعيداً جذلا، وأثرى ثراء فاحشاً .

ولا أدرى إذا كان قد نسى حبيبته « ما جول » أم ما زال يذكرها، لأن السنين السبع كادت تمضى، ولم يظهر « أشيك » أى استعداد للرحيل إليها؛ وابتدأت « ما جول مجيرى » تقنط من حضوره، حتى إنها ما كادت تسمع أن أحد التجار فى تفليس سيسافر ومعه أربعون جملا وثمانون عبداً حتى استدعت التاجر إليها وأعطته طبقاً من ذهب، وقالت له :

— خذ هذا الطبق واعرضه فى كل مدينة تحط بها رحالك، ومن يثبت لك أن هذا طبقه أعطه له؛ وسأكافئك بنقله ذهباً .

فرحل التاجر وعرض الطبق فى كل بلد حل به، فلم يتقدم إليه أحد يدعى ملكية الطبق الذهبى، حتى باع الرجل معظم تجارته وذهب بالباقى إلى « خالاف » ، وفيها عرض الطبق أيضاً، فسمع به أشيك كريب فأسرع إلى التاجر ليراه فأمسكه وقال : هذا طبقى ! !

— نعم، صحيح ما تقول، فإنى عرفتك يا أشيك كريب، أسرع إلى تفليس، فإن ماجول مجيرى أمرتنى أن أخبرك أن السبع سنين كادت تنتهى، وأنها إذا لم تحضر إليها فى الوقت المحدد ستتزوج بغيرك .

فأسقط فى يد أشيك، وأسـند رأسه بكفيه، إذ لم يبق على الميعاد سوى ثلاثة أيام؛ ومع ذلك فقد ركب جواده وأخـذ معه حقيبة مكدسة بالأموال، وسـار فى طريقه يحث

جواده حتى أجهده ، وسقط صريعاً ، على تلال أرزينجيان التى بين أرذيجان وأرضروم.
فماذا يعمل ذلك المسكين، وتفليس على مسيرة شهر، وليس لديه من الوقت إلا يومان ؟... وأخيراً رفع رأسه إلى السماء وقال : أيها الإله القدير، ليس لى من أمل فى الحياة إن لم تغثنى برحمتك.
ويئس من الوصول إلى بلدته ، وكاد أن يقذف بنفسه من أعلى قمة تل مشرف ، ولكنه أبصر فارساً على جواد أبيض ، وسمع صوته يقول :

— أيها الشاب ! ما الذى عولت عليه ؟

— أريد أن أموت .

— إن كنت تريد الموت فانزل لأ قتلك .

ولا أدرى كيف استطاع «أشيك كريب» أن ينزل من أعلى التل فى تلك الناحية الصخرية الفجائية الانحدار ، على أنه حين كان بين يدى الفارس سمعه يقول بصوت مرتفع اتبعنى ، فقال له:

— وكيف لى أن أتبعك وجوادك يسرع كأنه الريح ، وأنا مثقل بحمل كبير ؟

— علق حملك بسرج جوادى واتبعنى .

فأسرع أشيك كريب فى الجرى جهد طاقته ، ولكنه لم يستطع اللحاق بالفارس ، فقال هذا له : لماذا تبطىء ؟

— وكيف لى أن ألحق بك وجوادك أسرع من لمح البصر ، وأنا رجل متعب ؟

— إذن اركب خلفى وأصدقنى القول . . . إلى أين تريد الذهاب ؟

— حبذا لو استطعت اليوم الوصول إلى أرضروم .

— أغمض عينيك . . . . . انظر الآن .

فنظر أشيك كريب حوله ، فاذا مدائن أرضروم وأسوارها البيضاء تتجلى أمام عينيه. فقال للفارس : سيدى ! سامحنى فقد أخطأت ، لقد كنت أريد أن أقول إنه لابد لى من الذهاب إلى كارز .

— لقد أمرتك أن تقول الصدق ، وحذرتك الكذب ، ولكنى سأعفو عنك هذه المرة . . . أغمض عينيك . . . افتحهما الآن .

فلم يصدق أشيك كريب نفسه ، حينما رأى « كارز » أمامه ، فخر جاثياً على ركبتيه أمام الفارس يقول :

ـ إنى مذنب يا سيدى . . . عبدك أشيك كريب يستميحك عذراً لكذبه ، ولكنك تعلم أن الرجل الذى عزم على الكذب فى الصباح يكذب طول يومه ، وفى الحقيقة أنى أريد الذهاب إلى « تفليس » .

فقال الفارس غاضباً : إنك لن تصدق ، ولن يعتمد عليك ، ولكنى سأعفو عنك . . . أغمض عينيك . . . انظر الآن .

فصاح أشيك كريب فرحاً ، لأنه كان على أبواب تفليس ، فشكر الفارس شكراً جزيلا ، وأخذ حقيبته من السرج ثم قال للفارس :

— إن منتك لعظيمة ياسيدى ؛ فهل لك أن تزيدنى مكرمة أخرى ؟ إننى إذا حدثت أحداً عن رحلتى من أرزيجان إلى تفليس فى يوم واحد ، فلن يصدقنى ؛ فهل أجد عندك دليلا يؤيد قولى ؟

فتبسم الفارس وقال : خذ قطعة من الأرض تحت حافر جوادى وضعها على صدرك ، فإن لم يؤمن أحد بقولك دعه يحضر لك امرأة ضريرة فقدت بصرها منذ سبع سنين ، وامسح عينيها بقطعة الأرض فإنها تبصر فى الحال . فأخذ أشيك جزءاً من الأرض، ولكنه قبل أن يرفع رأسه لم يجد الفارس ولم ير جواده ، فاعتقد فى نفسه أن الفارس لم يكن غير « الخضر الياس »

* * *

لم يستطع أشيك كريب أن يجد منزله إلا متأخراً جداً ، فطرق الباب بيد مرتعشة وهو يقول : أماه ! أماه ! ! افتحى الباب ، فإنى ضيف الله . . . أكاد أموت برداً وجوعاً . . . أتضرع إليك بحق ابنك السائح أن ترحمينى وتدعينى أدخل .

فأجابته المرأة بصوت خافت : عندك منازل الأغنياء والأقوياء ، وفى المدينة حفلات زواج اذهب إليها لتمضى ليلتك فى أحسن حال .

— أماه . . . إنى لا أعرف أحداً هنا ، أتضرع إليك أن تجيبى طلبى بحق ابنك السائح ، دعينى أدخل .

فقالت أخته لأمها : سأذهب وأفتح له الباب .

فقالت لها أمها : وأنت أيتها الخائبة ، يسرك أن تستقبلى الشبان فى المنزل وتلهين معهم منذ فقد بصرى من كثرة بكائى على ولدى .

فلم تأبه الفتاة بقولها ، وفتحت الباب فدخل « أشيك كريب » وقرأ السلام وجلس ينظر حوله فرأى آلته الموسيقية معلقة وقد علاها التراب ، فقال لأمه : ماهذا الذى علق على الحائط ؟

— إنك ضيف غريب ، ألم يكفك أننا سنعطيك كسرة خبز ، وفى الصباح نقول لك مع السلامة ؟

— إننى أخبرتك أنك أمى ، وهذه شقيقتى ، فأرجوك أن تخبرينى عما علق على الحائط .

فلم تصدق الأم ، وقالت غاضبة: إنها آلة موسيقية .

مامعنى آلة موسيقية ؟

— آلة توقع عليها النغمات ويغنى عليها .

فطلب أشيك كريب من أخته أن تحضر الآلة له ، فقالت الأم :

— إن ذلك من المستحيل ، فإن هذه آلة ابنى العاثر الحظ ، وقد مضى سبع سنوات وهى معلقة لم يمسها بشر .

ولكن أخته قامت وأحضرت الآلة الموسيقية له ، فرفع رأسه إلى السماء ودعا ربه قائلاً : يا إلهى العظيم ! إذا نلت ماأتمنى فسأغنى على آلتى الموسيقية ذات السبع أوتار ، كما كنت أغنى سابقاً . ثم جانس بين أصوات الأوتار وطفق يغنى :

« إنى متجول مسكين وكلامى لاقيمة له .

« ولكن « الخضر إلياس » ساعدنى فى نزول منحدر صخرى ،

« مع أنى متجول مسكين وكلامى لاقيمة له » .

فتنهدت أمه وسألته عن اسمه فقال لها . اسمى راشد .

— اسمع ياراشد ! إنك قطعت نياط قلبى بكلماتك هذه ، وقد حلمت هذه الليلة أن شعر رأسى قد ابيض ، ومضى سبع سنوات منذ فقدت بصرى من بكائى ، فخبرنى : إن صوتك يشبه صوته تماماً ، فتى يعود ابنى إلى ؟

وكررت سؤالها مرتين وهى مجهشة بالبكاء ، فأخذ يدلل لها أنه ابنها ، ولكنها لم تصدق قوله ، وأخيراً قال : اسمحى لى يأماه أن آخذ آلتى الموسيقية وأذهب ، فقد سمعت عن حفلة عرس بجواركم ، وسترشدنى أختى عن الطريق ، وسألعب على الأوتار وأغنى ، وما سينالنى من عطاء سأقسمه بيننا .

— إنى لا أسمح لك بذلك ، فإن تلك الآلة لم تخرج من المنزل مدة غياب ولدى .

فأقسم لها أنه سيرد الآلة سليمة كما هى ، وأنه مستعد أن يضحى بكل مايملك إذا قطع وتر من الأوتار ، فتلمست العجوز حقيبته ، ولما أيقنت أنها مكدسة بالأموال أذنت له بالذهاب ، وقادته أخته إلى منزل رجل من السراة حيث أقيمت حفلة عرس ، ووقفت الفتاة بجوار الباب ترى ماسيحدث .

* * *

فى هذا المنزل كانت تقيم « ماجول مجيرى » ، وفى هذه الليلة كانت ستزف إلى خورشيد بك ، الذى جلس بين أقربائه وأحبابه يقصفون ويمزحون ، وأما العروس فكانت خلف ستار بين صديقات لها ، وقد أمسكت بإحدى يديها كوباً من السم ، وبالأخرى قبضت على خنجر حاد ، وأقسمت أن تموت قبل أن تنام فى مخدع « خورشيد بك » . وبينما هى كذلك إذ سمعت من خلف الستار

صوت رجل غريب دخل الحفل وهو يقول : السلام عليكم . . . أنتم الآن فى سرور وحبور، فهل تسمحون لمتجول مسكين أن يجالسكم ويشنف آذانكم بغنائه ؟

فقال «خورشيد بك» : ولم لا . . . ليدخل من شاء من المغنين والراقصين ، فإنا فى حفلة عروس، غننا أيها الرجل وسأعطيك حفنة من ذهب ؛ثم سأله خورشيد عن اسمه فقال :أدعى «ستعرف حالا»،فضحك خورشيدبك وقال: ما هذا الاسم ؟ هذه أول مرة أسمع فيها اسماً كهذا.

ـ عندما وضعتنى أمى جاء كثير من جاراتها يسألنها عما إذا كان المولود ذكراً أم أنثى ،فكانت تجيبهم: «ستعرفون حالاً »، ولذا سميت بهذا الاسم . ثم أخذ « أشيك» آلته الموسيقية وابتدأ يغنى:

« فى مدينة خالاف شربت خمراً ،

«ولكن وهبنى الله أجنحة ،

« فطرت ووصلت إلى هنا فى ثلاثة أيام »

وكان لخورشيد بك أخ ضعيف العقل ، فلما سمع الغناء جرد خنجره وقال : إنك تكذب ، كيف تصل من « خالاف » إلى هنا فى ثلاثة أيام ؟

ــ ولماذا تريد قتلى ؟ إن المغنين يجمعون كل ما فى المعمورة بمكان واحد ، ولم أطلب منك أن تصدق ما أقول .

فقال خورشيد : دعه يكمل غناءه . فأنشد أشيك .

« أديت صلاة الصبح فى وادى ارزيجان ،

« وصلاة الظهر فى أرضروم ،

« وصلاة العصر فى كارز ،

« والمغرب والعشاء فى تفليس ،

« فقد وهبنى الله أجنحة وبها طرت إلى هنا ،

« عسى الله أن يجعلنى قرباناً للحصان الأبيض ،

« فقد كان يسرح فى ركضه كأنه راقص على الحبل ،

« وكان يقفز من أعلى الجبال إلى المنخفضات ومن المنخفضات إلى الجبال »

« إن الاله وهب أشيك أجنحة بها يطير إلى هنا فى وقت ستزف فيه ماجول عبيرى » .

***

عرفت الفتاة صوت حبيبها فألقت السم والخنجر: فتغامز صديقاتها وهمسن لبعضهن قائلات: لقد عزمت أن تكون زوجة لخورشيد بك .

فسمعت ماجول كلامهن فقالت : إنكن لم تعرفن أعز الأصوات لدى ، ولكنى عرفته ؛ وأخذت مقصاً مزقت به الستر ، ولما رأت حبيبها أشيك صاحت وألقت بنفسها فى أحضانه

وطوقت عنقه بذراعيها ، ونسى كل من الحبيبين نفسه ، فلما رأى أخو خورشيد بك ذلك المنظر أخرج خنجره وأراد الفتك بهما ، ولكن خورشيد بك منعه وقال .

ـ هدىء نفسك واعرف أن المرء لا يفلت مما كتب له منذ ولادته، وما كتب على الجبين لابد أن تراه العين .

ولما استعادت الفتاة شعورها أحست بخزى مما أتت، فغطت وجهها الجميل بيديها واختفت وراء الستار . ونظر خورشيدبك إلى غريمه وقال : لقد تبينت أنك أشيك كريب حقاً ، ولكن خبرنا كيف وصلت إلى هنا فى ذلك الزمن الوجيز ؟

— لأثبت لكم صدق قولى أقدم لكم سيفى هذا وهو حاد جداً ، فإن كنت كاذباً فدونكم رقبتى ؛ ولكن يستحسن أن تحضروا امرأة فقدت بصرها منذ سبع سنين فسأعيد لها بصرها .

وكانت أخت أشيك على مقربة من الباب تسمع كلامهم فأسرعت إلى أمها تقول : أماه ! إنه أخى ... لقد كان ولدك أشيك كريب . وقادت أمها إلى حفلة العرس ، فأخذ أشيك كريب قطعة الأرض وأذابها بالماء ولطخ بها عينى أمه ، وهو يقول سترون جميعاً مقدار قوة «خضر الياس» ، وفى الحال شفيت أمه ؛ فلم يجسر أحد أن يكذب أقواله ، وتنازل له خورشيدبك عن عروسة الجميلة «ماجول مجيرى» . فسر أشيك كريب، وقال له: اسمع ياخورشيدبك ، إننى أقدم لك أجمل العزاء ، ولكن أختى ليست بأقل جمالا من ماجول مجيرى ، ثم إنى صرت غنياً ، وسيكون لأختى حظ من ذهبى وفضتى ، فإن شئت زوجتك منها ، فتكون سعيداً بها ؛ كما سأكون سعيداً بحبيبتى العزيزة ماجول مجيرى . م

إننى كنت كتوماً

للأستاذ عبد اللطيف ثابت

عائذ بالصبر ، لولا خاطر أرّث الأحزان ، لولا ذكرياتى
كم جهدت أكتم الآلام دهراً أحسب الجد على الصبر يواتى
يخدع الناس ابتسامى
وبأحشائى كلامى إننى كنت كتوما

***

وأنينٍ من أسى مستعصم حذرَ الواشى وخوفَ اللوّم
لى فى الوحدة ما قلبي هنا منه ، ما غُص بصدرى والفم
وإذا أبصرت أضحك
وتكاد النفس تهلك إننى كنت كتوماً

***

وإذا جرّ حديثاً مجلس فأثار لاعجاً كنتُ كتمته
أنهج السمار فى حذق الموارى منهجاً ما كنت من قبل اعتزمته
وأداجى القوم فيه
خوف ما لا أبتغيه إننى كنت كتوماً

***

ألمح الزهر نضيراً كاد أن ينطق الفدم العيي شاعرا
وأصيخ للطيور غردت هائجاً ترنيمها الخواطرا
ثم أخفيه شعورا
وأخاف أن يثورا إننى كنت كتوماً

وأرى للماء فى جدوله منظر العاشق ما تمثلا
فإذا ما خفت ذكرى لحظة كنت قد أشهدت فيها جدولا
أرقب الماء اختلاسا
وأخلاى احتراسا إننى كنت كتوماً

***

وأنا اليوم ضعيف كلما قلت صبراً ثار بالصبر الجزع
ذكرياتى ، تلك حلم ، غفوتى ولقاء الناس إياى الفزع
برم قد خاب جدى
فإذا خنت بعهدى فلقد كنت كتوما

***

إن فى الدنيا من الأسرار ما يشعر الناس به مستنكرين
قبحوا قدسية إذ قدسوا بعض ما فيه لنا ظلم مبين
وتولاهم فضولُ
أينما جلتُ يجولوا وأواريهم كتوماً

***

كان خيراً لو نشأنا صرحاء وقدرنا فى مناحينا الطبيعة
إن خلق الله فى الكون سواء ونداء الطبع من صوت الشريعة
فإذا ما شئت راحه
فاتّبع خلق الصراحه
واخش أن تلقى كتوما

عبد اللطيف ثابت

فروبل

مؤسس رياض الأطفال

تناولنا فى الجزءين الماضيين الكلام على نشأة (فروبل) وحياته كمدرس، والمعاهد التى اشتغل فيها، ومؤلفاته وأسلوبه الكتابى. وفى هذا الجزء نتمم البحث بعرض آرائه فى التربية، وفلسفته فيها وطرقه العامة فى تنشئة الأطفال. وبهذا الفصل ينتهى الكلام عنه.

***

لم تكن لفروبل فلسفة بالمعنى المفهوم من مدلول كلمة فلسفة، اللهم إلا إذا تسامحنا فجعلنا مالبعض آرائه ومبادئه من قيم معنوية شأن الفلسفة، فإذا جاز هذا صح لنا أن نقول: إن فلسفة (فروبل) فلسفة ناقصة، لأنها لم تكن قائمة على دعائم ثابتة ولا أسس متينة، ولأنها كانت مهوشة مشوشة لا تعرف المقدمات ولا تعتبر النتائج، ولهذا كان من العسير جداً عند أئمة التربية أن يطلقوا عليها كلمة «فلسفة»، بل أكثر من هذا اختلفوا فيما إذا كان يجوز تسميتها أفكاراً أو آراء، وهم فى هذا معذورون، لأن حياة (فروبل) المتناقضة واختلاط آرائه بعضها ببعض، وميله إلى الطبيعة، وعدم اعتماده على القوانين والنتائج، كانت تظهر آرائه بمظهر الفقاقيع التى لا تلبث كثيراً حتى تتبخر فى الهواء.

يضاف إلى ماتقدم تأثره بالأحلام الفلسفية تأثراً بعيد المدى، ورسمه لنفسه مثلا علياً بعيدة التحقيق صعبة المرام، مما جعله رجل أحلام لا رجل تفكير، فضلاً عن رجل فلسفة، فكانت فلسفته ـ وفى هذا مافيه من التجوز اللفظى ـ فلسفة خيالية أكثر منها خطة واضحة معلومة قائمة على المنطق والبرهان، خاضعة للحجة والدليل.

مبادىء فروبل فى التربية

عبر (فروبل) عن التربية بمعناها الصحيح بأنها ملاءمة المثل الأعلى، والمثل الأعلى فى نظره هو الدين. وقد ضمن غرضه هذا كتبه وبنى آراءه عليه مصاغاً فى فكرة واحدة تلك هى (فكرة الوحدة) أو (قانون الوحدة)، بشرط أن يتميز على طريق نشاط الطفل العقلى الذاتى الذى يصحبه الاستمرار والدءوب، لكى تؤتى التربية أطيب الثمرات.

ولهذا نجد أن أهم مبادئه التى بنى عليها طرقه فى التربية، هى ثلاثة:

(١) قانون الوحدة ، أو الارتباط : ويقصد به بيان أن كل شيء فى هذا الكون مرتبط بعضه ببعض، متحدة أجزاؤه بعضها ببعض، معلولة بعلة واحدة، خلقها خالق واحد ، مثله فى ذلك مثل الطفل الصغير الذى هو جزء صغير جداً من النوع الإنسانى،ومع ذلك فهو وحدة مستقلة تامة فى الإنسان، فيه كل بذور المواهب الانسانية من جسمية وعقلية وخلقية ، وهذه مستعدة للنمو عند تعهدها .

ويريد (فروبل) أن يثبت ضرورة الارتباط والتشابه بين جميع معارف الطفل ، أى أن كل ما يدرسه يكون ذا صلة بما سبق إيصاله إلى ذهنه ممهداً لما ، يتبعه « وذلك بالأشياء القريبة منه والمحيطة به حتى يسهل على الطفل إدراكها » .

وباتباع هذا القانون فى تربية الطفل يحصل على الفوائد الآتية : —

١ — التمكن من فهم طبيعة الطفل .

٢ — تمكن الطفل من فهم العالم المحيط به .

٣ — تمكننا من إدراك قدرة الخالق جل وعلا ، وذلك بدراسة الطبيعة والتدقيق فى محصها .

(٢) قانون النشاط العقلى الذاتى : وهذا القانون يوضح لنا أن كل شيء فى هذا الكون — سواء أكان نباتاً أم إنساناً، أم حيواناً — ينمو ويدرج بواسطة قواه الداخلية، وبواسطة التأثير الخارجى . ثم يزيد على ذلك فيثبت لنا أن فى الإنسان الذى وهبه الله العقل والإدراك تكون هذه القوى عنده باعثاً لكل أعماله فى الحياة .

ويريد (فروبل) أن يبين للمربى ضرورة اشتغال الطفل بنفسه واعتماده على ذاته فى تحصيل المعلومات وتنمية قواه العقلية عن هذا الطريق ، طريق النشاط الذاتى العقلى ، الذى يقول (فروبل) عنه « إنه ينمو بنسبة ما ينمو الإدراك الحسى ، وإنما يمكن تصويبه إلى إدراك كبد الحقيقة فى وقت أقصر » .

ويقول « روسو » : يجب أن يكون الطفل معلم نفسه . يريد بهذا ما يطلق عليه المربون (التعليم الذاتى) .

وباتباع هذا القانون تثبت المعارف فى نفس الطفل وترسخ فى ذهنه ، لأنها تتسرب إليه عن طريق الاختبار النفسى ، وبذلك يتعود الطفل الاعتماد على نفسه .

(٣) قانون التطور : يقصد بهذا القانون بيان أن كل شيء فى هذا الكون قابل للتطور ، سواء أكان إنساناً أم حيوانا أم نباتاً ، وأن فكره وعمله لا بد له من التطور فيه حتى يبلغ القدر المعلوم ، وأنه لا يوجد شيء يقف تطوره عند حد معين بلا سبب ، فحبة القمح مثلاً إذا تعهدت بالغرس والسقى فإنها تنمو وتزدهر وتثمر، وتظل فى نموها وتطورها

حتى تنتج بذوراً جديدة ، وهذه بدورها تنمو وتقوى بما تستمده من عود البذرة الأولى التى زادت حياتها الجديدة نمواً وقوة .

ويريد (فروبل) بهذا القانون أيضاً أن يثبت للمربى أن ذهن الطفل حاد بفطرته ، وأنه يستمر فى التطور والنمو مالم يوقف تعهده ، ولهذا فهو محتاج إلى الغذاء والرياضة والراحة ، بل لا ينمو نمواً صحيحاً إلا بحفظ هذه الشروط ، وباتباع هـذا القانون فى تربية الطفل يمكن تنمية قوى الطفل الجسمية والعقلية والخلقيه تنمية صحيحة .

طرق فروبل العامة

وضح مما تقدم نشره فى الجزءين الماضيين عن حياة (فروبل) أنه كان ميالاً إلى الحرية بطبعة ، مندفعاً نحوها بغريزته ، ولهذا يلاحظ القارىء أن تأثره بهذه النزعة جعله يعتمد فى وضع طرقه فى التربية على دراسة المشاعر الحرة ، وقد قال فى هذا الصدد : إنه يلزم مبدئياً أن تكون التربية الحقة ـ النمو والتعليم والتمرين ـ على ثلاث درجات :

١ — غير مباشرة ولـكنها تابعة .

٢ — مرشدة فقط ، حارسة فى نفس الوقت .

٣ — لا راغمة ولا آمرة ولا متداخلة .

أما ما يقصده (فروبل) بالطريقة غير المباشرة التابعة ، فهو المرشدة دون ظهور ، والتابعة لقيادة الطفل ، وتمييز القوة المبتكرة فيه ، بحيث يكون المرشد ناظراً إليه بعين الرعاية والعطف كى يتعهده حتى يتفتح دون أن يعرض له بسوء .

فعلى المربى إذن أن يلاحظ أن بيئة الطفل تساعده على النمو الصحى ، لـكى يتمكن من فهم نصيبه الحقيقى فى الحياة ، وتـكون هذه هى الطريقة الطبيعية ، وإلا كان العمل بعكس ذلك خطأ ، ولا ينتج الردىء إلا أردأ . مثال ذلك : يلزم لتنمية الـكرم أن تقلم أشجاره تهذيباً وتشذيباً ، ولا يقوم بهذا العمل كل إنسان ، ولا أى إنسان ، وإنما يقوم به أناس مخصوصون ذوو دراية وخبرة خاصة ، وإلا تلف الـكرم من أوله إلى آخره نتيجة تـكليف إنسان ـ لا قدرة له ولا خبرة ـ القيام بهذا العمل .

وعلى هذا القياس تقاس تربية الطفل ، فإن الأم أو المربية كثيراً ما تحب الطفل وتحبوه بصداقة زائدة ، ولـكنها ربما عاقت أو أتلفت نموه الصحيح لسبب جهلها واستعمالها طرقاً معينة خطأ ، يضاف إلى ذلك عدم خبرتها ونقص تربيتها .

ومن هنا يظهر جلياً خطر استعمال الطرق الخاطئة الثائرة ضد طبيعة الطفل ، ولذلك يحذر فروبل البستانى المتمرن والمربية المدربة من الوقوع فيها .

حقيقة أشار (فروبل) بأن تكون طرق التعليم غير مباشرة فى كل الأحيان تقريباً، كما أشار إلى أنها يجب أن تكون غير مرغمة ولا آمرة ، ولكن هناك ظرفاً يتحتم فيه أن تكون كذلك ، بل يجب استعمالها فيه ، وذلك عند مانرى أن حياة الطفل قد ضلت، واستمر فى سبيل الخطأ غير النزيه ، وبدون ذلك تضيع الحياة برمتها هباءً . ومع ذلك فقد تكون الطرق المباشرة قبل أوانها وفى غير موضعها إذا استعملت قبل أن يبلغ الطفل سن الرشد، أى قبل أن يفرق بين النافع والضار .

غير أن فروبل يحتم الطرق المباشرة عند مايراد تعليم « حقيقة عظيمة مهمة » ، أو أن يراد « وضع مثل أعلى فى الحياة للأطفال »: مثال ذلك أن يعلمهم أن الأشياء الروحية لا الدنيوية هى التى يمكن جعلها مثلاً علياً ، فيذكر لهم سير القادة والزعماء . . الخ .

* * *

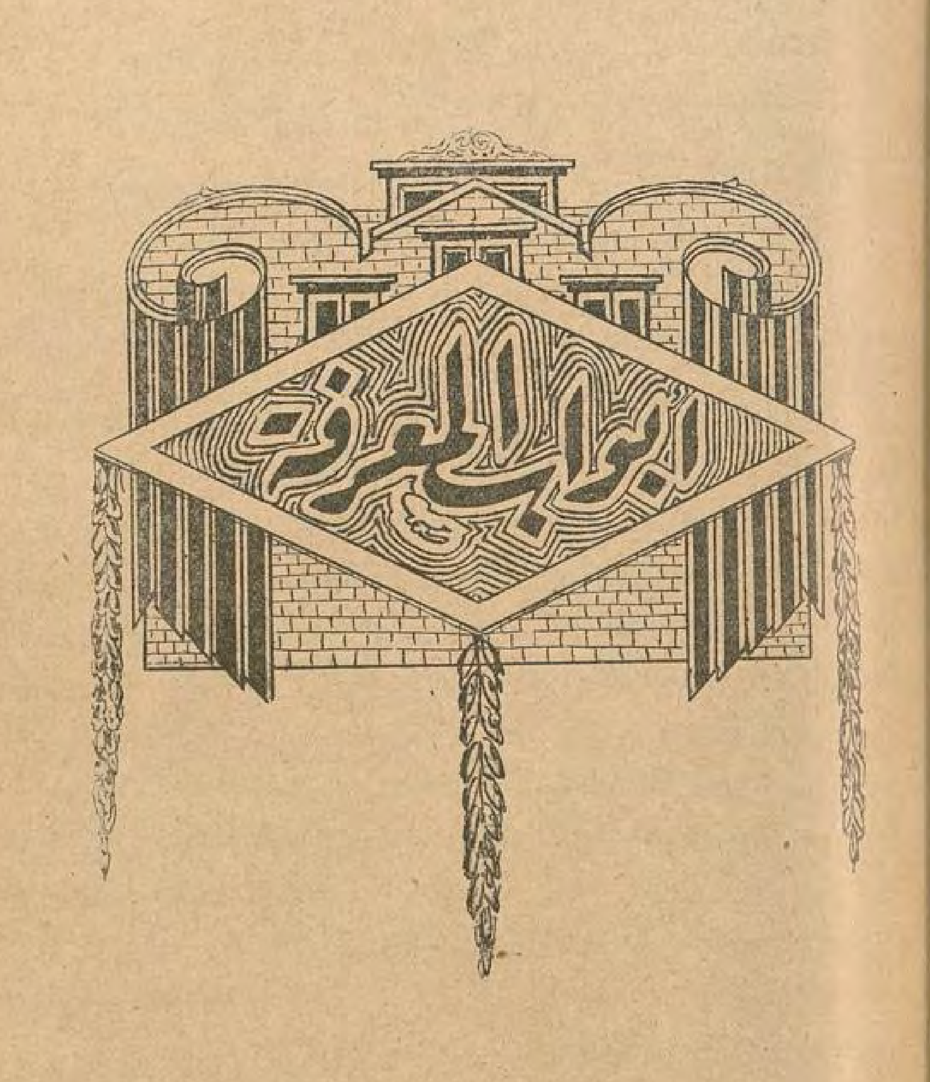
وصفوة القول أنه يلزم أن تكون عند الأطفال حرية فى التعبير عن آرائهم وحياتهم لأنفسهم ، ومراعاة الضغط كلما استوجبت الحال ذلك ، لأن الحياة لاتخلو من إرغام الإنسان على أعمال كثيرة ، ولكن يجب أن يكون الإرغام آتياً من الداخل ، فيقول الولد « يجب على » بدلاً من أن يقال له « يجب عليك » .

ويجب أن تكون التربية الحقة مزدوجة الجوانب ، يعنى أن تكون آخذة معطية ، جاعلة الخاص عاماً والعام خاصاً ، والخارجى داخلياً وبالعكس، موضحة الصلة بين الاثنين .

ويلزم أن يكون بين المعلم والمتعلم ، وبين الطلب والطاعة، شىء ثالث . بحيث يلجأ إليه كلا الطرفين ، هذا الشىء الثالث هو « الحق » ، وعلى كل فرد سواء أكان مربياً أو تلميذاً أن يخضع للقوانين العامة .

ويجب على المربى أيضاً أن يفطن للحقيقة العالية فى كل شىء بشرى ، وأن يرد الأشياء إلى خالقها لكى ينجح فى عمله ، ويسود فى الحياة .

المعرفة فى العراق


ابواب المعرفة

بين المتناظرين

نقد واعتراض

. . . . . . رئيس تحرير مجلة «المعرفة» الغراء

قرأت فى عدد يونيو سنه ١٩٣٣ من المجلة ص ٢٤٨ البيت الآتى ، للشاعر محمود أبى الوفا

أبى وفى النار مثوى كل والدة ووالد أنجبا للبؤس أمثالى

فأخذتنى دهشة ، وعرانى استغراب ، وتحرك فى نفسى عامل الشفقة والرحمة بالوالدين ، لذلك تناولت قلمى ، وسطرت لكم الآتى ، عسى أن أكون قد دافعت عنهما ، أورددت لهما بعض حقوقهما ، راجياً نشره إن راقكم ، أو التنازل بالرد على بما يقنعنى ، أكن لكم من الشاكرين .

***

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى قضى بوجود الإنسان فى هذه الحياة لحكمة لا يعلم كنهها إلا هو . والوالدان ليس لهما دخل فى هذا الإيجاد ، بل ما هما إلا سبب ظاهرى لا تأثير له . وإن فى قدرته تعالى إيجاده بدون أب كعيسى ، أو بدونهما معاً كآدم . ولكن هكذا اقتضت إرادته جل شأنه ، التى لا ينازعه فيها منازع ، ولا يحاسبه محاسب « لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون » .

إذن ، فنسبة الإيجاد للوالدين ، ما هى إلا نسبة مجازية لا توجب الحنق عليهما ، كما أظهر الشاعر محمود أبو الوفا ذلك فى بيته المذكور . وياليته قد وقف عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى جعل النار مثوى لهما .

ألم يدر الشاعر المحترم ، أن الأم هى التى قاست من المصاعب أعظمها ، ولاقت من المتاعب أقصاها ؟

ألم يدر الشاعر ، أن الأم هى التى حملته تسعة أشهر وهناً على وهن ؟ ثم وضعته كرهاً : الموت يهاجمها ، وسكراته تعاودها ؟

ألم يدر الشاعر أن الأم هى التى جعلت حياتها وقفاً على ابنها : ترضعه لبنها ، وتضحى بسعادتها ، تسهر لينام ، وتشقى ليسعد ، وتتعب ليستريح ، إذا مرض كادت تقتل نفسها غماً وكمداً ، وإذا انحرف مزاجه بكت هما وحزناً ، تبذل جهدها فى توفير أسباب راحته ، والعمل على إدخال السرور على نفسه ؟ ولقد نطق الوحى بذلك مبيناً أسباب ما تعانيه مشيراً إلى عظم

حقها فقال : « ووصينا الانسان بوالديه إحساناً ، حملته أمه كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » .

وإنه لايخفى على الشاعر المحترم أيضاً ، أن الوالد قد قام بمهمته الشاقة بجانبها ، من خدمته، إلى القيام بأمر تربيته وتعليمه ، وتهذيبه وتأديبه ، بماله ورعايته .

إذن فلكلاهما الفضل عليه . وكان من الواجب أن يرفع من شأنهما — كما صنع يوسف عليه السلام مع أبويه وقد أوتى الملك — ويلين لهما القول ، ويسبغ عليهما الرحمة والعطف ويقول : رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً .

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى كل هذه الأمور فى قوله « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .

وإن بر الوالدين لمن أحب الأعمال إلى الله وأفضلها ، وأرفعها درجة ، وأجزلها ثواباً ، بدليل ما جاء فى الحديث الشريف « عن ابن مسعود أنه قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم : أى العمل أحب إلى الله ؟ وفى رواية : أى العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها . قال : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين . قال : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . قال : حدثنى بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو استزدته لزادنى » — رواه البخارى ومسلم والترمزى والنسائى .

وأخيراً أنكر على الشاعر فى هذا البيت ، كفرانه النعمة ، ونكرانه الجميل . كما أنى آخذ عليه عدم الحذر والحيطة فى البيتين الآتيين الواردين بالعدد المذكور من « المعرفة » ص ٢٤٧ وهما :

كأننى فكرة فى غير بيئتها بدت فلم تلق فيها أى إقبال
أو أننى جئت هذا الكون عن غلط فضاق بى رحبه المأهول والخالى

إذ أنه صرح فيهما بوجوده فى هذا الكون غلطاً . وبما أنه قد ثبت مما قررته سابقاً أن الله سبحانه وتعالى هو الموجد الحقيقى ، فكأنه نسب الغلط لله ، والغلط محال على الله ؛ لأنه من صفات المخلوقات ، ولقد تنزه جل شأنه عن مشابهة خلقه .

فإن كانت هذه الأقوال عقيدة للشاعر وديدناً ، فلا ريب فى أنه قد عرض نفسه للهوى ؛ ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه .

وإن كان قد صرح به نتيجة اليأس والقنوط ، فإن الله تعالى قال فى كتابه العزيز : « ولا تيئسوا من روح الله ، إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون » ؟

عبد العزيز ابراهيم الهادى
مدرس بالمدارس الابتدائية

« المعرفة » توجه نظر الشاعر الأستاذ محمود أبى الوفا إلى هذا النقد .

مملكة المرأة والبيت

فن النصاحة (الخياطة) والمرأة

مما لا شك فيه أن فن نصاحة الثياب من أهم الفنون لزوماً في حياة الإنسان ، خصوصاً إذا نظرنا إلى ما وصلنا إليه بحكم قانون النشوء والارتقاء .

وقد نشأ هذا الفن من زمن بعيد ، يدل على ذلك ما عثر عليه في مقابر قدماء المصريين من الملابس الدقيقة الصنع ، وما توضحه الصور على جدران المقابر من بديع الأشكال .

وإن كثيراً من التواريخ والقصص القديمة تشهد بأن المرأة صناع اليد ، ففي (الأوديسه) - وهي أشهر قصص اليونان - تقرأ أن (بنلوب) ترقبت حضور عقلها وهي تخيط قطعتها التيلية الذائعة الصيت . ويقول الانجليز في أمثالهم : إن قدوة النساء هي التي تبحث عن الصوف والكتان وفيهما تصطنع يديها عن رغبة ، ومن النسيج تتخذ أغطيتها وتصوغ التيل الدقيق .

وعدا ذلك فإنك لا تمر بمتحف أي دولة كانت ، حتى تجد فيه قطعاً رائعة من آثار الإبرة التي أخرجتها يد المرأة في كل زمان ومكان .

وإليك فذلكة في أدوات النصاحة :

١ — الابرة : وهي تلك الأداة التي لعبت دورها في تطور المدنيات قديمها وحديثها ، ففي متحف اللوفر بباريس إبر من الحديد ، والبرنز ، وجدت في مقابر قدماء المصريين ، ويرجع تاريخها إلى ما قبل المسيح بألفي عام ، وتدل دقة صنعتها على أنها ليست الأولى من نوعها .

وقد استعمل الهنود والصينيون القدماء إبراً من الحجر وعظام السمك .

والألمان أول من اخترع الإبرة في شكلها الحالي ، وكان ذلك سنة ١٣٧٠ ميلادية في بلدة نور مبرج ، وهناك أقيمت لها المصانع ، ولم تصنع في بلاد الانجليز إلا في سنة ١٥٤٥ م ثم صنعت في فرنسا في سنة ١٧٦٥م . وقد اختلفت الآراء في جنسية من صنعها في فرنسا فمن قائل إنه فرنسي الأصل ، ومن قائل إنه إنجليزي الأصل ، ثم اشتدت بعد ذلك المنافسة في بيع الإبر بين الممالك الثلاثة السابقة الذكر ، فانخفض سعر الألف من ١٢ فرنكا إلى ٧ فرنكات ، حتى وصل الآن إلى فرنك ونصف فرنك .

٢ — الدبابيس . أول من صنعها الإنجليز ، وقديماً كانوا يستعملونها كآلة دفاع ، وقد كان

طول الدبوس الواحد يزيد على مائة سنتيمتر . أما الآن فتستعمل فى شد بعض أجزاء الملابس ببعضها وفى نصاحتها .

٣ — الكستبان: ذلك الشكل المعروف الذى لم يطرأ عليه تغيير منذ نشأته ، وقد اخترع فى نهاية القرن الرابع عشر ؛ ولقد تفننوا فى صنعه فى القرن الثامن عشر ، حتى أنه كان يقتنى للتجمل به ، كطرف الزينة ، وقد اشتهر بصنعه (نقولا باتسكوين) الهولاندى الأصل ، إذ أمكنه أن يصنعه من المادة (القاشانية) .

٤ — المقص : أول من اخترعه رجل (إيطالى) فى مدينة البندقية ، وكان ذلك فى القرن الرابع عشر ، ومما يدل عليه ، أنه عرف قبل هذا التاريخ بنحو أربعة قرون ، فقد عثر على إحدى النسخ القديمة من التوراة التى يرجع تاريخها إلى القرن العاشر ، ووجد فيها ورة رجل يتختم بخاتم يحمل رسم (المقص) ، ثم صنع بعد ذلك فى فرنسا سنة ١٥٦٠ ميلادية ، ولم ينتشر إلا فى القرن السادس عشر ، وكانت أهم مصانعه فى البندقية ، وميلانو ، ونابولى ، وفى القرن الثامن عشر كانت تصنع (المقصات) القيمة على أشكال مختلفة فى باريس ؛ فكانت تصنع على شكل بجعة ، أو ثعلب ، أو كلب ، أو الطائر أبى قردان ، إلى غير ذلك .

٥ — الخيط : يصنع من القطن والتيل والحرير والصوف فى جملة أقطار مختلفة أهمها انجلترا ، وإيرلندا ، وفرنسا ، وبلجيكا .

المربات فى فصل الصيف

(١) مربى الشوليك — الأشياء اللازمة : أقة من الشوليك ، ثلاثة أرباع أقة من السكر الناعم ، فنجان ماء .

الطريقة : توضع المقادير المذكورة فى إناء بعد إزالة أقماع الشوليك وغسله جيداً ، ثم يوضع على النار إلى أن يغلى . (٢) تزال الرغاوى التى تظهر على سطح المزيج ثم يترك على النار إلى أن ينضج . (٣) يوضع فى مرتبانات بعد تبريده ، ويراعى أن تكون أغطيتها محكمة .

(٢) مربى التين الفيومى — الأشياء اللازمة : أقتان من التين ، أقة من السكر ، خمس ليمونات .

الطريقة : يقشر التين ويوضع فى إناء وعليه مقدار السكر ، ويوضع عليهما عصير الليمون ويترك الجميع على النار مدة ساعة إلى أن ينضج ، ويلاحظ تحريك المزيج على الدوام ، ثم يوضع فى آنية بعد أن يبرد .

عمل بسكوت بدقيق الأرز

المقادير : ٣ ملاعق دقيق أرز ، ملعقة زبدة كبيرة ، بيضتان ، ملعقة دقيق كبيرة ، أربع ملاعق كبيرة من السكر الناعم ، ملعقة شاى ، خميرة بسكوت ، قليل من ماء الفانليا أو الليمون .

الطريقة : يضرب الزبد مع السكر حتى يصير كالقشدة ، ثم يضاف إليهما البيض ويمزج الجميع جيداً ، ثم يضاف إلى المزيج السابق دقيق الأرز ، وملعقة الدقيق العادى بالتدريج ويمزج الجميع جيداً ، ثم تضاف خميرة البسكوت وتدهن القوالب بالزبدة أولاً ، ثم بالدقيق والسكر ويوضع بداخلها المزيج ، ثم توضع فى فرن متوسط الحرارة .

إزالة البقع من النسيج

أنواع البقع : بقع دهنية ، حبر أحمر أو أزرق ، صدأ الحديد ، القهوة والشاى ، الفواكه ، البوية ، حروق المكواة .

ملاحظة : يلزم أن تزال البقع فى أسرع وقت بعد حصولها ، وتجرب الطرق البسيطة أولاً .

١ — الحبر الأزرق وصدأ الحديد على الملابس القطنية البيضاء : تبل البقع بماء بارد ثم توضع فوق إناء صغير « كسلطانية مثلاً » ، ويوضع فوقها ملح ليمون ، ثم يصب عليها ماء مغلى .

وإذا كانت البقعة قديمة تترك مدة من الزمن وعليها الملح حتى تزول ، ويراعى عدم غسل القماش قبل اختفاء أثر البقعة .

٢ — بقع الحبر الأحمر : تزال بقعه بواسطة النقع فى الاصبرتو ، أو بواسطة اللبن الزبادى .

٣ — بقع القهوة والشاى والفواكه : تزال بواسطة الماء المغلى والبوركس ، إن كانت حديثة العهد ، أما إذا كانت ثابتة من زمن فتزال بواسطة كلوريد الجير .

الطريقة : تستحضر ملعقة من كلوريد الجير ، وملعقة كبيرة من البوتاسا ، ويصب عليه رطل ماء ساخن ، وتترك مدة ٢٤ ساعة ، ثم يصفى المزيج ويستعمل فى إزالة البقعة ثم تغسل بالماء العادى .

٤ — العرق : يزال من القماش أو الطرابيش إن كان ثابتاً بالنوشادر المخفف بالماء .

٥ — البقع الدهنية : تزال بالغسل بالماء الساخن والصابون ، أو الغلى ، فى حال ما إذا كانت الملابس قطنية بيضاء ، وتزال بالبنزين فى حالة ما إذا كانت الملابس صوفية .

فى نظافة الأثاث

تنظيف جلد الكراسى :

١ — ينفض الكرسى جيداً بواسطة فوطة أو قطعة من القماش .

٢ — يخفق زلال بيضتين ، ثم تغمر فيه قطعة من قماش الفانلا ، ويدلك بها الجلد حتى يزول ما به من أوساخ ، وإذا كان لون الجلد أسود فيضاف جزء قليل من ورنيش الأحذية إلى زلال البيض ، ويترك الجلد قليلاً ثم يلمع جيداً بخرقة نظيفة ، ويمكن استعمال البنزين بدلاً من زلال البيض أحياناً .

العلوم والفنون

الكهرباء ترسل بالبريد

إلى من يريد

إذا ذكرت العلوم الطبيعية هذه الأيام ، ذكر الأمريكيون إلى جوارها ، فهم أبناء بجدتها وفرسان ساحتها ، لا منازع لهم فى هذا دون جدال . وقد تحدثنا فى العدد الماضى عن « الدكتور طومبسون » ورأيه فى مستقبل الكشف والاختراع ، كما تحدثنا عن ألعوبة المليون والمجهودات الجبارة التى بذلها فى إنشائها مهندسوها ذوو النبوغ .

وفى هذا العدد نتحدث عن بطل من أبطال الكشف والاختراع ، هو « الأستاذ الكسندر جوتز » الذى يريد أن يبنى بدل عالمنا الحالى ، عالماً جديداً له معادنه الجديدة .

***

هما عالمان كبيران ، قد توفرت فى كل منهما شرائط الكشف ، وما ينفكان يتحينان الفرص أنى سنحت ، ذان هما الأستاذان الشريكان « دكتور روبرت . ا . مليكان » مكتشف (الأشعة الكوزمية) ، والأستاذ « الكسندر جوتز » الذى نتحدث عنه فى هذا المقال .

صرح الأستاذ جوتز لأحد مخبرى المجلات الأمريكية ، بأنه سيصبح فى مكنة الطيار التجارى العادى أن يسير بطائرته فى أعلى طبقات الجو بسرعة (٥٠٠) خمسمائه ميل أو أكثر ، حيث أصبح فى الإمكان بناء الطائرات من معادن خفيفة ، وفى نفس الوقت قوية بشكل لا يصدق ! !

هكذا قال الأستاذ (جوتز) عضو معهد كاليفورنيا التكنيكى ، والذى جعلته أبحاثه فى المعادن يلقب بحق « الساحر البللورى » .

ثم يحاول أن يوضح لنا تصريحه فيقول : إن نجاح المعمل التجريبى فى إيجاد مثل هذه المعادن ، إن هو إلا تمهيد لعصر صناعى جديد يمكننا أن نصفه ـ دون أن نتهم بالمبالغة ـ بأنه عصر الكمال الصناعى ، فقد دلت التجارب العديدة التى أجريت حول خواص « البللورات »

و«التبلور»، على أن فى الإمكان صناعة معادن أقوى - من عشر مرات إلى مائة مرة - من معادننا الحالية. قد لايؤبه لهذا الكشف من وجهة نظرية، أما من الناحية العملية، فإن له الأهمية الكبرى؛ وليكن الطيران خير مثل لنا فى هذا؛ فقد كان فى الحياة التجارية - مقصوراً على طبقات الجو المنخفضة، بالنظر إلى الثقل الهائل الذى يجب أن تكون عليه الطائرة، لتستطيع الطيران فى الطبقات العالية، أما الآن - وقد أصبح فى الإمكان عمل معادن قوية فوق ما يمكن أن يتصوره عقل الصانع، وفى نفس الوقت خفيفة بشكل لا يتصوره الصانع - فقد حق لنا أن ننتظر علاوة على الطيران الأسرع، زيادة فى الأحمال المأجورة، وتخفيضاً فى الأسعار بنسبة ٥٠٪



بللورة نحاسية، يمكن أن تثنى بسهولة
ولكن أقوى رجل فى العالم لا يستطيع ردها إلى أصلها!



صورة جزء من المعمل (الكرينولوجى) فى معهد كاليفورنيا التكنيقى ؛ وفيها يبدو الجهاز الذى يولد منه (جوتز) ضغطاً قدره ٨٠٠٠ رطل على البوصة المربعة

***

ويدعى الأستاذ أكثر من ذلك ، أنه يمكننا أن نتصور من الآن سيارة المستقبل ، وهى تدخل وتخرج من هذا الطريق وذاك غير حاملة إلا جزءاً بسيطاً من وزنها الحالى ، ومع ذلك فهى مركبة بحيث تكون أقوى من زميلتها الضخمة السمجة منظراً . هذا عدا ما يمكن أن يحدث من اقتصاد فى البنزين وعجلات المطاط .

وسر هذا كله ينحصر فى أن العلم قد استطاع خلق معادن جديدة ؛ وهو قد استطاع خلق معادن جديدة بالنظر لأنه قد تعلم كيف يجعل البلورات تقف متراصة إلى بعضها البعض وقفة العرض الحربى ، فاذا كنت لا تصدق هذا فاعلم أن الأستاذ (جوتز) فى إمكانه تخطيط البلورات فى صفوف متراصة مستقيمة ، تماما كما يستعمل الطفل (الدبابيس العشرة).

وإخضاع نظام (التبلور المعدنى) لإرادة الصانع يسهل عليه عمل معادن متينة قابلة للشد غير معروفة حتى الآن ، من ميزاتها أنها أخف وزناً بكثير من المعادن الحالية ، وفى نفس الوقت أقوى وامتن بكثير .

ويقول الأستاذ أيضاً إن صانعى المعادن قد جروا على استعمال بللورات رديئة، فلما طلب إليه أن يذكر تعريفاً للبللورات الجيدة قال : هى عندى تلك التى تخضع لإرادة الصانع ، فتفى بالحاجات التى يريدها ، وتكون على استعداد لأن تتجمع بالنظام الخاص الذى يريده . ولم يكتف بما تقدم ، بل صرح بأنه إذا استطاع العلم أن يخضع لإرادته « الذرات البللورية » ، كما تيسر له أن يخضع « البللورات المعدنية » ، فلا تسل عن مدى ما يمكن أن يحدث من

الصورة التى إلى اليسار تمثل الجهاز الذى يستخدم فى تنقية الغازات لاستعمالها فى توليد البرودة العالية) .

والصورة التى فى الدائرة تمثل الحلقة المعدنية التى ترسل الكهرباء إلى من يريدها.

الصورة الوسطى ، تريك بللورة من البزموت طولها ١٥ بوصة . وفى أسفل وإلى اليسار نموذج من البللور المعدنى ، وإلى اليمين نفس البللورة ولكن بعد تعريضها للضغط.

المدهشات فى صناعة المعادن ، حتى لقد ننتظر منها - غير خاطئين - أن تكون أقوى من زميلاتها الحالية بمائة مرة ! !

* * *

لكل معدن تركيبه البلورى الخاص به ، كما أن لكل عنصر تركيبه الذرى الخاص به ؛ وهو النظام القائم بين كل واحدة من هذه البلورات والأخرى فى المعدن الواحد ، وبين كل من (ذرات) البلورة الواحدة ، الذى يخرج لنا هذا المعدن أو ذاك ؛ وقد سرنا حتى الآن على أن نستعمل البلورات والذرات كما تعطيناها الطبيعة . أما الأستاذ (جوتز) فقد استطاع - بنجاح - فى معمله التجريبى ، أن يستخرج - فى دقة ميكروسكوبية - البلورات الفردية لقطعة من معدن (البزموت) طولها ٣٠٠ ثلاثمائة قدم ، من معادن أخرى .

وقد توصل الدكتور إلى تنظيم (التبلور المعدنى) بتعريض المعدن ، وهو فى حالة السيولة ، لضغوط هائلة فى مجال مغناطيسى مكهرب واسع . وجد الأستاذ أن هذا الضغط المغناطيسى ، من شأنه أن يجمع البلورات إلى بعضها البعض عندما يبدأ دور برودتها . وبتغيير زاوية هذا الضغط المغناطيسى ، استطاع الأستاذ أن يخضع البلورات لإرادته ، كما يستطيع لاعب الشطرنج فعل ذلك بحجارته ؛ وبذا توصل إلى خلق المعادن ، وبالحرى صناعتها ، كما يريد .

* * *

ومن الأعاجيب المعدنية الأخرى التى توصل إليها الدكتور (جوتز) صنع بلورة مفردة من النحاس طولها قدم ، ونصف قطرها أكبر من نصف بوصة ؛ يستطيع الطفل أن يثنى هذه البلورة النحاسية ، ولكنها إذا ثنيت كان لهذا الانثناء رد فعل عجيب . . . فإن أقوى رجل فى العالم لايستطيع أن يعيدها إلى حالها الأولى ! ماذا جرى لهذه البلورة حتى أصابها العناد ؟! هذا ما لا يعرفه غير إنسان واحد ، هو الأستاذ (جوتز) الذى يقول إن البلورة المفردة حين انثنت تحطم شكلها وفسد تركيبها نظراً لانفرادها فلا تعود مطلقاً كما كانت .

* * *

وللحرارة منذ فجر التاريخ الأهمية الأولى فى صناعة المعادن ، أما الآن فقد بدأت البرودة تشارك الحرارة فى هذا المجال . فالمعروف الآن - على كل حال - أن المعادن يمكن أن تتفاعل فى أى درجة برودة ممكنة ! وبناء على هذا الكشف الجديد ، حاول الدكتور (جوتز) أن يراقب رد الفعل البلورى فى درجات البرودة العالية . وقد أعد لذلك معملا تجريبياً

كريوجينكياً (بارداً) ، وتمكن فيه بواسطة إسالة الايدروجين والندروجين والهليوم من الحصول على درجة برودة ٤٥٣ فارنهيت تحت الصفر ، وأمكنه ـ أكثر من ذلك ـ استخراج ملء (كستبان) من الهليوم السائل ، وهى وإن كانت كمية بسيطة، إلا أنها على كل حال تعطينا فكرة عامة عن مدى ما يمكن أن تنتهى إليه الأنظمة البللورية والذرية للمعادن .

* * *

المقاومة الكهربائية ، والمعارضة فى مرور التيار الكهربائى خلال أية مادة ، كل هذا يبطل عندما يعرض المعدن لدرجة حرارة منخفضة جداً ، وبمعنى آخر لدرجة برودة عالية جداً . عرف هـذا الأستاذ (جوتز) وقال فى تعليله : إن ذرات كل بللورة معدنية فى أوطأ درجات الحرارة ، تميل إلى أن تتجمع إلى بعضهـا البعض ، ومن ثم نرى أن قابلية المعدن لنقل التيار الكهربائى ، تزداد بدرجة هـائلة ، حتى إن أقل المعادن قابلية للتوصيل الكهربائى ـ مثل الصفيح والرصاص ـ يمكن أن تساوى ـ فى القدرة على التوصيل الكهربائى فى درجـة برودة ٣٥٠ فارنهيت تحت الصفر ـ أشهر المعادن المعروفة بقوة توصيلها للكهرباء . وقد استطاع العلم أن يستفيد من تلك الخاصية ، فاخترع المعمل التجريبى «صندوق الرصاص المكهرب» بالطريقة الآتية : —

تؤخذ حلقة من الرصاص ، تكون فى درجة حرارة منخفضة جداً تحت الصفر ، ثم توضع فى صندوق مصنوع من مادة جيدة العزل الكهربائى ، مع قليل من الهليوم السائل ليساعد فى الاحتفاظ بدرجة البرودة . فاذا صندقت الحلقة هكذا ، وأرسلتها إلى من تشاء بالبريد، ثم تسلمهـا المرسل إليه ، أمكنه أن يستعملهـا فى شتى الأغراض الكهربائية ، فقط عليه أن يحافظ على درجة البرودة لئلا يضعف التيار الكهربائى .

ويختم الدكتور حديثه بقوله : إنه يأمل كل الأمل أن تتاح فى القريب العاجل الفرصة للمزارع الفقير فى كوخه ، والصياد فى عشته على الشاطىء ، فيطلب من شركة الكهرباء ـ دون أن يضطر إلى مصـاريف التوصيل وغيرها ـ أية كمية يشاؤها من الكهرباء فيستعملهـا فى شتى الأغراض الكهربائية . كما يفعل الغنى تماماً ، دون أن ترهقه المصاريف التى تطلبها عادة شركات الاحتكار .

فمتى تنشأ عندنا شركة لبيع الكهرباء بالبريد ؟

مكتبة المعرفة

علم النفس النظرى والتعليمى

مجموعة محاضرات للأستاذ مظهر سعيد

هذا عنوان لكتاب فريد فى نوعه ، فريد فى مادته ؛ يتناول أهم النظريات الحديثة فى موضوعى الإدراك والتفكير ، وهما أدق ما فى علم النفس من موضوعات لا يتصدر لبحثها وتمحيصها إلا الراسخون فى العلم ، وهؤلاء قليلون جداً فى أوروبا وأمريكا ، وأقل من هؤلاء الموجود منهم فى مصر .

لذلك كان سرورنا بالغاً حده حين تصفحنا هذا الكتاب ، وبمعنى آخر حين تصفحنا هذه المجموعة الملخصة من محاضرات الأستاذ مظهر ، التى ألقاها على طلبته فى معهد التربية ، وسررنا لأنها حققت أمنية كنا نتمنى أن يحققها الأستاذ خدمة لبلادنا المتعطش شبابه إلى ورد العلم من مناهله ، وتلقيه على أيدى رجالاته المحققين المبرزين ، لا على أولئك المدعين .

أول ما يجبهك من هذا السفر القيم تمهيد جامع فى تحليل الحياة العقلية ، فمظاهر الشعور الثلاثة ، فالاحساس ، فالادراك الحسى .. ثم التفكير ، فمعناه ، فمنشأه ، فطرق تنظيمه ، فأثره فى تكوين المعتقدات إلخ ، مستعرضاً فى هذا كله النظريات القديمة . موازناً بينها وبين النظريات الحديثة بأسلوب علمى دقيق ، وعبارات طليه رشيقة ، وألفاظ سهلة مختارة ، محققاً الأصول والفروع والمصادر والمظان فى هذا العلم الحديث .

وثمة ميزة جديرة بالتنويه بها ، والإشارة إليها ، تلك هى شخصية الأستاذ المحاضر ، الشخصية العلمية التى تراها بارزة بين ثنايا الكتاب ، فيما أدلى به من آراء شخصية له . وتعديل للنظريات فى مواطن متعددة ، مع إيضاحها برسوم توضيحية من مبتكرات الأستاذ نفسه ، مما جعل للنظريات صورة سهلة التناول وافية الغرض عامة النفع .

وميزة ثانية لا نستطيع السكوت عنها ، دون الإشادة بذكر صاحبها ، تلك هى الأمانة العلمية فى التحقيق والتدقيق ، ذلك أنه لم يقتبس جملة واحدة أو استعان ببرهان من غيره إلا حرص على ذكر مراجعه ومصادره .

وفى نهاية الكتاب ملخص قيم هو الأول من نوعه مما كتب فى علم النفس وتاريخه ؛ ذلك الملخص يتناول المدرسة الألمانية الحديثة « مدرسة جشتالت » ، وهى التى عنيت بدراسة

الادراك والقوى العقلية على أساس جديد يخالف كل ما عرف إلى الآن .

وأهم من كل ما تقدم عناية المؤلف بتطبيق نظريات علم النفس على التربية والتعليم ، سواء أكانت نظرياته الخاصة أم نظريات غيره من العلماء . ضف إلى هذا أنه جشم نفسه تعريب المصطلحات السيكولوجية تعريباً علمياً دقيقاً ، فحبذا لو اتخذت ترجمة هذه المصطلحات أساساً لعلاج الفوضى الذائعة فى معظم الترجمات المتداولة .

والكتاب فى جملته هو — كما يقول الحاضر — مجموعة محاضرات لا أكثر ولا أقل ، ترشد الطالب والمدرس إلى طريق الدراسة العلمية المنظمة . وإذا كانت هذه المحاضرات — بالنسبة لطلبة معهد التربية — ليست إلا وسيلة للاطلاع الخارجى ، فهى لغيرهم من الباحثين من ألزم ما يكون ، إذ فيها ما يكفيهم وزيادة .

محاضرة فى الخط الكوفى

للأستاذ يوسف أحمد

لصديقنا الفاضل المحقق الآثارى ومحيى الخط الكوفى الأستاذ يوسف أحمد مفتش الآثار العربية سابقاً وأستاذ الخط الكوفى فى مدرسة تحسين الخطوط الملكية بالقاهرة ، فضل على العربية ، بما يبذل من علم وجهد فى سبيل تعرف آثارها الاسلامية الدفينة ، وإحياء خطوطها القديمة ، وأخصها الخط الكوفى الذى كاد يندثر .

وآية ذلك هذه المحاضرة التى بين أيدينا الآن ، فقد فصل الأستاذ المحاضر فيها الكلام على فضل الكتابة فى رقى الانسان ، فقدمها ، فرأى مؤرخى العرب فى أصل الكتابة العربية واشتقاقها ، فأصل الخط الكوفى ، وانتشار الكتابة بين العرب ، فاهتمام النبى صلى الله عليه وسلم بنشرها ، فتطور الخط الكوفى ، فمبدأ ركوده ثم إحيائه ، فكتابة أوسمة الدولة .

كل ذلك فى عبارات فصيحة ، وألفاظ عربية صحيحة ، خلت من الدخيل والغريب . وقد توج الكتاب بنماذج من ذلك الخط ، باسم جلالة الملك فؤاد الأول ، واختتمه بنماذج أخرى أولها اسم صاحب السمو الملكى الأمير فاروق ، فأسماء جمهرة من عظماء الأمة وعلمائها إلخ .. مما يدفعنا مخلصين إلى تقدير هذا العمل الجليل ، والاعتراف بفضل حضرة المؤلف .

الوحى المحمدى

تأليف السيد محمد رشيد رضا

أصدر فضيلة العالم الجليل الأستاذ السيد محمد رشيد رضا ، كتاباً قيماً بهذا العنوان ، فى يوم ذكرى المولد النبوى الشريف سنة ١٣٥٢ هـ ، والسيد رشيد خير من يتناول الشئون الدينية

بالبحث والتمحيص، وأقدر علمائنا المعاصرين على إقامة الحجة ودحض التهمة بالبرهان والدليل ، بل أكثر علمائنا المعاصرين عرفاناً بالسنة النبوية وإحاطة بحكمة التشريع والتنزيل .

فلا غرو أن يكون كتابه هذا درة الكتب التى ألفت فى الشئون الدينية هذا العام ، وحسب المؤلف فضلاً وشرفاً، أن أوقف كتابه على إثبات النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام ، دين الأخوة والسلام .

تناول الكتاب الكلام على مقاصد القرآن ، فمسألة الوحى ، فحاجة البشر فى عصرنا إلى الدين ، فإثبات الوحى المحمدى ، فقيام الحجة على ثبوت نبوة محمد ، فدعوة شعوب الحضارة إلى الإسلام ، فبلوغ دعوة القرآن لعلماء الافرنج . . . كل ذلك فى أسلوب حكيم ، ومنطق متزن ، وأدلة عقلية ونقلية صحيحة ، وسلامة براهين قوية لاشائبة فيها .

فلعل المعاهد والجماعات الإسلامية ، تقدر شأن هذا الكتاب الجليل ، فتشترك فى نسخ منه ليعم نفعه ، خصوصاً فى محنتنا الحالية بالمبشرين المضللين .

البطل الخالد صلاح الدين

والشاعر الخالد أحمد شوقى

الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى بك ، علم من أكبر أعلام البيان ، وزعيم من زعماء الأدب العربى ، وقائد من قادة النهضة فى فلسطين ، فلا عجب إذا كانت بحوثه ومقالاته موضع إجلال المجامع العلمية ، وتقدير الجماعات الأدبية ، ومحط أنظار العلماء والباحثين .

طالعنا الأستاذ برسالة تحمل هذا العنوان ، « البطل الخالد صلاح الدين ، والشاعر الخالد أحمد شوقى » ، فإذا بها آية من آى البلاغة ، وحجة من حجج الفصاحة ، ودليل من أدلة الإعجاز ، فكأنما يكتب صاحبها بوحى ، أو تخطها أنامله بإلهام .

هما مقالتان أو رسالتنان إن أردت الدقة فى التعبير : قيلت الأولى فى شوقى حين التأبين ليوم الأربعين فى بيت المقدس ونابلس وحيفا ، وقيلت الثانية فى صلاح الدين وواقعة حطين ، وكان تاريخ إلقائها يوم ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥١ هـ فى مدينة حيفا . وقد ساق فيها الأستاذ المؤلف الكلام إلى الغرب عامة ، فجاء حديثه عن صلاح الدين كحديثه عن شوقى ، جامعاً مانعاً ، فبارك الله فى القائل ومدفى عمره ، ورحم المقول عنهما .

وحى الأربعين

نظم الأستاذ عباس محمود العقاد

لم يبق كاتب ولا ناقد ، إلا تناول هذا الديوان بالنقد والتحليل ، وما يهم الآن — وقد نفدت الطبعة الأولى منه على مانعلم — أن ننقده أو نقرظه رغبة فى الرواج أو الكساد ،

— إن جاز ذلك في الكتابة عن الكتب وهو ما نستبعده — وإنما يهم حقيقة أن نقول في صراحة ويقين ، إن العقاد قد انتصر في المعركة انتصاراً لا بأس به ؛ ولكنا كنا ننتظر منه أن يكون وحيه إعجازاً لوحي أمثاله من الشعراء ؛ لأن « العقاد » قوة لا يستهان بها في حياة الأدب الحديث ، وعمدة من عمد النقد والاجتماع ؛ ذلك هو رأينا فيه ، ذكرناه في غير ما مواربة أو خداع ، رغم ما بيننا من تنافر واختلاف ، فليعلم هذا المنكرون عليه والمتعصبون له.

شوقي وحافظ

هدية مجلة « الجهاد » بحلب

مجلة « الجهاد » التي تصدر بحلب من أرقى المجلات الأدبية التي تصدر في القطر الشقيق ؛ ولهذا تراها تعمد دائماً إلى التحسين والتجديد في كل ما يدخل في دائرة اختصاصها من علم وأدب واجتماع ، وآخر أثر من آثارها ، بين يدينا الآن ، هو تلك الهدية النفيسة « شوقي وحافظ » ، وهي عبارة عن مجموعة طيبة لما ألقتها جمهرة من أدباء وشعراء عصبة الأدب في الحفلة التي أقامتها بحلب يوم ٥ كانون الأول ١٩٣٢ . فالمجموعة إذن عبارة عن رسالة قيمة متعددة الجوانب ، مختلفة النواحي ، لدراسة الشاعرين العظيمين : شوقي وحافظ .

وهي بهذا الوصف جديرة بالتقدير ؛ كما أن زميلنا الفاضل الأستاذ « محمد فهمي الخفار » صاحب مجلة « الجهاد » الغراء ، قمين بالتقدير والثناء ، فقد كان له فضل إظهار هذه الرسالة إلى الوجود .

الشيعة

وضع السيد محمد صادق السيد محمد حسين الصدر من علماء الشيعة بالعراق كتاباً بهذا العنوان ، حاول فيه تفنيد المزاعم التي حيكت حول نحلتهم ، ورد التهم التي ألصقها بها بعض القدماء والمحدثين ؛ وقد كنا نود لو أن المؤلف الفاضل وقف عند حد الدفاع فحسب ، دون التعرض لمذاهب أهل السنة ومصادرهم بالنقد والتجريح ؛ فإن مثل هذا العمل لا يؤدي إلا إلى إحداث الفتن ونشوب الحروب ، ونزول الكوارث بالأمة الاسلامية جمعاء ، وهو ما يعمل المستعمرون له ، وبعبارة أصرح أعداء الاسلام .

وإنا لنرجو مخلصين أن تمحي الشعوبية من بين المسلمين ، إذا أرادوا أن يسودوا العالم أجمع ، وإلا فالعاقبة ستكون — لا قدر الله — وبالاً علينا وخسراناً مبيناً . فلعل إخواننا الشيعيين يدركون هذه الحقيقة ، ولعل من يتصدرون منا للكتابة عنهم ، يتحرون الدقة والإنصاف ، ويسدون الثلمة الموجودة ، ولا يقعون فيما وقع فيه الأستاذ أحمد أمين في كتابه « فجر الاسلام » .

عصر إسماعيل

تأليف الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك

كنا حتى عهد قريب نلتمس المصادر الصحيحة ، التى نرجع إليها لتعرف تاريخنا القومى ، فلا نجد ضالتنا من بين آلاف الكتب التى تتعرض لمثل هذا الشأن ؛ وما تزال أكثر المؤلفات التى وضعت فى ذلك الموضوع إفرنجية مكتوبة بأقلام إفرنجية ، يسودها روح التعصب الذميم فى الغالب ، ويستوى عند أكثر أصحابها الحق والباطل ، والصحيح والزائف ، مادام الأمر لايخص بلادهم ، ولا يمت إلى بنى جلدتهم بسبب من الأنساب .

وكان أكثر عصور تاريخنا القومى تخبطاً وتضارباً فى القول ، واختلاط حقائقه بالأكاذيب ، وتعدد الروايات « عصر اسماعيل » الذى لم يتورع كثير من المؤرخين المحدثين عن الإسراف فى رميه بالتهم ، واختلاق الأكاذيب عنه ، أو الغلو فى امتداحه وتصويره فى روع الصور الخلابة .

وقد أتاح الله لمصر رجلاً من رجالاتها الصادقين ، فوقف نفسه على خدمة وطنه ، وإنارة سبيل الحق أمام أبنائه ، فعكف على دراسة تاريخنا القومى دراسة تحليلية جامعة ، هى الأولى فى بابها ، لأنها نتيجة البحوث العميقة ، والدراسات الواسعة ، والتحقيقات العلمية النزيهة ، التى لا تبالى أى إنسان كبير أم صغير ، او تخشى فى الحق لومة لائم .

وقد كان من نتائج هذه الدراسات العالية ، التى قام بتحقيقها وكشف مستورها ، مؤرخ مصر الجليل الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك ، أن أخرج للأمة مجموعة من الكتب القيمة ، هى سلسلة تاريخ الحركة القومية ، وآخر كتاب من تلك السلسلة النفيسة ، هو هذا الكتاب الذى نتكلم عنه الآن ، وبمعنى آخر هو العصر الحافل بشتى الروايات والأقاصيص ، والعهد الزاخر بالمحاسن والأضداد ، بل العصر المحفوف بالمخاطر والمزالق .

ومن ثم يستطيع القارىء تقدير ما يصيب المؤرخ من عناء وتعب ، وما يبذل من مال وجهد ، ويتعرض له من قال وقيل ، فى مثل هذا العمل الشاق . لكن عبد الرحمن الرافعى ، خير من يقدر المهمة التى ألقتها على عاتقه روح شقيقه المرحوم أمين بك الرافعى ، بل روح مصر الصادق ، وقلبها الخافق .

وها هو ذا « عصر إسماعيل » شاهد عدل على ما نقول ، فهو يتضمن الحديث عن خلفاء محمد على ، وأولهم عباس الأول ، والرجعية فى عصره ، ثم سعيد باشا والنهضة الوطنية فى عهده ، فنظام الحكم فى عهد عباس وسعيد ، فامتياز قناة السويس ، فبدء القروض الأجنبية . ثم

الفصل الثالث وهو خاص بمصر إسماعيل وسياسته الخارجية ، فالسودان فى عهده ، فالحبش ، فالبحرية ، فحروب مصر ، فالتعليم والنهضة العلمية والأدبية ، فتراجم رجالات النهضة فى جميع فروعها فى ذلك العصر ؛ وهنا ينتهى الجزء الأول من الكتاب عند الصفحة رقم ٣١٤ .

ثم يبدأ الجزء الثانى ـ وقد بلغت صفحاته ٤٠٠ ـ الكلام على منشآت الرى والزراعة ، فمنشآت الصناعة ، فالمواصلات ، فالأعمال الصحية ، فمأساة الديون ، فالحركة الوطنية والحياة النيابية ، فخاتمة النزاع بين الخديو إسماعيل والدائنين ؛ فنظام الحكم فى عهده ، فالحالة المالية والاقتصادية ، فالحالة الاجتماعية ، فشخصية إسماعيل والحكم على عصره ، فمجموعة من الوثائق التاريخية ، فمراجع البحث كبيرها وصغيرها ، عربيها وأعجميها ، فمجموعة من الخرائط والصور ، ثم فهرس هجائى عام للكتاب ، وهو من أدق ما يكون .

هذه أهم رءوس الكتاب ذكرنا لك أسماءها ، فتصور قيمة ما ينضوى تحت هذه من بحوث وآراء ، لتعرف قيمة هذا العمل الجليل .

بقى أن نطلب إلى وزارة المعارف أن تعيد الكرة ، فتقرأ الفصل الذى كتب عن « شخصية الخديو إسماعيل والحكم على عصره » ، فإنا واثقون أنها ستشترك فيه إتماماً للسلسلة التى اشتركت فيها ، ولأنها ستجده جديراً بانتفاع الطلبة والأساتذة به ؛ لصدقه وتقرير الحقائق بما لها وما عليها ؛ وهذه هى النزاهة ، وتلك هى مهمة المؤرخ الصادق ، التى نعتقد أن رجال المعارف أولى من يقدروها قدرها .

الضياء

اسم لمجلة عربية علمية أدبية اجتماعية تعليمية شهرية ، يصدرها فى (لكنو بالهند) العالم الفاضل السيد مسعود عالم الندوى ، بإشراف العالمين الفاضلين : السيد سليمان الندوى ، والشيخ تقى الدين الهلالى .

بين يدينا من هذه المجلة الجزء الأول من سنتها الثانية ، فاذا به حافل بجليل البحوث الدينية ، وقيم الموضوعات الأدبية ، فضلا عن كثير من المقالات اللغوية والنقدية ، وسير الحوادث ، والأخبار والآثار ، وغير ذلك مما يهم كل مسلم وعربى الوقوف عليه ، خصوصاً عن بلاد الاسلام الحى ، التى لا ترتضى بالثقافة الاسلامية بديلا ؛ فنوجه أنظار الغُيُر على نهضة الشرق وإحياء العروبة والاسلام ، إلى هذا المشعل الوضاء ، وتلك الحديقة الوارفة .

صفحات المجلة ٤٠ ، واشتراكها ٧ شلنات فيما عدا الهند وعدن والخليج الفارسى .

الورد الأبيض

يزعم بعض مؤرخى الآداب أن الأدب العربى خال من القصة ، ويتخذون رأى الفيلسوف الفرنسى (رينان) الذى اخترع السامية والآرية ، والذى يقول عن الآداب السامية إنها غنائية شخصية تتحدث عن عواطف الشاعر أو الكاتب ، بينما يقول عن الآداب الأوروبية إنها قصصية موضوعية. ويكفينا فى نقض هذا الرأى أن نشير إلى قصص الغزليين ، وإلى قصص الحب والحرب، والى سير الأولياء التى لا تخلو من براعة القصاص وفنه . وليس ذنب الأدب العربى أنهم يجهلون الناحية القصصية فيه؛ وليس ذنب الأدب العربى أنهم يقلدون بعض المغرضين من الباحثين الغربيين فى غير فهم أو بصيرة، وليس يضير العربية فى قليل أو كثير أن يتعصبوا ضدها، فالتعصب من الجهل والهوى . . .

أما أولئك الذين يتغنون بالمصرية ويدعون أنهم باتجاههم نحو القصة يخلقون فناً جديداً لم يكن له فى تقاليد المصريين وجود، فهم لا يقلون فى الخطأ عن زملائهم ؛ ذلك لأن الأدب المصرى غنى بالقصص والأساطير ، فهذا كتاب (ألف ليلة) تستطيع أن تضع أصابعك على القصص المصرية التى لا تقل فى الروعة عن أخواتها الفارسية والهندية ، وهذه (الميثولوجيا) الفرعونية بما فيها من أوزيريس وسخت ، وهذا الأدب المصرى فى القرون الوسطى الذى نقل الغربيون بعضه أيام الحروب الصليبية بما فيه من قصص رائع جذاب ، كل هذا يدلك على أن التقاليد المصرية للقصة موجودة وإن كانوا يتجاهلونها .

ومهما يكن من شىء فإن كاتب القصة ـ سواء أكان يكتب القصة كتابة فى نفسها أم يكتبها كوسيلة للاصلاح الاجتماعى أو الأخلاقى ـ فانه إذا كان محباً للدرس يجد فى الأدب العربى والأدب المصرى بغيته وما يشبع حاجته ويرضى نزعة الجمال فى نفسه .

ولسنا نستطيع أن نترك هذه النقطة دون أن نقول كلمة لأولئك الذين يحطون من قدر القصة ، والذين لا يرضيهم وجودها كفن جميل من فنون الآداب الانسانية ؛ إنهم يرددون هذا القول لأنهم يعتبرون أنفسهم من الأدباء ، هم يكتبون فى الصحف كل يوم أو كل أسبوع ، ويتناولون الأدب بالنقد والتجريح، وهم يحتقرون القصة لأنهم لم يؤلفوا فيها أو لم يحذقوا أسلوبها وما يجب فى هذا الأسلوب من دقة وارتباط .

فليست القصة المصرية ـ أو العربية ـ جديدة، ولسنا نحتاج إلى خلقها، ولكننا نحتاج إلى بعثها فقط ، وأنت تستطيع أن تدرك بسهولة وجود طائفتين من القصاص تقلد إحداهما النماذج الغربية ، وتتأثر الأخرى التقاليد العربية والمصرية ؛ فأما الأولى فهى مخطئة مسرفة فى الخطأ

لأنها لا تعتمد على الروح المصرية أو العربية ، ولا تتحدث عن حياة المصريين ، ولا تصف أخلاقهم ولا تنقد عاداتهم ولا تستعرض أرضهم وسماءهم ، أما الثانية فهى صادقة فى بيانها ، صادقة فى وصفها ، صادقة فى أسلوبها ، تقرأ للأولى فكأنك تقرأ قطعة من الأدب الانجليزى أو الفرنسى منقولة إلى اللغة العربية ، وتقرأ للثانية فتحس بهذه « المشاركة الوجدانية » بينك وبين المؤلف .

وبين يدى الآن مجموعة « الورد الأبيض » للأستاذ محمد أمين حسونه ، ما إن بدأت فى تلاوتها حتى أخذتنى الروح المصرية القوية فى كل سطر ، فأنا أعرف الأمكنة وكأن بينى وبين الأشخاص الذين وصفهم صداقة قديمة متصلة ، وإن شئت فقل إن المؤلف قد وصف بعض حالات مررت بها فى حياتى القصيرة كلها . . .

وقد لفت نظرى وصفه الرائع للمناظر المصرية فى قطعته المسماة « فى الواحة » ، ووقفت برهة عند هذه الفقرات « . . إلى جانب عظمة بلادكم التاريخية تشاد أكبر الأعمال الهندسية فى العالم ، حقاً إن مصر لساحرة بأهرامتها ودور عاديتها ولطف أهلها ، إنه فيض من الإحساس عميق لا يستطيع المرء أن يتجاهله . . . فيسائلها عدنان قائلاً : والصحراء ؟ فتقول إننى أحن جهدى إلى رؤيتها . . . إن سحر اسمها جذبنى إليها من أقصى الأقطار ، ليتنى أقضى فترة طويلة من حياتى بين نخيلها ورمالها ، ليتنى أظل فيك أبد الدهر يامصر ، منبع المدنيات الخالدة ومجمع الحضارات الأزلية » .

وإلى جانب هذا الوصف الرائع الذى تجده فى الواحة ، فإنك تقف — كما وقفت — عند هذه السخرية المرة على ما فيها من روح الفكاهة . . . اقرأ (أنصاف عذارى) فإنها تمثل الروح المصرية الفكهة الساخرة المستهترة التى تعيش لحاضرها ، والتى تتناسى ماضيها ومستقبلها ، تشبه ليلى المخدوعة والخادعة . فى هذه الأقصوصة أيضاً نقد لاذع لزواج الشيوخ الطاعنين فى السن من الفتيات الصغيرات .

ثم قف معى عند (أبى درش) هذه الشخصية الفقيرة الشريرة التى تبيع الكتب ، والتى كانت تحترف الأدب ، ألست تقابل كل ليلة رجلاً على هذه الطراز ؟ ألست تجد فيه ما يبهرك ويرضيك ؟ لا تحتقره إن له فلسفة فى الحياة عليك أن تتأملها وعليك أن تفكر فيها .

والمؤلف قد بلغ الغاية فى تهيئة الجو الملائم لكل قصة ، كما بلغ الغاية فى الحبكة القصصية ، أما أسلوب الحوار فسهل بسيط ، وهو يتخذ العامية أحياناً كثيرة ، ولكنها اللهجة العامية التى لا إسفاف فيها ، وهاك نموذجاً .

— صحيح رايحه تتخطبى لجدى ؟

— وماله ؟

– إزاى تتجوزى مجدى .. واحد مصرى !

وهو يتخذ العربية أيضاً فى الحوار الطويل، رغبة منه فى السمو بأشخاصه وقرائه ، ورغبة منه فى التأثير والإقناع ، ولكنه يتخير العبارات السهلة البسيطة ، وهاك مثلا منه :

– تعلمين يابنتى أنى كنت متزوجاً منذ سنوات ثلاث، ولما توفيت زوجتى لم أرض بعدها بالزواج لقلة « بنات الحلال » فى هذه الأيام، واحتفاظاً بعودة المرحومة وذكراها الطيبة .

ولقد وفق الأستاذ محمد أمين حسونة فى الملاءمة بين الواقعية والمثالية فى قصصه، فهو يتخيل ولكنه يعتمد فى خياله على الواقع ويصف الواقع ، ولكنه يلبسه ثوباً زاهياً من الخيال.

ونحن لا نشك لحظة فى أن مجموعة « الورد الأبيض » تعد نصراً جديداً لأدباء الشباب الذين يحاولون جهدهم استعادة المكانة الممتازة التى كانت للأدب العربى والمصرى بين الآداب العالمية ، ولست أشك فى أن أبناء مصر والعالم العربى سيجدون فى هذه القصص اللذة الفنية التى يرغبون فيها أو يطمحون إليها .

م . ث . ف

أربعة يهتدون إلى الله

بقلم الأديب سيد إسماعيل محمد

هو كتاب فى ثوب قصة ، ألقمه المؤلف أفواه المبشرين ليكون فى حلوقهم غصة، وعبقرية كانت كامنة حتى أظهرتها الأيام ، متبكرة غير مراقة ولا لصة .

ولقد تحدنا معرفتنا بالمؤلف عن أن نقول عنه وعن كتابه أكثر من هذا ... إلا أن الحق قد يدفعنا إلى أن نقول : إن « السيد » قد بدأ بمجهود تتضاءل أمامه نهايات غيره ، حيث أخرج لنا كتاباً ما كان له عندنا من شاكلة . وعلى أن نقول إنه كتاب ذو وجهين . . فبينما هو فى ظاهره رد على قصة (شو) الأخيرة فى ثوب قصة رائعة الخيال ، ضافية الجمال مترابطة الأوصال لولا بعض غموض – إذ به فى حقيقته دفاع عن الدين الإسلامى أوحى به خيال شاب مثقف محب للدين ، فجاء دفاع القوى عن نفسه إزاء زلة العاجز أمام ضعفه ، وجاء إشادة بذكر الدين الاسلامى فى مجال تنوسى فيه الدين الاسلامى .

والكتاب أول مؤلفات المؤلف ، فهو غيث أوله قطر ثم ينهمر . . . .

م . ح

مجلة نشر الفضائل والآداب الاسلامية

هى مجلة دينية إسلامية خلقية وعظية تاريخية اجتماعية يحررها نخبة من العلماء الفضلاء ، وجلة من المربين المشهود لهم بالاستقامة والصلاح ، فنحث القراء على الاشتراك بها ، ونوجه نظر الجمعيات الاسلامية إليها ، أما اشتراكها فزهيد جداً ، إذ هو ١٥ قرشاً داخل القطر و ١٠ قروش لأعضاء الجمعيات الاسلامية والعلماء والطلبة والعمال ، وضعف القيمة المذكورة خارج القطر ، أما إدارتها فتقوم بمركز الجمعية بشارع ابن الرشيد .

مجلة « النهضة الحضرمية »

قمين بالذين يعملون على الوحدة العربية ، ويدأبون على إنهاض الشرق، أن يسروا ويطربوا لسماع البشرى التى نزفها إليهم ، وهى بشرى تحمل فى طياتها كل تفاؤل بالخير ، ورجاء فى المستقبل .

أما خبر البشرى ، فذلك هو إصدار صديقنا الأديب الفاضل الأستاذ السيد طه بن أبى بكر السقاق ، مجلة علمية شهرية أدبية ، من أرقى المجلات التى ظهرت فى الشرق بلغة العرب ، باسم « النهضة الحضرمية » .

أصدر السيد طه هذه المجلة فى ثوب علمى أنيق ، وحلة أدبية محكمة ، حافلة بالبحوث الراقية، طافحة بالمقالات القيمة ، مزينة بصور أعلام العلم والأدب والفضل ؛ فسررنا جد السرور لهذا العمل الجليل ، الذى كان أصدق برهان على أن فى العرب رجالا صناديد مغاوير ، لهم من الهمة القعساء ، ومن مجد العروبة ، ما يحفزهم إلى تصدر كل نهضة وإصلاح .

فحبذا لو أدرك مواطنونا المصريون وإخواننا الشرقيون ، بل كل عربى ، بل كل ناطق بالضاد ، هذه الحقيقة ، فساهم فى هذا العمل الجليل ، بالاشتراك فى هذه المجلة العربية الخالصة ؛ ففى ذلك ما فيه من معنى سام نبيل .

أما المجلة فتصدر فى « سنغافورة » وعنوانها (28 Ialan Sultan ,Singapore) وأما قيمة الاشتراك فى الخارج فهى ١٢ شلنا ونصف انجليزيا .

ونحن نهنىء صديقنا الفاضل بعمله المجيد، راجين لمجلته ما تستحقه من الذيوع والتقدير .

الاعتدال

يظهر أن المحن التى انتابت المسلمين فى بقاع الأرض فى الأعوام الأخيرة ، بعثت فيهم روح الهمة ، وأيقظت فى نفوسهم عوامل الحساسية ، فقاموا يجاهدون فى سبيل الحق . . . هذا بنشر العلم ، وذاك بإذاعة الدين ، وآخر بإنهاض الروح السياسى أو الاقتصادى ، وهلم جرا . وفى هذا ما يبشر بالخير والفلاح ، إن شاء الله .

لذلك لا نمل من تشجيع الصحف والمجلات والمؤلفات التى تظهر فى تلك الجوانب ؛ وبين أيدينا الآن بضعة أعداد من مجلة باسم « الاعتدال » يصدرها الأستاذ محمد على البلاغى فى « النجف الأشرف » .

وبالرغم من أن هذه المجلة تعتبر لسان حال إخواننا الشيعة ، فإن هذا لا يمنعنا من الإشادة بها ، لما حوته من رائع الكلم ، واعتدال الفكر ، وبعد عن التعصب الذميم ، وهذا ما نريد

تحقيقه لتتم الوحدة الاسلامية بين الجميع ؛ إذ « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى »
فنحن نرحب بالزميلة ونرجو لها النجاح فى عملها ، والفلاح فيما أخذت نفسها بسبيله .
هذا ، والمجلة شهرية مصورة تبحث فى العلم والأدب والأخلاق والاجتماع والتاريخ ؛ وعدد صفحاتها ٤٨ صفحة ، وقيمة اشتراكها نصف جنيه انجليزى .

عيون الأريب

عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب

أهدانا العالم التونسى الفاضل الشيخ محمد النيفر ، الجزء الثانى من هذا الكتاب ، فتصفحناه فاذا به موسوعة تاريخية أدبية ، أثبت فيها مؤلفها الفاضل تراجم علماء تونس وأدبائها المبرزين.
ولما لم يكن لدينا الجزء الأول من هذا الكتاب ، لم نستطع معرفة الحدود التى رسمها المؤلف لكتابه ، ولا العهود التى تحدث عنها ، فلعله متفضل بإهدائنا ذلك الجزء لنوفى الكتاب حقه .

من الاعماق

عنوان لمجموعة فريدة فى بابها ؛ من القصص المصرى البحت ، الذى لا دخل لأجنبى أو أعجمى فيه ؛ حافلة بالمشاهد الواقعية ، والصور المصرية الرائعة ، وألوان الحياة القومية الصحيحة ؛ ثم هى تدل بحق على روح طيب عند المؤلف ، وقدرة على الوصف والتحليل ، فى عربية فصيحة ، وعبارات طلية ، لا أثر للتكلف أو التعمل فيها ، بل لسنا نغالى إذا وصفنا مجموعته بأنها المجموعة القصصية الأولى من نوعها فيما أخرجته المطابع هذا العام .
فنحث الشباب على قراءتها ، لما فيها من مثال يحتذى فى الأدب القصصى المصرى الصحيح .

مجلة النديم

أصدرت مجلة « النديم » الغراء ـ وهى من كبريات صحف تونس ـ عدداً ممتازاً ، استهلت به عامها الثالث عشر من جهادها ، وهى حقبة من الزمن ليست قليلة فى ميدان الجهاد الصحفى الفنى العنيف ؛ خصوصاً فى قطر منكوب بالاحتلال كتونس.
لذلك يسرنا أن تستمر هذه المجلة فى جهادها ، عاملة على خدمة وطنها الطيب ، بل جميع الأوطان العربية والشرقية .
فليبارك الله فى حياة « النديم » مادامت قائمة على نصرة الحق ، ورفع راية العروبة .

بين المعرفة وقرائها

نشأة الرقص وفائدته

(دنبرى . أميركا) إبراهيم حقى - أصبح الرقص (The Dance) دائماً فى كل الأمم ، فهل تعرفوننا عن نشأته وفائدته ؟

(المعرفة) نرجح بالقياس العقلى أن الرقص فطرى فى الانسان ، بدليل أنه كان موجوداً عند الأمم القديمة كلها ، وقد كان بعضها يتوسل به إلى عبادة آلهتهم ؛ ومن أعرق الأمم شهرة به اليونان الأقدمون ، وهم الذين وضعوا له القواعد والأوضاع وكذلك الرومان ، حتى لقد غلا بعض فلاسفة اليونان فى نظرهم إلى الرقص ، فاعتبروه صنواً للشعر .

أما فائدته فقسمان : قسم يقصد به خدمة الجسم لأنهم يعتبرونه من الرياضة البدنية ، ومن هذا النوع لا ضير منه إذا كان القصد حسناً ، وأما القسم الثانى فيقصد منه اللهو والمجون ، وهذا هو النوع الذائع الآن بكل أسف ؛ وما نشك فى أن ضرر هذا أكثر من فائدته .

زرقاء اليمامة

(ميدان دلى . سومطرا) عبدالله بن محمد بارباع الحضرمى - ذكر السلف أن زرقاء اليمامة كانت امرأة تبصر إلى مدى بعيد ، لا يقل عن ثلاثة أيام ، لو قطعت المسافة سفراً ، فهل هذا صحيح ؟

(المعرفة) قصة زرقاء اليمامة حديث خرافة ؛ فلا تصدق ما يقولونه فيها مطلقاً ؛ لأن الإبصار عن بعد ثلاثة أيام دعوى لا يؤيدها العلم القديم ولا الحديث ، ولو فرضنا المستحيل وسلمنا جدلاً بصدق المدعين ، لوقفت كروية الأرض حائلاً بيننا وبينهم . ولو أنك رجعت إلى القصة تستقرؤها لوضح لك كل ما نقول ، فقد ذكرت عرضاً فى معرض الكلام عن حرب حسان بن تبع وجديس ، ثم تطورت طولاً وقصراً ، وزيادة ونقصاً ، وتمدد رواتها مختلفين متباينين ، مبالغين مسرفين .

أما اسم المرأة فهو حذام ، وفيها يقول الشاعر ساخراً على ما نعتقد :

إذا ما قالت حذام فصدقوها   فإن القول ما قالت حذام

فجر الاسلام

(الرباط . المغرب الأقصى) السيد محمد بن عباس التباج — فى مقدمة كتاب « فجر الاسلام » وعد صريح من الدكتور طه حسين ، والأستاذ عبد الحميد العبادى ، بأن ثانيهما سيكتب الجزء الثانى من فجر الاسلام فى الحياة السياسية ، وأن أولهما سيكتب الجزء الأخير — وهو الثالث — فى الحياة الأدبية ، وكان مقدراً أن يخرج الجزءان قبل صدور ضحى الاسلام ؛ ولكننا فوجئنا بعد مدة طويلة بظهور الجزء الأول من « ضحى الاسلام » لأحمد أمين ، فما معنى هذا ؟ وأين وعد الاثنين المذكورين ؟

(المعرفة) أخبرنا صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد حسن الزيات ، أن الجزء الثانى من « فجر الاسلام » وهو الخاص بالناحية اليساسية ، سيصدره الأستاذ العبادى فى شتاء العام المقبل ، أما الجزء الثالث ، وهو الخاص بالناحية الأدبية ، فسيصدره الدكتور طه بعد الجزء الثانى مباشرة ، وفى مدة وجيزة .

منصور فهمى ومصطفى عبد الرازق

(ومنه أيضاً) عودنا أساتذة الجامعة المصرية القديمة والحديثة ، إخراج محاضراتهم فى كتب مطبوعة تذاع فى الجمهور الذى لا يتيسر له حضور هذه المحاضرات . وممن فعل ذلك المرحوم الشيخ الخضرى فى كتابه « محاضرات الأمم الاسلامية » ، والدكتور طه حسين فى كتابه « الأدب الجاهلى » .

فلماذا لم يخرج لنا الأستاذان منصور فهمى ومصطفى عبد الرازق نتائج بحوثهما فى الفلسفة لينتفع بها عامة الناطقين بالضاد فى أنحاء المعمور ؟

(المعرفة) طلب محرر هـذه المجلة إلى الدكتور منصور ذلك مراراً ، ومن سنوات ، وكرر عليـه الطلب ، حتى لقد اتفق معه فعلا على نشر سلسلة من الكتب الصغيرة فى الثقـافة الفلسفية والأدبية ، ولـكن تواضعه الزائد يدفعه إلى الاعتقاد بأنه لم ينته من أبحـاثه إلى النتائج الأخيرة التى يرتضى تسجيلها مطمئناً ، يضاف إلى ذلك مشـاغله الـكثيرة ، وميله فى الأيام الأخـيرة إلى الدعة والسكون .

أما الأستاذ مصطفى عبد الرازق ، فيأبى إلا التدقيق والتحقيق فى دائرة خاصة لا يتعداها ، تلك هى دائرة الجامعة ؛ يضاف إلى ذلك اعتقاده بأن الاتجاه الفكرى عند الجمهور سيء الظن بالفلسفة . وقد يشاركه فى هذا الدكتور منصور فهمى ، وآيتنا على ذلك أن أكثر المحاضرات التى يقدمها أساتذة الجامعة للجمهور ينحصر فى الناحية الأدبية والتاريخيـة ، فلعل سؤالـكم هذا يبعث فى نفسى الأستاذين روح التفاؤل الحسن .

هل يتزوج ؟

(حيفا . فلسطين) عبد اللطيف محمود — أنا طالب في الأزهر الشريف ، وأمضى العطلة الصيفية فى بلدى الآن ، وقد نصحنى أصدقائى بأن أتزوج أثناء هذه العطلة ، أى قبل العودة إلى الأزهر لاستئناف الدراسة ، وهم يرون أن ذلك أكثر فائدة لى ، وأنا أرى العكس ، لأنى أعتقد أن زواجى الآن قد يؤخرنى فى الدراسة ؛ فما هو رأيكم فى مسألتى الدقيقة هذه .

(المعرفة) أثار سؤالكم جدلا طويلا بيننا وبين فئة صالحة من أصدقائنا المخلصين ، منهم المربى والكاتب والشاعر والصحفى وشيخ عروبة أيضاً ؛ فقد عرض المحرر السؤال عليهم ، لأنه خشى أن يجيبكم بما لا يعلم ، لأنه لم يتزوج حتى الآن ، فرأيه فى مثل هذه الحال لا عبرة به.

والدليل على ذلك أنه كان يرى أن تقف نفسك على التحصيل ، مهملا الزواج حتى تتخرج فى معهدك ، ثم تجابه الحياة بسلاح من العلم والمال والجاه ؛ ولك من ثقافتك وخلقك وبيئتك خير وازع . ولكن غالبية المجتمعين ، ساعة كتابة هذه السطور ، قرروا أن الزواج أصلح لك ، وأجدى عليك فى درسك ؛ وكان أكثرهم تحمساً هذا الرأى ، أستاذ من أساتذة علم النفس ، أخذ يقلب سؤالك على جميع الوجوه ؛ ويستقرىء خطك وأسلوبك ، علّه يصل إلى ما يزوره بنفسك ، وأخيراً أفتى بما أفتى الباقون

فتوكل على الله وتزوج ـ نزولا على حكم الأغلبية ـ ولا تحملنى مسئولية ذلك فى المستقبل ؛ لأنك سألتنى ما ليس لى به علم .

هل للجنين روح ؟

(طنطا . مصر) عبد الفتاح خفاجه — هل للجنين فى بطن أمه روح ؟ وإذا كان له ، فهل تكون فيه قبل الولادة ، أم بعد ولادته ؟

(المعرفة) ليس من شك مطلقا فى وجود الروح عند الجنين من مبدأ خلقه فى بطن أمه ، ثم يكون فى بطن أمه كائناً حياً ، فيه كل خصائص الكائن الحى ، إلا التنفس ؛ وقد أثبت علماء الفزيولوجيا ، أن وظيفة التنفس محصورة فى تنقية الدم ، فيصلح كغذاء للانسان .

ولله فى هذا حكمته الخفية ؛ فإن الجنين بمجرد ولادته ؛ أى عند استقباله الوجود ، يبدأ تنفسه ، ومن ثم يستطيع الحركة والصياح . . . الخ .

فهرس

الجزءين : الثالث والرابع من السنة الثالثة

أبواب المعرفة

